الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

2012: النهاية؟

THE TWELVE

رواية

ويليام غلادستون
WILLIAM GLADSTONE

2012

النهاية؟

رواية

تأليف

ويليام غلادستون

William Gladstone

ترجمة

حسّان البستاني

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Twelve
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Vanguard Press
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-614-01-0099-2



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

هذا الكتاب مُهدى للاثني عشر
الذين اتسموا بقوة التوقعات القديمة
لمصلحة الجنس البشري كلّه

تعليق للمؤلف

عزيزي القارئ،

وفقاً لكبار السنّ والبحّاثة الماياويين الذين درسوا الروزنامة المايـاويـة، يمثّل 21 كانون الأول/ديسمبر 2012 نهاية الروزنامة المايوية وبداية حقبة تاريخية جديدة. ستكون لهذه الحقبة الجديدة تأثيرات مختلفة عن تأثيرات الحقبة الحالية، وسيكون للجشع والمادية دور أقل، وتشديد أكبر على التناغم بين الكائنات الحية كلّها. قد يلاحظ الأفراد أو قد لا يلاحظون حدوث تغييرات في حياتهم في 21 كانون الأول/ديسمبر 2012، ولكن التغييرات ستكون هائلة وستنمو مع الوقت.

يعتقد بعض البحّاثة أن تغييرات محددة ستطرأ على المجرّات وتبدّل القطبين المغناطيسيّين والإلكترونيّين للأرض. ولا يعتقد غالبية الخبراء المايـاويين الحقيقيين أن التغييرات التي ستحدث بشكل مفاجئ وعنيف ستُلحِق الضرر بالأرض أو البشر.

توطئة

اعتُبر العام 2012 نهاية الروزنامة المایاوية. وهناك أساطير قديمة تعود إلى أزمنة الهوبي، وضالعي التيبت، لا بل أيضاً إلى أولئك الذين يعتقدون أنهم يوجهون حكمة العوالم القديمة أو خرافات ليموريا وأتلنتيس، والتي تشير بأجمعها إلى أن العام 2012 سيكون بداية أو نهاية حياة البشر التي استمرت لبضعة آلاف من السنين.

إذا وقعتم على نسخة من هذا الكتاب وأردتم قراءته، ستكونون من دون شك من أولئك المختارين العديدين الذين قد يساعدون على تحديد ما إن ستكون نهاية الأزمنة مُرفَقة بدمار الكواكب أو تحوّل البشرية كلّها؟

الفصل الأول

الإنفجار الكبير

12 آذار/مارس 1949

لم يكن الانفجار الكبير الذي حدث في 12 آذار/مارس 1949 هو الحدث الذي أدى إلى تغيير كبير في الكون - ذلك الذي يصفه ستيفن هوكينغ وعلماء آخرون - بل أدى إلى بداية تكوين ماكس دوف.

في مساء ذلك اليوم الشتوي والمليء بالنجوم، وعند الساعة الحادية عشرة وإحدى عشرة دقيقة وخمس وأربعين ثانية تماماً، اختبر هربرت وجاين دوف ذروة اللذة المتبادَلة والأكثر إثارةً للبهجة في ذكرى زواجهما الخامسة والأربعين، وذلك في غرفة نوم منزلهما الموجود في إحدى الضواحي في جادة بنيديكت في تاريتاون، نيويورك.

كان الأمر بالنسبة إلى هربرت مجرّد عملية دامت أربع عشرة ثانية.

وبالنسبة إلى جاين، كان الأمر مليئاً بالمعاني. فبينما كانت قمة المتعة تطال عمق روحها وجسدها، اختبرت في الوقت نفسه حالة خروج من الجسد حيث كانت مُحاطة باللونين الأرجوانيّ والأزرق الرائعين.

توقف الزمن، ودخلت في حالة من الاستسلام الكامل. لم يسبق لها أن اختبرت أمراً مماثلاً في حياتها، في تلك اللحظة المحددة من الزمن، أدركت أنها تعدّ مع زوجها الطفل الذي يرغبان في إنجابه.

كان لهربرت وجاين ابنٌ في الشهر الثامن عشر من عمره يدعى لويس، وقد كان الحبل السُّرّي ملفوفاً حول عنُقه حين وُلد، إلاّ أن الإجراءات البطولية التي اتخذها موظفو المستشفى أدّت إلى نجاته من الأضرار التي نجمت عن ولادته.

منذ البدء، كان لويس دائمَ الشعور بالمَغص، وسريع الغضب، وذا نشاط مُفرط، وصعب التحكم به. ولحسن حظ جاين أن هربرت كان يمتلك شركة ناجحة لنشر الكتب، وفي استطاعته أن يؤمّن لها خادمة/مربّية تساعدها على العناية بالطفل، وبالرغم من ذلك، فقد كانت مهمة صعبة. كان كلاهما لا يزالان يتوقان إلى إنجاب طفل طبيعي.

وهكذا، تمكن هربرت عند الساعة الحادية عشرة واثنتي عشرة دقيقة من مساء 12 آذار/مارس 1949 من الاسترخاء بعد عناق استمر ثلاث دقائق.

في الأرجنتين، كتب خورخيه لويس بورخيس قائلاً إن الكون بأكمله يتغيّر إذا أقام الزوجان علاقة زوجية بطريقة مثالية، وإن الأزواج كافّة يصبحون مماثلين لهذين الزوجين. وهذا ما يسميه الدالاي لاما في التيبت طريق تانتريك المؤدي إلى التنوّر طريق الضحك والملامسة. ويعتقد أيضاً أن شخصين يحبان بعضهما بعضاً بشكل كامل ينقذان البشرية ويساعدان الكائنات كلّها على بلوغ حالة النيرفانا.

لم يكن الدالاي لاما على عِلم بوجود هذين الزوجين أو هذه الممارسة الزوجية.

* * *

في 12 كانون الأول/ديسمبر 1949، وعند الساعة الرابعة وخمس دقائق من بعد الظهر، وُلد ماكس دوف وعيناه مفتوحتان والابتسامة على وجهه.

بسبب حالة الاضطراب الكامل الذي أحاط بولادة لويس، كانت جاين قد نُصحت بإجراء جراحة قيصرية تجعل ولادة الطفل أكثر سهولة وتؤمّن له حياةً سهلة نسبيّاً، في حين أنها تُلحق الضرر بجاين.

ومع ذلك، كان هناك ظل قاتم مخيّم على الظروف المُغبطة لولادته. وتجسّد ذلك الظل بشقيقه، لويس، الأكبر سنّاً والبالغ من العمر سبعة وعشرين شهراً، والذي يتمتع بقوة وقدرة على الحركة كافيتين ليكون مصدر خطر على شقيقه الأصغر المتمتع بصحة جيدة.

* * *

في اليوم الثالث من حياة ماكس، اصطحبه هربرت وجاين إلى المنزل، وعرّفا لويس إلى شقيقه الجديد بينما كانوا جالسين على السرير الكبير في غرفة نوم هربرت وجاين الرئيسة.

وفي غضون ثوان، وقبل أن يتمكنا من القيام بأي ردّ فعل، أمسك لويس بماكس، وبدأ يضغط على عنقه بقوة. وبعد أن استعادت جاين رُشدها من هَول الصدمة، حررت ماكس من قبضة لويس، وأبعدته عنه، في حين عمد هربرت إلى حماية المولود الجديد.

بعد أن كبح لويس جماح غضبه، أطلق سلسلة من الصرخات الحادة، وبدأ يضرب جاين أولاً، ومن ثم هربرت الذي تعيّن عليه إخراجه من غرفة النوم.

لقد نجا ماكس من الحماسة المفرطة التي اتسمت بها عملية تعرّف شقيقه الأكبر سنّاً إليه، ولكن الأمر كان بداية لعدد لا يُحصى من الأحداث المتفجرة. لقد اتضح له منذ البدء أن هذا العنف غريب ومتكرر، وموجَّه ضده على الدوام.

من جهة أخرى، كانت حياته من النواحي الأخرى عامّة في منأى نسبي عن أي أذى، وكان فتى مسالماً.

لقد كان ماكس فاتناً في صباه، وكان شعره بنّياً طويلاً مائلاً إلى الحُمرة، وأهداب جفونه سوداء، وعيناه بنّيتين داكنتين، وقسمات وجهه متناسقة تماماً ولا سيما عندما يبتسم، كما كانت حاله في معظم الأحيان.

لم يكن ماكس بديناً أو هزيلاً بل معتدل الجسم. كان رياضياً وقويّ البنية بالرغم من صغر حجمه ونحافة رُسغَيه وكاحلَيه.

لم يكن يُبدي أي خوف في أثناء تواجده مع الغرباء، بل كان على ثقة من أن كل من يلتقي به لن يكنّ له سوى الحب والمودّة. وباستثناء علاقته المضطربة بلويس، فقد اتسمت طفولته بالثقة بالآخرين.

مع ذلك، ولسبب مجهول - نتيجةً للأذى الذي لحق به بسبب هجمات لويس، أو بعض الميول الجينية، على حدٍّ سواء - لم تنمُ لدى لويس قدرات طبيعية على النطق. كان في استطاعته إصدار أصوات على غرار أي طفل آخر من دون التمكن من تشكيل كلمات.

في الواقع، كان يفهم ما يقوله الناس كما يبدو، وكان يملك طريقة تخاطرية تقريباً للتحدث إلى والدته وإلى لويس الذي يزعجه، وهو أقصى ما بلغته مهاراته التواصلية.

ووفّرت هذه الحالة لشقيقه الأكبر ساعات لا نهاية لها من الإساءات.

"أيها المعوَّق، أحضر لي بسكويتة أخرى من المطبخ". كان يأمره لويس.

"هيه، أيها البسيط، تعال إلى هنا، وإلا تسببت لنفسك بكدمة". كان يصيح.

لقد ظن لويس أنه ذكي بسبب استخدام كلمة مختصَرة *لبسيط*، وهو لقب التحبّب الذي كان يُطلقه على شقيقه الأصغر. وبالرغم من قيام جاين وهربرت بمنع لويس من نعت شقيقه *بالمعوَّق* أمامهما على الأقل، فقد سمحا له على مضض بنعته *بالبسيط*، وأملا عبَثاً أن يملّ منه.

لم يكن لويس يبالي بقواعد والديه عندما لا يسمعان ما يقول، فيردّد بانتظام عبارات مثل: "إن لم تعطني تلك الشاحنة، أيها المعوَّق، فسأضربك". أو "ابتعد عن طريقي، أيها المعوَّق".

* * *

لقد استنتجت جاين وهربرت أيضاً من افتقار ماكس إلى مهارات لغوية أن ابنهما يعاني من إعاقة عقلية. وعندما كان في الرابعة من عمره، قررا الاستعانة بمعالجة لتقويم النطق، وسرعان ما أدركت المعالجة أنها تتعاطى مع فتى صغير شديد الذكاء يفهم كل شيء.

بالرغم من ذلك، لم يبدأ ماكس بصياغة جمل كاملة، وإجادة كاملة للّغة قبل الأوان حتى بلوغ سنّ السادسة. وذات يوم، تكلّم ماكس بوضوح شديد، وبشكل لا يمكن تفسيره.

قال ماكس: "أعتقد أنه يجب علينا شراء المنزل الأصفر عند ذهابنا إلى كرْم مارتا هذا الصيف، الذي يوجد فيه مركب وبركة". وأضاف: "لقد أحببتُ الذهاب إلى البحيرة هناك في الصيف الماضي، وأتمنى لو أستطيع الذهاب إلى هناك كل يوم".

عندما استعادا رشدهما من هَول الصدمة، شعرت جاين وهربرت بسعادة فائقة.

في الوقت نفسه، كان ماكس يحقق نتائج عالية جداً في اختبارات الذكاء، مما أزال أي مخاوف كانت تعتري والديه.

في حين رحّب هربرت وجاين باتخاذ الأحداث منحى مختلفاً، كان الأمر مزعجاً جداً بالنسبة إلى لويس الذي ازدادت حدة الدور الذي لعبه كخصم رهيب لماكس خلال طفولته.

* * *

علِم ماكس منذ البدء بوجود هدف لحياته ومصير هام دُعي إلى تحقيقه. ولكن هذا الإدراك لم يكن أمراً ملموساً. كان هناك صوت في رأسه لا يستخدم أي كلمات توحي له بالغاية من ولادته، فقط ألوان وذبذبات قوية. كان عالمه الداخلي، هذا الملعب السري، مليئاً بالجمال والأناقة، وقد جعل ماكس في قمة السعادة.

لقد بدا قادراً على اكتساب معرفة حول أي موضوع، ولكنه كان مولَعاً بالرياضيات بصفة خاصة ويُظهر قدرة ومهارة غير مألوفتين في التعاطي مع الأرقام التي تدور في رأسه باستمرار على صورة مجموعة كبيرة من الألوان. وقبل أن يتمكن من الكلام، استطاع ضرب أرقام من ثلاثة أعداد في رأسه.

لقد استندت هذه الموهبة إلى عامل ثلاثي الأبعاد. كان يتخيّل عُلباً موضوعة بشكل عمودي وأفقي، وخطوطاً لامتناهية تمرّ عبر جوانب هذه المستطيلات من دون اختراقها، ويتصوّر أن كل علبة هي عالَم كامل بحدّ ذاته، فيتأمل شكلها، واتجاهها، وعدم وجود بداية أو نهاية لها ولمجموعة العُلب.

لقد منحته هذه التمارين سعادة كبرى على غرار معظم الأشياء في حياته. ومع ذلك، كان هناك تذكير دائم أن الأمور لا تسير كلها بشكل ممتاز.

إنه لويس.

فبالرغم من الساديّة والعنف اللذين عانى منهما على يدي شقيقه الأكبر، اعتبر ماكس لويس صديقه المفضّل. وتلك الصلة غير المألوفة القائمة بينهما حملت ماكس على الشعور بتعاطف كبير مع شقيقه، وبدا الأمر كما لو أنهما يتذكران تلك المرحلة المُغبطة المتمثلة بالرَّحم.

ومنذ لحظة ولادته، قبِل ماكس أنه حيثما وُجد يكُن تماماً في المكان الذي يُفترض أن يكون فيه في هذه الحياة، وكان في سلام تام مع الفكرة.

من جهة أخرى، كان لويس غاضباً بسبب اضطراره إلى مغادرة تلك الحالة الوجودية المثالية واستقبال العالم له بقبضة خانقة. وهكذا، فقد جاء إلى هذا العالم راكلاً وزاعقاً، وبقي في حالة مستمرة من التمرّد.

لقد ازداد غضب لويس بسبب عدم شعور ماكس بهذا الأمر، فقرر جعل حياة شقيقه بائسة بقدر بؤس حياته من خلال ممارسة القوة والترهيب عليه. وعندما كانا دارجَين، دأب لويس على مهاجمة ماكس، وتثبيته على الأرض، والضغط بيديه على عنُقه، والانسحاب بعد ذلك حالما يبدأ ماكس بالبكاء. وعندما يأتي البالغان مُسرعَين، يكون لويس قد ابتعد مسافة آمنة تمنعهما من إدراك مستوى العنف الذي مارسه على شقيقه. وبما أنه لم يكن في استطاعة ماكس التعبير عن مكنونات صدره، فقد بقيا على جهل تام بما كان يدور حولهما.

في النهاية، تعلّم ماكس أن يدّعي الموت لأن مقاومة لويس أمر مستحيل بسبب قوته التي تفوق قوة البشر عندما يستشيط غضباً، لدرجة أن الأمر يتطلب تضافر أكثر من قوة شخص بالغ لإخضاعه، هذا إذا أدركوا الحاجة إلى القيام بذلك.

وبالرغم من مَيله الفِطري إلى التفاؤل، وجد ماكس أن العنف المستمر بدأ يُلحق الضرر به. فهو لم يشعر أبداً بالأمان في المنزل،

وكان يعلم أنه سيتحمل تبعات أي نجاح يحققه في المدرسة أو في أي مظهر من مظاهر الحياة.

وبازدياد الهجمات، فكر ملياً في إنهاء حياته بهدف الفرار من معذّبه.

ففي سنّ السابعة، اعتزم طعن معدته بسكين دهن الزبدة. وفي حين كان يرى في عالمه الداخلي السري الغاية المحتمَلة من وجوده ويتحمّس للإمكانيات المرتقَبة، كان العالم الخارجي عائقاً كبيراً جداً بالنسبة إليه ولا يمكن تلافيه كما يبدو.

واتخذ قراره، والتقط السكين.

وبينما كان يدفع النّصل الطريّ والمسنَّن داخل بطنه، تذكّر ذلك الصوت الداخلي الهادئ الذي دأب على سماعه منذ بداية طفولته. فوضع السكين جانباً، مُدركاً في تلك اللحظة وجود هدف لحياته، رسالة حقيقية. وبالرغم من ظهور عقبات أمامه، كان يتعيّن عليه امتلاك الشجاعة لمواجهة كل ما يعترض طريقه.

لقد تعلّم ذات مرة كيفية الإفلات من قبضات شقيقه المُحكَمة على عُنُقه.

* * *

عندما كان طفلاً دارجاً، وبالرغم من عدم قدرته على التكلم بطريقة متماسكة، أظهر ماكس ميزات قيادية بتولي مسؤولية أي مجموعة.

وفي أثناء نموّه، كان يتفوّق في كل مادة دراسية، ويملك فرحاً حقيقياً بالتعلّم. لقد أجاد ممارسة النشاطات الرياضية، وفي سنّ الثانية عشرة، أصبح أسرع عدّاء لمسافة الخمسين يارداً في مقاطعة وستشستر. كان ماكس يقول مداعباً إن هروبه من لويس هو الذي جعله عدّاءً سريعاً.

وعندما تخرّج من الصف الثامن، ألقى كلمة الوداع بصفته رئيساً لمجلس الطلاب وقائداً لفرق كرة القدم، والمصارعة، والبيسبول. كان يتمتّع بشعورٍ غير عادي يمكّنه من توقّع المكان الذي ستتّجه إليه الكرة أو الخصم، ويبدو على الدوام في المكان المناسب وفي الوقت المناسب، ولم تتبادر إلى ذهنه أبداً فكرة ارتكاب أخطاء.

لقد توقّع من نفسه أن يقوم بكل شيء بدقة وصوابية... وهكذا كان، ولكنّ هذه التوقعات لم تحُل دون زوال القلق الذي يشعر به معظم الصغار.

كان والداه يحبانه بلا ريب، وكان يختزن مقداراً كبيراً من المعلومات بفضل نجاح والده. وهكذا، وبالرغم من الآلام التي يتحمّلها من شقيقه، تمكن ماكس من اجتياز سنّ المراهقة المبكّرة.

وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره - يوم الثلاثاء، 19 شباط/فبراير 1965، عند الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة بعد الظهر، وفي عيادة الطبيب هوارد غراي - توفّي ماكس دوف.

ماكس دوف وحالة النورانية

1965

وصلت جاين وابنها ماكس يوم الجمعة المشؤوم ذاك، إلى مجمّع المركز الطبي في تاريتاون عند الساعة الثانية وأربع وأربعين دقيقة من بعد الظهر. كان الطقس بارداً وهناك ثلج على الأرض، لم يكن ثلجاً نظيفاً وجديداً، بل ثلجاً ذائباً أكثر منه متجمّداً، وأقل لفتاً للأنظار.

كانت الطرقات نظيفة في الغالب باستثناء قشرة من التراب الذي من غير المحبّب النظر إليه، أو سماع صوت الدّوس عليه.

فمن الجيد أن تكون الطرقات نظيفة لأن جاين دوف سائقة مروَّعة لا تشق البتة بما يكون متواجداً أمام إطارَي السيارة، وذلك بسبب تعرّضها قبل عامين لحادث سَير رهيب بدّل حياتها.

* * *

كانت جاين لفكوفيتش امرأة جميلة، يبلغ طولها خمس أقدام وخمس بوصات، وتتمتّع ببشرة ومظهر لا عيب فيهما، وبشعر مجعَّد قاتم اللون، وبعينين قاتمتَي اللون رحومتين على نحو لا يصدَّق، وابتسامة آسرة لا تقاوَم، وتُذكّر أولئك الذين يلتقونها بماري بيكفورد، ونورما شيرر، ونجمات سينمائيات أخريات في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي.

كانت في السادسة عشرة من عمرها فقط عندما رافقت شقيقتها مِنى البالغة من العمر أربعة وعشرين عاماً في نزهة بحرية إلى كوبا على متن مركب. وكونها ابنة مهاجرين روسيَّين، اعتُبرت منى "عذراء كبيرة السنّ" وفرصها للزواج قليلة. لم تكن منى، وهي الابنة البكر بين شقيقات ثلاث، جميلة على غرار جاين، ولم تكن تجتذب الخطّاب بسهولة. وبما أن ذلك العام هو العام 1939، وأن والدَيها لم يكونا منفتحَي الذهن، كان من المفروض أن تكون أولى من تتزوّج بين شقيقتيها وإلا، فإن الأُخريَين لن تتمكنا من ذلك.

هذا ما كان عليه التقليد في العائلات الروسية، أو تقليد عائلة لفكوفيتش على الأقل.

كان والد جاين، أرنولد لفكوفيتش، يعيش حياة متواضعة كبائع بيض في نوارك، نيوجرسي، عمل كانت تزدريه زوجته غلاديس. وأرنولد رجل مثقّف جداً وخبير في كتاب العهد القديم، وقد حظي باحترام رجال الدين في أنحاء العالم كافة. ولكن ذلك لم يعوّض عن مدى ازدراء غلاديس لطبيعة عمله.

كانت عائلة غلاديس تملك متجراً في أوروبا، وكان والدها طبيباً، مما جعلها ذات مكانة رفيعة. لذلك، اعتبرت غلاديس نفسها خبيرة في شؤون الحياة وعلى الموضة، وأفضل بكثير من زوجها المتواضع.

لم تعمل غلاديس يوماً، ولكنها كانت مدبّرة منزل ممتازة، تدير وتراقب كل المال الذي يجنيه زوجها أرنولد. وبالرغم من ارتفاع نفقات النزهة البحرية، توجّهت إلى جرّة المدّخرات التي تبقيها مخبّأة في الدُّرج الثالث فوق برّاد المطبخ، وسحبت المبلغ الضروري - مستنفدةً كل المدّخرات تقريباً - ولم ترسل منى فحسب في رحلة لمدة عشرة أيام من ميناء مدينة نيويورك إلى هافانا، كوبا، بل وجاين أيضاً.

كانـــت جاين تعمل كمرافقة لشقيقتها، ولم تنسجم معها أبداً. ولكن جاين لم تكن لترفض ذلك لأنها فرصة مناسبة لها لرؤية القليل من العـــالم. كان حلمها أن تسافر، وأن تصبح كاتبة، وتعيش في منـــزل ريفي بسيط في ديفون، إنكلترا، سقفه من القش.

ولم يكـــن من المناسب لمنى أن تسافر بمفردها بسبب احتمال قيام الناس بنشر إشاعات عن سلوكها وأخلاقها.

إنه أمر جدّي.

كانت منى بحاجة إلى العثور على رفيق في هذه "النـــزهة البحرية الخاصـــة بالعـــازبين والعازبات"، علماً أن أحداً لم يجرؤ على دعوتها. فالـــوقت يمضي ومستقبل منى - ومستقبل جاين وشقيقتها ميريام - في كفة الميزان.

لقـــد أُعـــدّت الرحلة ليكون هناك تفاعل بين العديد من الرجال والنساء العازبين على متن السفينة. واختيرت جاين ومنى في أول عشاء من الرحلة لتنضما إلى مائدة القبطان.

وانـــضم هربرت دوف، وهو شاب أنيق المظهر وبهيّ الطلعة في الـــرابعة والعشرين من عمره - في سنٍّ منى نفسها - إلى المائدة أيضاً. كان يبلغ طوله خمس أقدام وثمانية أعشار القدم، وكان شعره متماوجاً وداكن اللون، وعيناه بنّيتين ولعوبتين ومعاكستين، قليل السُّمنة بسبب انغماســه المفرط في معاقرة الشراب وتناول الطعام، ولكنه لائق وقويّ البنية إجمالاً.

* * *

كـــان هربرت، وهو عالم لامع، ينتظره مستقبل واعد ككيميائي محتـــرف. ولكـــن انفجاراً وقع في مختبر الكيمياء في يونيون كامبريدج جعلـــه أصـــمّ جزئياً، وتطلبه الأمر التغيّب عن المختبر لمدة ستة أشهر

مدفوعة. وأمضى هربرت ذلك الوقت في حضور مباريات كرة القدم، ومـــواعدة نساء شابات جميلات، والانكباب على الحاجات الأساسية للحياة، كتجديد رخصة القيادة.

وأدى هذا النشاط الأخير إلى نقطة تحوّل في مهنته.

لقـــد لاحـــظ هربرت افتقار السوق إلى كتيّبات اختبار القيادة. وبتوفّـــر الوقت لديه، أخذ على عاتقه طباعة نسخات وبيعها للسائقين المحتمَلين.

وبما أن عدداً كبيراً من الأشخاص أخفقوا في الامتحان الكتابـــي لاختبار القيادة، ووجدوا أنفسهم مضطرين إلى إعادة الاختبار، استخدم سكرتيرة لطباعة واستنساخ مئة نسخة من الكتيّب تتضمّن إجابات عن مختلف الأسئلة.

بعـــد ذلك، عرّف هربرت عن نفسه عند مدخل مكتب الرُّخَص في مانهـــاتن وبـــاع بسرعة الكتيّبات كلّها لقاء دولار واحد للنسخة. وطبع ألف نسخة إضافية وجنّد أصدقاء له وطلاباً لبيعها في أنحاء مدينة نـــيويورك كافة على أن يتقاضى كلّ منهم ربع دولار لقاء كل نسخة يبيعونها.

واســـتمر هـــذا الإجراء عدة أشهر، وقام هربرت بتحقيق أرباح بلغت عدة آلاف من الدولارات في الأسبوع، وهو مبلغ كبير جداً في أواسط الثلاثينيات وأكثر مما يأمل في جنيه يوماً ككيميائي.

كـــان معدل البطالة لا يزال مرتفعاً جداً بسبب ما يعاني منه البلد للخـــروج مـــن حالـــة الركود الاقتصادي الكبيرة. ولم تكن الخدمة العسكرية شرطاً أساسياً في ذلك الوقت بل امتيازاً وحلاً للبطالة، وكان مـــستوى الأجـــر للمجـــنَّد وفرصة إكمال دراسته مرهونين بأدائه في امـــتحان الانتـــساب إلى القوات المسلحة. وبما أن الامتحان كان على

غرار كتيّب السائق، مستنَداً يتم إنتاجه على نفقة دافعي الضرائب، وجد هربرت في ذلك فرصة أخرى لجني المال لقاء مساعدة الآخرين.

فحصل على مجموعة الامتحانات المؤلفة بمعظمها من أسئلة أساسية في الرياضيات واللغة الإنكليزية، ونسخ ورقة الامتحان. وهكذا وُلد الكتيّب الذي يحمل عنوان "تدرّب على اختبار القوات المسلحة". وكان هربرت على الطريق المؤدي إلى جَني مليونه الأول من الدولارات.

كان مبلغ المليون دولار في العام 1938 ثروة، عملياً، لا يمكن لرجل عازب إنفاقها من دون معاكسة، وهو أمر برع فيه هربرت. كان يحب حياة البَذخ – وجبات مُسرِفة، شراب جيد، رفقة نساء جميلات – وهذه الرفقة هي سبب قيامه بالنزهة البحرية.

لقد واعد ليزا طوال ستة أشهر، وكانت شقراء فاتنة، زرقاء العينَين، وتتوقع منه وضع خاتم الخطبة في إصبعها لتضمن لنفسها حياة متعة ورخاء. وبالرغم من كونه متيَّماً بها، لم يكن هربرت يريد الزواج بها.

فقبل كل شيء، لم يكن مستعداً للزواج. وإضافةً إلى ذلك، وبالرغم من كونها فتاة مرِحة في أثناء الحفلات، لم يكن يتخيّل أنها المرأة التي سيستقر معها وينجب منها الأطفال.

ومع ذلك، لم يكن يبدو أنه يجد الشجاعة للنظر في عينيها وإخبارها بذلك، فقرر التواري عن الأنظار. كانت طريقة جَبانة، ولكنه اعتقد أن غيابه قد يشفي رغبة ليزا في الحصول على السعادة الزوجية – معه على الأقل – ويستمر في حياته كعازب.

وهكذا، قال لها إن عليه الذهاب إلى هافانا في عمل، وأعدّ كميّة من البطاقات البريدية المكتوبة مُسبَقاً ليرسلها إليها من كوبا طوال ستة أشهر، مفصِّلاً لها ظروف العمل التي تزداد تعقيداً وتحول دون عودته.

كان هربرت يعتزم العودة إلى نيويورك بالطبع، وأمل أن تكون ليزا قد تخلت عنه بعد انتهاء الأشهر الستة ووجدت رجلاً آخر.

وهكذا وجد نفسه إلى مائدة القبطان، وما إن جلس بجانب مني وجاين حتى شعر بوقوعه في حب جاين بشكل جنوني، يائس، تام، وأبدي...

كانت ذات جمال لا يقاوم، ولم تكن تتباهى بذلك كما يبدو بالرغم من إدراكها مدى جمالها. فولّد هذا الأمر شعوراً بالثقة والارتياح في نفس هربرت أدى إلى انجذابه إليها. وفي أثناء العشاء، عرف سنّها وأدرك أنها صغيرة جداً للمغازلة. وفي وقت لاحق، أبدى اهتماماً أكبر بمني بسبب عمرها الملائم، وكانت مفتونة بجاذبيته.

عندما رست السفينة في هافانا، جاب الشبّان والشابات الشوارع، وزاروا شواطئ العاصمة الحارة والرطبة ونواديها الليلية. وتدبّر هربرت أمر مرافقة الشقيقتَين في جولات عبر شوارع المدينة على متن عربة يجرّها حصان. فاصطحبهما إلى عروض ترفيهية، واستضافهما على العشاء، واشترى لهما زهوراً وهدايا. لقد كانوا ثلاثياً لا يفترق طوال فترة إقامتهم، واستعادوا مقاعدهم إلى طاولة القبطان في رحلة العودة، وجلس هربرت بثقة بين الشقيقتين متودّداً إلى مني.

بعد عودتهما، ابتهجت عائلة لفكوفيتش بقصص ابنتَيهما عن متقدّم محتمَل للزواج بمني. وكان الأمر بمثابة صدمة للعائلة عندما زارها هربرت وطلب الإذن للتودّد إلى جاين.

لم تسامح غلاديس لفكوفيتش أو مني أبداً هربرت بسبب استبعاد مني. وبعد سنوات، وعندما تزوجت مني ورُزقت بطفلَين، اعتُبر هربرت وغداً مفترياً استغلها للتقرب من شقيقتها الصغرى الجميلة.

وعندما غدت أكبر سناً، أصبحت جاين جميلة بشكل مذهل. وفي العام 1953، وبعدما أصبحت والدة، كانت وهربرت يتناولان العشاء

في فندق لا مامونيا في مراكش، المغرب. كان ونستون تشرشل جالساً إلى طاولة مجاورة ولم يتمكن من رفع أنظاره عنها. أخيراً، دعا جاين وهربرت إلى الانضمام إليه، وهي بادرة قام بها من دون عناء. وبالرغم من نشأتها البسيطة، شعرت بالراحة بين أشخاص من مختلف المستويات الاجتماعية.

كانت تتمتع بروح لطيفة، وبتعاطف تخاطري غير معهود مكّنها من منح الناس أيّاً كانوا شعوراً بالاطمئنان. هذا ما كانت عليه حال رجل الدولة الأكبر سناً. فتحدثا كما لو أنهما يعرفان بعضهما بعضاً منذ سنوات، في حين أسند هربرت ظهره إلى الكرسي متفاخراً.

* * *

انتهى كل شيء بالنسبة إلى جاين في 16 حزيران/يونيو 1963 عند الساعة الرابعة واثنتين وعشرين دقيقة بعد الظهر على طريق سليبي هولو درايف في سليبي هولو، نيويورك، على بُعد عشرين ميلاً تقريباً من شمال مدينة نيويورك.

كانت تُقلّ لويس لشراء مرطّبات للحفلة التي ستقام بمناسبة تخرّج ماكس من الصف الثامن، وقد اختير لإلقاء كلمة الوداع للطلاب وأهاليهم في اليوم التالي. وبما أن طلاب الصفوف العليا والدنيا في مدرسة هاكلي الخاصة سيكونون حاضرين، فقد كان من المتوقع أن يكون هناك مئات الأشخاص. وشعرت جاين أنه يُفترض بها القيام ببادرة للإقرار بنجاح ماكس الأكاديمي المدهش.

كان ماكس في المنزل يُعدّ كلمته. فأوقفت جاين سيارة الستايشن البيضاء عند إشارة المرور حيث تتقاطع ثلاثة طرقات. ودنت منها سيارة شيفي بنّية اللون تقودها السيدة أليسون برودستريت.

كانت جاين تملك حق المرور، ولكنها ترددت.

وبدلاً من التوقف تماماً، أخطأت السيدة برودستريت بين دواسة الوقود ودواسة المِكبح، فانطلقت السيارة بقوة وبلغت سرعتها أربعين ميلاً في الساعة، لم تكن سريعة بما يكفي، والحمد لله، لقتل جاين ولويس، بل لقذف لويس خارج السيارة وإصابة والدته بجروح في الرأس والوجه.

فنُقلا إلى المستشفى على عجَل، وتطلب الأمر ثلاثاً وأربعين قطبة لإغلاق الجرح فوق عين جاين اليسرى. ووفقاً للأطباء، أدى الحادث أيضاً إلى ارتجاج في الدماغ.

وأكمل ماكس استعداداته وألقى كلمته في اليوم التالي، كما هو مخطّط، في احتفال التخرّج في مدرسة هاكلي. كان شقيقه لويس، الذي لم يصب بأي أذى في الحادث، الفرد الوحيد الحاضر من العائلة لأنه طالب في هاكلي أيضاً ويتعيّن عليه الحضور.

أما هربرت فاختار البقاء قرب جاين التي عادت إلى المنزل بعد مدة قصيرة، وكانت لا تزال جميلة بنظر زوجها والآخرين كما في السابق، ولكن ليس بالنسبة إلى نفسها لسوء الحظ.

لقد أُصيبت جاين بخلل قليل الخطورة تمثّل بعجزها عن التحكم بأعصاب الجانب الأيسر من وجهها. واحتفظت بابتسامتها التي تغيّرت، ولم تكن قادرة على تجاهل هذا الشذوذ في وجهها. لم يسبق لها أبداً أن شعرت بالغرور، مستخفّةً بجمالها تقريباً. لقد أحسنت الحياة إليها، وأُنعم عليها بهربرت، وأبناء، ومنزل مريح، وأصدقاء، وفَيض من الأمور الأخرى.

كانت تشعر على الدوام بالرعاية، والحب، والعيش في حالة دائمة من النعمة. ولكن كل ذلك تلاشى بعد الحادث، وأصبحت يائسة وفقدت متعتها بالحياة.

بعد واحد وأربعين يوماً من الحادث، بدأت جاين تشكك في جدوى حياتها. لم يتحقق حلمها بإنكلترا، وهويّتها مرتبطة بشكل وثيق بهربرت الذي تحبه كثيراً، ولكن العيش في ظل هذا الرجل المقتدر والناجح منحها شعوراً بالدونيّة، وبدأت تشعر بامتعاض منه.

لقد فقدت كل ثقة بنفسها. لم يسبق لها أن كانت متديّنة، وانتابتها شكوك حيال وجود الله ولا سيما بعد الحادث. وبازدياد مشاعر الأسف والخيبة في نفسها، بدأت بتدخين السجائر بإفراط واحتساء الشراب الروسي لتخدير ألمها.

* * *

كان هوارد غراي طبيبها الخاص، ويرتاد ابناه مدرسة هاكلي أيضاً، وغالباً ما يجتمع وزوجته، زيلدا، بهربرت وجاين في مناسبات اجتماعية ويتناولان العشاء معهما. وبما أن هذه الصداقة تعود إلى عدة سنوات، لقد بدا من الطبيعي أن يقوم هوارد بالاتصال بهربرت لتقديم النُصح والمساعدة بعد عودة جاين من المستشفى وتشخيص إصابتها باكتئاب سريري.

في صغرها، كانت جاين تمضي أسبوعَين على شاطئ جرسي كل صيف، وتحب رحلات الاستجمام تلك، وتُجري الترتيبات على الدوام عندما كانت والدةً صغيرة السن لتمضية إجازات الصيف مع هربرت وابنَيهما في كايب كود، لونغ آيلند ساوند، أو حتى في كرْم مارتا، في أي مكان حيث يمكنها تمضية ساعات وهي تحدّق إلى الأمواج. وأيّاً يكن الوقت في النهار أو الليل، كان استغراق جاين في النظر إلى البحر بأصواته، وانتفاخه، واندفاع مياهه وتراجعها، وحركته المستمرة يأسرها ويجعلها في حالة من النعيم.

وهكذا، وعندما سمع بتشخيص الاكتئاب، نصح هوارد غراي جاين باستئجار كوخ لمدة شهر والاستمتاع بالمحيط.

فوافقت جاين شريطة عدم قيام أي شخص برؤيتها في هذه الحالة "المُعيبة" برأيها، لا سيّما وأنها مصابة بالاكتئاب وبأضرار في أعصاب وجهها تحول دون ابتسامها بالطريقة المعهودة.

لم تكن تريد استقبال أي زائر، ولا حتى ابنَيها، أو هربرت، أو عاملة التنظيفات. لقد أرادت الانفراد بنفسها تماماً من دون أن يقوم أحد بتفقّدها.

ولكن الطبيب غراي كان يتفقّدها من حين إلى آخر. وأشار إلى أنه وبالرغم من حاجة جاين إلى الراحة والبحر، فإن العُزلة التي أصرّت عليها غير مفيدة لها أبداً. وكان يقوم كل نهاية أسبوع بتفقّدها لتزويدها أيضاً بعقاقير مسكّنة للألم وبأقراص منوِّمة.

لقد أقام في البدء في موتيل على الشاطئ في الجوار، ولكنه عمد في ما بعد إلى تمضية أمسيات السبت في الكوخ، واصطحاب جاين لتناول الطعام في الخارج والسير معها على الشاطئ. وبدأ يحثها شيئاً فشيئاً على التفاعل مجدداً مع الناس، ممكّناً إياها من الشعور بأنها لا تزال جميلة وجديرة بالحب الذي ملأ حياتها على الدوام.

وحدث المحتوم، ووقع هوارد في حب جاين. وأزهر الحب حالة تلقائية من الإثارة لم يتمكن أي منهما من مقاومتها، ولم يرغبا في مقاومتها. لم يكن هربرت سعيداً في زواجه، ولكنه لم يكن من أولئك الذين يقيمون علاقات غرامية أو يسيئون إلى قدسية العلاقة بين الطبيب والمريض، وذلك بسبب ابنَيه ومسؤولياته العائلية.

وبرّر ما يقومان به على أنه تصرّف شفائي، طريقة لإعادة التأكيد لجاين بطريقة تنطوي على أكبر قدر من الحميمية أن الحادث لم ينتقص من جمالها. كانت لا تزال امرأة مثيرة وبحاجة إلى الطمأنة وإزالة مخاوفها، لا بل إلى حب رجل آخر أيضاً غير هربرت، وهو الرجل

الوحيد الذي أقامت معه علاقة حميمة. كان هوارد مستعداً للتخلي عن زوجته وابنَيه نزولاً عند رغبة جاين، ولكنها أبت ذلك. فحبها لهربرت وابنَيها لم يضعف.

ولكن حب جاين لنفسها ضعف. وانتهت علاقتها الغرامية بهوارد مع انتهاء الصيف. صيف هندي حارّ ورطب امتد بين شهر أيلول/سبتمبر وأواسط تشرين الأول/أكتوبر. لقد شُفيت إلى حدٍّ ما وعادت إلى الحياة الطبيعية بالرغم من أن الحياة لم تعُد أبداً بالنسبة إليها كما كانت في السابق. لم تعُد تشعر أنها تنتمي كلّياً إلى عائلتها، وباتت هناك مسافة تفصلها عن ماكس بصفة خاصة.

لقد أدى تدخين السجائر، والإفراط في تناول الشراب، وفقدان العيش في حالة من النعمة، إلى تغيير جاين على نحو لاحظه الجميع، ولا سيما ماكس. لقد فقد الرابط القوي الذي كان يتشاطره ووالدته، تاركاً في نفسه شعوراً بالوحدة.

* * *

عندما عادت والدتهما، علم ماكس ولويس حينذاك أن شيئاً ما تبدّل.

كانت والدتهما مقطّبة الحاجبَين، وتعتمر قبعات وتضع قفازات من مختلف الأشكال والأحجام، وترتدي كنزات صوفية غير ملائمة ولكن مُدفّئة ومليئة بالحب.

واستمر الطبيب غراي في زيارة عائلة دوف، وبدا ذكياً بالنسبة إلى الفتيَين، وتصدر منه باستمرار تعليقات سريعة البديهة. كان طبيبَ عائلة على معرفة وثيقة بالسجل الطبي لكل فرد من العائلة، ويُجري اتصالات بالمنزل في حين أن قليلاً من الأطباء يستمرون في القيام بذلك.

في التاسع عشر من شهر شباط/فبراير 1965، أُصيب ماكس بإنفلونزا خطرة مُرفَقة بأعراض رئوية جعلت من تنفّسه أمراً مؤلماً. كان قد تغيّب عن المدرسة لمدة ثلاثة أيام، ولكن الأعراض ازدادت سوءاً ولم تتحسن. لم يكن العصير والحساء وحبوب الدواء بمختلف أنواعها ذات فائدة.

"من الأفضل لكِ أن تصطحبيه إلى عيادتي". قال الطبيب غراي عندما اتصلت به جاين بعد ظهر ذلك اليوم المشؤوم. كانت الساعة الثانية وأربعاً وأربعين دقيقة تماماً عندما دخلت وماكس غرفة الانتظار التابعة لعيادة الطبيب.

وبدا الأمر كما لو أن حواسّ ماكس ازدادت قوة، فجلس هناك يراقب التفاصيل كافة؛ الصورة المعلّقة على الجدار لجورج واشنطن وهو يعبر نهر بوتوماك مع رجاله، مجلات *ناشيونال جيوغرافيك* بأغلفتها الصفراء الموضوعة على طاولة بنّية اللون، الكرسيّان الأخضران حيث يجلس مع والدته منذ ساعات كما بدا له الأمر ولكنها لم تكن سوى دقائق فقط، ولباس الممرضة إثيل الرسمي ببياضه الناصع والتي رحّبت بماكس بلطف في أثناء مرافقته إلى مكتب الطبيب.

وتطلب الأمر دقائق قليلة فقط لقيام الطبيب غراي بفحصه. فوضع السمّاعة على صدر ماكس وطلب منه أن يتنفس. فتنفّس ماكس مُصدراً صفيراً، وسعل بعد ذلك بسبب الألم.

وتفحّصت الممرضة إثيل حرارته وأعلنت أنها معتدلة.

فقرر الطبيب غراي إعطاء ماكس حقنة بنسلين مخصصة للمرضى الذين تظهر عليهم أعراض مماثلة. وشرح قائلاً إنّ من شأن هذه الحقنة القضاء على الإنفلونزا في غضون يومين على الأكثر، وطلب من ماكس بعد ذلك رفع كمّ قميصه.

كان ماكس يكره الحقن، ولكن الألم في حنجرته أتعبه فلم يتذمر من غرس الإبرة في ذراعه.

لقد شعر بوخز وألم، وقُضي الأمر بعد ذلك.

"اجلس هنا". قال الطبيب غراي لماكس وتابع: "سأعود بعد دقيقة".

لم يكن ماكس يملك أي فكرة عن مدة تغيّب الطبيب غراي، ولم يكن يعلم ما إذا كان الطبيب قد غادر غرفة الفحص نهائياً. فما تذكّره ماكس هو أنه دخل فجأةً في حالة من الغبطة.

لقد اختبر شعوراً وكأنه مخلوق نورانيّ بَحت يطفو مع كائنات نورانية أخرى في التوهج الأكثر إشراقاً الذي عرفه يوماً. كان جسده ينبض بمشاعر الحب، وكل نبضة تُضفي مزيداً من النور حوله وفي داخله.

ودخل في حالة من الغِبطة التامة.

فجأةً، انبثقت مجموعة ألوان جميلة من النور البرّاق، وطفت حوله متذبذبة كما لو أنها أشياء قائمة بذاتها. وبازدياد ذبذبات الألوان حدة، رأى ماكس اسم شخص في كل من هذه الذبذبات. فعدّ اثني عشر لوناً واثني عشر اسماً لم يكن يعرف أيّاً منها.

ومن ثم، اختفت الأسماء والألوان بسرعة ظهورها، وعاد النور ناصع البياض. وشعر ماكس بأنه يعرف أصحاب هذه الأسماء منذ زمن، وشعر بهم يحيطونه بالحب، ويحيّيونه كما لو أنهم أصدقاء أعزّاء أو أنسباء يعودون إلى المنزل.

كان في حالة من الهدوء التام المغمور بالغِبطة اللطيفة والمتذبذبة فرَحاً. حركة ناشطة من دون أي جُهد أو عائق من أي نوع، شعور بالذات بمعزل عن جسد مادي.

الفصل الثالث

ماكس والنورانية

1965

تحرك ماكس دوف بحماسة باتجاه نَفَق النور.

في أثناء ذلك، عكّرت سلسلة من الأصوات المرتفعة صَفو وعيه الطافي، وتحوّل انتباهه إلى رجل مفعم بمشاعر الانفعال والخوف. كان الرجل يتكلم بصوت مرتفع.

كان راكعاً، وكانت يداه مضغوطتين على جسد مُلقى على أرض غرفة صغيرة. فتساءل ماكس عن سبب استياء الرجل إلى هذه الدرجة، ثم أدرك أن الرجل طبيب منزعج بسبب عدم تجاوب الجسد مع كلماته أو محاولات إحيائه.

بعد ذلك، أدرك ماكس أن الجسد الملقى هناك ليس سوى جسده. وبشعوره بالانزعاج من حالة القلق التي تنتاب الطبيب، اتخذ قراراً واعياً بالعودة.

وهكذا، وبتصرف غير أناني وشجاع، غادر نَفق النور الذي وفّر له ما بدا عالماً مألوفاً ومريحاً، وعاد إلى المأساة الإنسانية المتمثلة بكونه ماكس.

وباستعادة شكله الجسدي مجدداً، فتح عينَيه، وتراجع الخوف والذُّعر الباديَين على وجه الطبيب غراي.

"ظننت أننا فقدناك". قال الطبيب غراي، و لم يكن يملك أي فكرة عن التضحية التي قام بها ماكس بسبب تعاطفه مع الطبيب.

ولكن الألم الذي شعر به الطبيب لم يكن الأمر الوحيد الذي حث ماكس. كان مدفوعاً أكثر من أي وقت مضى بأمر أكبر، رسالة أكثر أهمية... تتطلب منه أن لا يكون في حالة النورانية سابقة الذكر.

كان ماكس لا يزال يشعر بالمرض، ومذهولاً بسبب اختبار حالة النورانـيـة. وبقـي في العيادة ساعتَين إضافيتَين تحت المراقبة، ولازمته جاين.

"يـا أمي، لا فكرة لديك عن مدى جمال الحالة التي نكون فيها خـارج جسدنا". قال لها وتابع: "كانت هناك تلك الكائنات النورانية المليئة بالحب".

"أستطيع أن أتخيّل ما الذي مررتَ به". أجابت جاين، وضمّته إلى صدرها وقالت: "يبدو الأمر مماثلاً إلى حدٍّ ما لما أشعر به عندما أحدّق إلى موجات المحيط حيث أتخيّل أن كل موجة هي قوة حب وحياة.

"ولكن أخبرني المزيد عن هذه الأسماء الاثني عشر التي رأيتها".

"حسناً، كانت أسماء لم أرَها من قبل، وبدا لي بعضها بلغات أجنبية. والاسم الوحيد الذي أتذكره هو الأخير، وكان غريباً؛ الدب الراكض".

أضاف: "ولكل اسم لونه الخاص وذبذبته الخاصة، وعندما تندمج تـشكّل قوس قزح كاملاً وسيمفونية من الذبذبات. كان الأمر غريباً جداً ورائعاً".

"هـل تعتقدين أنه كان من المفترض بـي تذكّر الأسماء؟". سأل مـاكس، وشعر فجأة بالقلق من إمكانية إغفال فرصة كبيرة لاكتساب المعرفة.

فطمأنته جاين.

"قد لا تكون ذات أهمية على الإطلاق، وحتى وإن كانت كذلك، فلا معنى للسماح لها بالتسبب لك بالألم. عِش حياتك فقط وراقب ما الـذي يتكـشّف لك". وتوقفت قليلاً ونظرت إلى عينَيه قائلة: "العالم واسع وشاسع وغريب، ولن تفهم أبداً كل ما يحدث".

وطـبعت قبلة على جبين ماكس، ومن ثم عانقته، وانتظرت قرار الطبيب غراي بأنه بات من الآمن له العودة إلى المنـزل.

* * *

بعـد اقتناع الطبيب من أن حالة ماكس لن تتكرر، غادر ماكس العيادة.

فأخذ بنصيحة والدته وأكمل حياته، واستمر في التألق في الميدان الرياضي في المدرسة، مكتسباً مهارات قيادية بارزة في النشاطات كافة، ومتفوّقاً على الصعيد الأكاديمي، ولا سيما في الرياضيات.

ومن جهة أخرى، كان يحقق إنجازاته من دون عناء لدرجة أنه بدأ بالـبحث عـن تحديات إضافية. وواضعاً هذا الأمر نُصب عينَيه، تقدّم بطلب الانتساب إلى برنامج "عام دراسي في الخارج" لدراسة الإسبانية. لقـد فتنه ذلك البلد منذ أمد طويل، ويعود سبب ذلك جزئياً إلى تأثّره بمدرّسه الإسباني فرناندو إغليزياس.

فالـسّنيور إغليزياس، كما طلب من طلابه أن يدعوه، هو الرجل الـذي كان غدوّه مدرِّساً أمراً بعيد الاحتمال، ناهيك عن طريقته في الإيحـاء للطلاب. إنه الابن الأصغر للعائلة التي تحتل المرتبة الخامسة في الثـراء في كوبا. فعائلة إغليزياس تدير سياسة البلد إلى جانب العائلات الكـبيرة الخمـس الأخرى، وتملك مطاحن السكّر، وسكك الحديد، والـنوادي الليلية، وكل ما هو جدير بأن يتم امتلاكه. كان يقوم على خدمـة فرناندو بشكل متواصل خدّامٌ يتمتعون بالرزانة والمهارة، وقد

برع في تنظيم الحفلات بطريقة لا يفهمها إلا كوبيّ حقيقي برأيه. نوع مختلف من *الكرنفالات* البرازيلية يتصف بحماسة كبيرة، وحب الجمال، وتقدير الفن الراقي.

لقد ارتاد فرناندو كلية الحقوق بالرغم من عدم حاجته إلى ذلك لأنها اعتُبرت مهنة محترَمة يتعيّن عليه مزاولتها بانتظار أن يرث ثروة. ومن جهة أخرى، فقد كان مثالياً ويريد رؤية تحقيق الإصلاح، لا سيما الإطاحة بفولجنسيو باتيستا، حاكم كوبا الدكتاتوري والقمعي. وعندما كان طالباً، قدّم تمويلاً كبيراً إلى إيديولوجيّ شاب يدعى فيديل كاسترو. و لم يدرك فرناندو أنه دعم دكتاتوراً توتاليتارياً مماثلاً لباتيستا حتى بعد تسلّمه مقاليد الحكم.

وعندما بات فرناندو مستعداً للفرار من كوبا، لم يُسمح له إلا بأخذ خمسمئة دولار معه فقط وحقيبة ملابس حملها على ظهره.

وهبط في ميامي، وحصل على وظيفة نادل يقدّم المشروبات الغازية والمرطبات في مطعم هوارد جونسون. كان طليق اللسان بالإنكليزية، واستناداً إلى خلفيته الثقافية، تقدّم بطلب لتدريس اللغة الإسبانية في مدارس خاصة متنوعة على الساحل الشرقي. لقد مكّنته نشأته في الطبقة الاجتماعية العليا من تلبية متطلبات مدرسة هاكلي في تاريتاون، نيويورك. وهكذا، وجد نفسه عام 1964 يدرّس الإسبانية للصف التاسع في هذه المدرسة الخاصة النهارية والداخلية التي تستقبل الفتيان فقط.

* * *

لم يكن السنّيور إغليزياس يتمتع بخبرة التدريس، ولكنه يمتلك معرفة وافرة بالحياة في حضارته اللاتينية. نتيجةً لذلك، وجد ماكس أن طرائقه التعليمية غير مألوفة بل مثيرة على الدوام. لقد تلخّصت فلسفته

بأن لا شيء مستحيل، فاصطحب طلابه إلى مدينة نيويورك لحضور حفلات مع منفيين كوبيين آخرين حيث فتح الشبان عيونهم واسعاً إعجاباً بأنواع الطعام الأجنبي، والموسيقى المثيرة، والنساء الجميلات.

وعندما فُتح الجناح الإسباني عام 1964 في المعرض العالمي في كوينز، نيويورك، نظّم السنّيور إغليزياس رحلة للصف بأكمله شملت لقاء راقصات الفلامينغو الغجريات وراء الكواليس. وشعر ماكس بالذهول لأن هذا المدرّس البسيط الذي لا مال لديه عملياً، تمكّن من العثور على هذا الفرح والإثارة في حياته اليومية.

كان حب فرناندو لثقافته الأم مُعدياً تماماً، وسرعان ما اكتسب ماكس محبة عميقة لكل الأشياء الإسبانية، بما في ذلك قصص عن حضارتَي الإينكا والمايا وكيف أن الفاتحين الإسبان تغلّبوا بسرعة على تينك الحضارتين المتطورتين جداً بسرعة ومن بدون عناء كما يبدو. وهكذا، وفي 9 أيلول/سبتمبر 1966، وفي سنّ السادسة عشرة، انطلق ماكس المليء بالحماسة والعجَب في رحلة بحرية مع مجموعة من الطلاب على متن سفينة يو أس أس *أوريليا* إلى ساوثامبتن، إنكلترا، في طريقهم إلى برشلونة، عازمين على تعلّم المزيد عن الثقافة التي أنتجت كورتيس وبيزارو.

ولدى وصوله، أُلحق بعائلة سيغوفيا المؤلفة من سيّدة العائلة، أرملة سيغوفيا، وابنَيها وابنتها، وخادمتهم وطاهيتهم، جوليتا، التي انضمت إلى العائلة منذ ولادة الابن البكر أليخاندرو.

كان أليخاندرو فتى حفلات وسيماً على نحو استثنائي في الثامنة والعشرين من العمر، ويخادن عارضات الأزياء والفنانين، بمن فيهم سالفادور دالي. كان مهندساً معمارياً غير ناجح جداً، ويتجادل باستمرار مع والدته بشأن المال وإنجازاته المهنية المغمورة.

كان الابن الثاني، روبرتو، في الرابعة والعشرين من عمره ويدرس أيضاً الهندسة المعمارية. هو لا يمتاز بطلعة أليخاندرو البهية بل بوجه لطيف، وجسم ممتلئ. لقد خطب حبيبته في المدرسة الثانوية، كريستينا، في أثناء إقامة ماكس مع العائلة، وكانت أطول من روبرتو وأكثر نحولاً منه، وقد شكّلا ثنائياً ترفيهياً، إضافةً إلى كونهما بارعَين وذكيَّين ولطيفَين.

أمضى ماكس كثيراً من الوقت مع روبرتو يلعبان الورق ويتناقشان في أمور الطعام، والموسيقى، والهندسة المعمارية. وبما أن روبرتو يحب تناول الطعام، فقد عرّف ماكس إلى مجموعة كبيرة ومتنوّعة من الأطعمة الإسبانية والكاتالونية والباسكية اللذيذة.

ومن جهة أخرى، أمضى ماكس معظم وقته مع الابنة الأصغر سنّاً، إميليا، البالغة من العمر عشرين عاماً والأقرب إلى سنّه. كانت تدرس الأدب في جامعة برشلونة، ويتحدثان لساعات عن كبار المؤلّفين والشعراء في العالم، ويغامران بالغوص في موضوعات فلسفية. كانت إميليا شقيقة حقيقية لماكس، ولم تُطرح أبداً فكرة إقامة علاقة رومانسية. في الواقع، كان لديها صديق شديد الثراء، كويتانو، يقيم في مدريد ويقوم بزيارة أسبوعية للعائلة ويدعو إميليا وماكس إلى المسرح، والباليه، والمطاعم الممتازة، والحفلات الموسيقية.

ولكن السِّنيورة، أرملة سيغوفيا، كانت الوجه الأبرز في العائلة.

لقد أنشأ زوجها مؤسسة ناجحة جداً في ميدان التأمين الطبي، ولكنه توفّي باكراً تاركاً لها ثلاثة أولاد تتراوح أعمارهم بين أربعة وثمانية أعوام. وفي العام 1956، لم تكن إسبانيا تمنح النساء حقوقاً مُساوية للرجال، وكانت القليلات - إذا وُجدنَ - يمتلكنَ مؤسسات تجارية. وبما أن القانون الإسباني يمنع النساء العازبات من امتلاك

مؤسسات تجارية، فقد احتفظت السِّنيورة باسمها الرسمي أرملة سيغوفيا.

كانت متعهدة أعمال بالفطرة. فبالإضافة إلى إدارة شؤون شركة التأمين، اشترت غسالات كهربائية للعموم، وعدداً من المتاجر العامة الصغيرة، ومنزلاً على الشاطئ لتمضية إجازات نهاية الأسبوع في كوستا برافا، الشاطئ الإسباني شمال برشلونة. كانت تعتقد بشدة بالعمل الشاق، وطبعت مناقبية العمل هذه في ذهن روبرتو وإميليا، ولكن ليس في ذهن أليخاندرو الذي كان أكثر انجذاباً إلى فتنة عالم الفن.

كانت أرملة سيغوفيا قوية في مختلف الأمور التي كانت والدة ماكس، جاين، ضعيفة فيها. وهي لم تكن جميلة، بل تملك طاقة لامتناهية وذوقاً جمالياً ممتازاً.

أما الخادمة والطاهية جوليتا فكانت بمثابة الوالدة الثانية للابنين والابنة. إنها متحدرة من عائلة فقيرة في قرية أراغون الريفية الصغيرة، وبدأت العمل لدى العائلة في سنّ السادسة عشرة فقط، وكانت في أواخر العقد الخامس من عمرها عندما قَدِم ماكس للإقامة معهم. كانت تصطحب ماكس دائماً للتسوّق في سوق الهواء الطّلق، وتعلّمه كيفية اختيار الخضار الطازجة والدجاج الحيّ الصالح لإعداد أفضل وجبة.

"هذا الفتى المقيم لدى السِّنيورة أشد ذكاءً من الشرير!". كانت تقول بفخر لكل من يرغب في الإصغاء إليها، مستمتعةً كما يبدو بكون هذا الشاب الأميركي في عُهدتها، مما يحمل ماكس على الابتسام.

* * *

في الأشهر التسعة التي أمضاها في برشلونة، تعلّم ماكس تكلّم الإسبانية بلكنة مماثلة للكنة أي مواطن كاتالوني. لقد شعر برابط بالشعب الإسباني من القلب إلى القلب، وهو أمر لم يكن في إمكانه الشعور به أبداً عندما يتكلم الإنكليزية، التي بقيت بالنسبة إليه على الدوام لغة المنطق والجمباز الفكري، ولكن ليست لغة العواطف العميقة.

لقد سافر إلى كل مدينة رئيسة في إسبانيا، وبات خبيراً بشؤون المهندس المعماري البرشلوني أنتوني غودي، وزار مكان ولادة إل غريكو، ودُهش بإنشاء لا ألهامبرا في غرانادا، وتناول إوزّات قطبية في غاليشيا، وجاب شوارع سالامانكا القديمة مسقط رأس أونامونو، وأصبح أكثر افتتاناً بالثقافة الإسبانية وحبها للحياة، وحماستها الشديدة، وانفعالاتها. لقد بدا كل شيء مألوفاً بالنسبة إليه، وشعر كما لو أنه في وطنه.

كان على ثقة تامة أنه المكان الذي ينتمي إليه. لقد تعلّم ماكس في إسبانيا العيش من دون خوف حيث يمكنه التجوّل في أي مكان من المدينة، وفي أي ساعة من النهار أو الليل، بأمان تام. كان فرانكو يحكم بقبضة حديدية، حتى إن المنطقة الخطرة لم تكن تشهد حدوث أي جرائم باستثناء البغاء المنظّم إلى حدٍّ ما، ووجود متاجر للسلع الخاصة بالحميمية عند كل زاوية، وغرف للنزلاء منخفضة التكلفة فوق كل مشرب.

وبالرغم من إنهاء ماكس سنّ السادسة عشرة في ذلك الشتاء، كان لا يزال يبدو وكأنه في الرابعة عشرة من عمره، حتى إن البغايا ظننَّ أنه صغير السنّ جداً لتتمكّنّ من لمسه. ذات ليلة، قرر مع ثلاثة من أصدقائه أن الوقت قد حان لإقامة علاقة. فنجح أصدقاؤه، وسمحوا

لأنفسهم بالإصابة بأمراضٍ مُعدية ليُثبتوا للآخرين ما قاموا به بالرغم من استخدام الواقيات. ولكن البغايا رفضنَ إقامة علاقة مع ماكس بسبب مظهره، وكان سعيداً بذلك.

كان ماكس ينام جيداً في منزل أرملة سيغوفيا ويرى أحلاماً سارّة، باستثناء إحدى الليالي عندما احتسى كمية كبيرة من الشراب بعد مباراة في البيسبول. فبعد عامَين من الإخفاقات المتتالية، فاز فريقه الإسباني في مباراة ضد خصمه الرئيس بسبب قدرة ماكس العظيمة. وأصرّ كل فرد من الفريق المؤلف من عشرة رجال على شراء جرعة من الشراب للفريق بأكمله، مما أدى إلى تناول كل منهم عشر جرعات في غضون ساعتَين.

في تلك الليلة، حلم ماكس أنه يقاتل مجموعة متدفقة من التنانين النافثة للنار. كان يحمل سيفاً وقد تمكّن من قتل كل التنانين في أثناء اقترابها منه. ولكن، كان هناك دفق لا ينضب من المخلوقات.

وبعد قتل ما بدا أنه مئة تنّين – هذا إن لم تكن آلافاً – نظر ماكس إلى السماء وسمع صوتاً عالياً يسأله:

"هل تريد التوقف عن قتال التنانين؟".

"أجل. الأمر مُنهِك وأشعر بالإرهاق". اعترف ماكس.

"حسناً، يمكنك التوقف متى شئت".

"ولكن إذا توقفتُ، فستستمر التنانين في القدوم فتدمّر العالم".

"أنت تفكر بطريقة صحيحة". أقرّ الصوت باللغة الإسبانية.

"ولكنك لن تتمكن أبداً من هَزم كل التنانين لأن عددها لامتناه".

"هل أنت واثق من رغبتك في مواصلة قتالها؟". سأل الصوت.

فهزّ ماكس كتفَيه ببساطة وعاود قتل التنانين.

واستيقظ بعد ذلك.

لقد قيل لماكس إن عليه أن يعلم أنه ماهر بالإسبانية عندما تكون أحلامه باللغة الإسبانية. وبما أن ماكس لا يتذكر أحلامه أبداً، فقد كان اختباراً سارًّا وغير عادي.

ويشير ذلك أيضاً إلى أنه حقق هدفه الرئيس من تعلّم الإسبانية قبل العودة مجدداً للتغلّب على أي تنانين قد تكون بانتظاره في أثناء استعداده لإكمال دراسته وتهيئة نفسه للكلّية وسنّ الرشد.

الفصل الرابع

"فهم الفهم"

1968

ارتاد ماكس أكاديمية فيليبس أندوفر في عام التخرج، وأتمّه من دون تحقيق أي تفوّق، لا سيما في ما يتعلق بنشاطاته خارج المنهج الدراسي. لقد ركّز بدلاً من ذلك على دروسه، وعلى التطبيقات في الكلّية، وزيادة معرفته بشؤون الحب.

كان يواجه صعوبة في دخول أي كلّية يختارها، وبعد تلقّي عدد من رسائل القبول، قرّر ارتياد يال.

في غضون ذلك، طوّر ماكس علاقة جميلة وصامتة مع ليزي البالغة من العمر خمسة عشر عاماً والتي التقى بها في حفلة راقصة في نادٍ ريفي في سليبي هولو. لقد رقص ماكس في ذلك المساء مع العديد من الشابات النشيطات اللواتي يرتدين ملابس برّاقة، ولكن ليزي كانت مختلفة. وعندما سألها عن كتابها المفضّل، أجابت: "*كاندي*". وهي رواية جريئة كانت على لوائح الكتب الأكثر رواجاً في ذلك الوقت.

لقد أثارت تلك الشابة اهتمامه بسبب جرأتها، ووجد نفسه منجذباً إلى عينَيها الصوفيتَين، وجسدها الناعم الأُنثوي، وابتسامتها الفاتنة. وقبل انتهاء المساء، قرر السعي وراءها.

كانت تقيم على مسافة قريبة من منزله، ولكن لقاءاهما اقتصرت على الإجازات المدرسية لأنه كان موجوداً في أندوفر معظم الوقت. وبالرغم من ذلك، نشأت بينهما علاقة غرامية.

فقد كانا يقومان بنزهات طويلة سَيراً على الأقدام، أو يذهبان إلى غرفة نوم ماكس الموجودة فوق المرأب والتي تمتاز بمدخل منفصل، وتؤمّن خلوة تامّة.

واعتبر علاقته بليزي "صامتة" لأنهما نادراً ما كانا يتحدثان عندما يكونان بمفردهما. كانا يقبّلان بعضهما بعضاً، ويحدّقان إلى عينَي أحدهما الآخر لأكثر من خمس ساعات متواصلة. ولكنهما كانا بتولَين و لم يكن أي منهما مستعداً لاستكشاف المستوى التالي من الخصوصية بسرعة كبيرة.

استمرت هذه المغازلة بعيدة المدى طوال عام التخرّج الذي أمضاه ماكس في أندوفر. وبعد ذلك، وفي الصيف السابق لذهابه إلى يال، استمتع كلاهما بزيارة قاما بها إلى مدينة نيويورك في نهاية الأسبوع، وأقاما في شقة والده الفارغة في الشارع الثامن عشر وارفين بلايس قبالة بيتس تافرن. عندئذٍ، قرر ماكس وليزي استكشاف الخصوصية الجسدية النهائية من خلال حُب جارف مشحون بالعواطف.

وعندما بدأا بالحميمية لم يتوقفا أبداً. كانت أغنية البيتلز في ذلك اليوم: "لماذا لا نقوم بالأمر على الطريق؟". وبالطبع، هذا ما قامت به ليزي وماكس هناك، وفي كل مكان تقريباً.

بعد دخول ماكس يال في أيلول/سبتمبر التالي، بات من الصعب عليه رؤية ليزي، ولكنه كان يراسلها بانتظام. أما هي، فلم تكن مثابِرة على غراره في توجيه رسائل جوابية، و لم يكن يُدرك أنها لم تعُد مهتمة لأمره.

كانت لا تزال في السادسة عشرة من عمرها فقط وترتاد المدرسة الثانوية، و لم يكن وجود صديق لها في الكلّية يعني أي شيء لها. فكتبت لماكس رسالة وداع تلقّاها في 12 كانون الأول/ديسمبر 1968، تاريخ مولده التاسع عشر.

وشعر ماكس بصدمة عندما تلقى الرسالة، ودخل في حالة من اليأس المطلَق.

وازدادت كآبته لأنه لم يتمكن من التكيّف في يال. لم يكن وجوده في مبنى سكني للطلاب قائم عند جادة الكلّية أمراً ممتعاً بسبب قيام الشاحنات بتبديل جهاز نقل الحركة طوال الليل، فتوقظه أو تمنعه من النوم. و لم يكن وجود صديقته بعيداً عنه، وصفوف تحتوي على ستمئة طالب وأستاذ لا يعرفون أسماء بعضهم بعضاً، أمرين ممتعين كذلك.

وكونه يتخصص في الرياضيات، لم يكن يعجبه حضور الصفوف الدراسية حيث يقوم أستاذ رياضيات أسترالي باستخدام مجموعة رموز رياضية مختلفة عن تلك التي تعلّمها في المدرسة الثانوية. وفي عالم قلبته حرب فييتنام رأساً على عقب، وانتشرت فيه المخدرات الترفيهية بين زملائه الطلاب، لا بل بين الأساتذة أيضاً، تساءل عن سبب تخصصه في الرياضيات.

لم تكن دراساته الأخرى توفر له العزاء. لقد درس بياجيه، وعلم أنه وفقاً لمراحل التطور التي مرّ بها هذا الأخير، يستحيل على فتى صغير اعتماد مفاهيم نظرية وتفحّصها. لقد شعر بالإحباط لأنه لم يتمكن من صرف النظر عن حقيقة رؤاه وخبراته في سنّ الطفولة.

وحدث بعد ذلك الاضطراب السياسي؛ اغتيال الشقيقين كنيدي، وكِنت ستيت، وأبي هوفمن، ومارتن لوثر كينغ أخيراً. ووسط هذه

الفوضى العارمة، أُزيلت مرساته العاطفية الهامة الوحيدة ولم يتمكن من التعاطي مع الأمور.

* * *

في خريف ذلك العام، انتقل هربرت وجاين من سكارسدايل، نيويورك، إلى غرينويتش، كونكتيكت، ليكونوا أقرب إلى ماكس، في الواقع على بُعد خمس وأربعين دقيقة فقط من يال بالسيارة.

كانت كلمة "الاندماج" هي الكلمة الشائعة، وقد سعت ليتون إنداستريز إلى تملّق هربرت، وهي إحدى الشركات الكبيرة التي قررت ضمّ دور نشر أخرى إليها في مؤسسة إعلامية كبيرة. وبدأت ليتون بشراء ناشرين أصغر حجماً، وتلقى هربرت عرضاً... تلو الآخر.

وتتالت العروض التنافسية من شركات أخرى، وكانت الأسعار مرتفعة. أخيراً، وجد أحد الشارين طريقة لإنهاء مقاومة هربرت. لقد وعدت برفكت فيلم، وهي شركة صور فَورية، بتعيين هربرت رئيساً لقسم النشر، ويكون في إمكانه استخدام أموال برفكت فيلم لشراء شركات نشر *أخرى*.

لم يكن هربرت راغباً في الواقع في بيع شركة النشر التابعة له، ولكنه أحب كثيراً فكرة إدارة مؤسسة أكبر حجماً، لذلك شرع بالاستعدادات. وتضمّنت الصفقة الانتقال من ولاية نيويورك إلى كونكتيكت حيث كانت الضريبة على الأرباح الرئيسة في العام 1968 أكثر انخفاضاً، ولا تفرض الولاية ضريبة على الدخل.

* * *

وهكذا، وعندما عاد ماكس إلى "المنزل" في الكريسمس، لم تعد غرفته فوق المرأب وفقد كل أساس عاطفي. كانت جاين ثملة في أغلب

الأحيان أو نائمة، ولم يكن هربرت يلتقي بماكس إلا نادراً بسبب التركيز على البيع المحتمَل لشركته.

لقد تم إهمال ماكس.

كان زمناً مضطرباً، وخشي شبان عديدون من تجنيدهم بالقُرعة وإرسالهم إلى فيتنام حيث الوضع في تدهور مستمر. وبما أن رقم ماكس هو 321، فهو لم يكن معنياً بالقوات المسلحة، ولكنه لم يكن يجد سبباً لبقائه في يال.

"يا أمي، لا أدرك حقاً مغزى ذلك. المدرسون ليسوا بكفاءة أولئك الذين درست على أيديهم في أندوفر، أو في برنامج "*عام دراسي في الخارج*"، أو حتى في هاكلي". قال متذمّراً وأضاف: "لم أشاهد سوى ثلاثة أو أربعة أفلام سينمائية على الأكثر، وأمضي بقية الوقت شاعراً بالملل في أثناء الصفوف الدراسية".

"ابذل القليل من الجهد للتواصل مع مدرّسيك والطلاب الآخرين، وأنا على ثقة بأنك ستختبر أموراً أفضل". نصحته جاين. "أهم ما في الأمر هو عدم الاستسلام، تحصيلك العلمي هام جداً".

"سأبقى إذا كان ذلك يُسعدك". وأضاف: "ولكن الأمر يبدو مضيعة للوقت وهَدراً للمال".

"ثِق بي في هذا الأمر". قالت متوسّلة: "ستتمتع بمزيد من النفوذ في حياتك كبالغ إذا أدركت حقيقة الأمر وتخرّجت. وصدّقني، ستكون بحاجة إلى النفوذ".

وتابعت: "لذلك، عدني أنك ستبقى وتتخرج، رجاءً، يا ماكس".

فوعدها، رغبةً منه في عدم تخييب أملها.

* * *

من جهة أخرى، وبالرغم من شعوره بالعُزلة، كان لماكس أصدقاء في الكلّية، بمن فيهم أرشيبالد بنسن، الذي كان فرداً من المجموعة التي ذهبت إلى برشلونة، وكريس غارفي، وكارل بيكر.

وفي بداية إجازة الربيع التي تمتد عشرة أيام، اقترح كريس وكارل على ماكس تذوّق حلوياتهما اللذيذة المفرومة، فشعر أنه لن يخسر شيئاً إذا قام بذلك.

كان قسم كبير من طلاب يال في العام 1968 يتعاطون المخدرات بوصفه جزءاً من ثقافة الكلّية التي تقبّلت أيضاً التغييرات الجَذرية في الموسيقى والموضة.

فالتهم ماكس الجائع الحلويات اللذيذة، وبدلاً من شعوره بسعادة غامرة استسلم لنوم عميق، خلافاً لتوقعاته، دام لأربع وعشرين ساعة كاملة.

* * *

استيقظ ماكس ممتلئاً حيوية وزاخراً بأفكار جديدة. وطوال الأيام العشرة للإجازة، التهم كل الكتب المطلوبة لدورته الأكاديمية الدراسية الخامسة. ولم يشعر بالحاجة إلى النوم، بل كان يغفو لمدة عشرين دقيقة أو ساعة متواصلة فقط.

وعاد ماكس إلى حرَم يال، ووضع في الليلة السابقة لامتحان الفلسفة المسوّدة النهائية لبحث كان أستاذه روبرت فوكس، الذي يشاطره العديد من الميزات الجسدية، قد طلب منه إعداده. وكان الموضوع، "وفقاً لطرائق تفكير وايتهيد، اكتب بحثاً نقدياً عن نظام التعليم في يال".

كان ألفرد نورث وايتهيد يُعتبر المفكر الرائد عالمياً في شؤون الأنظمة، وقد شرح كيف أن المعرفة تكون قائمة ضمن حدود

وإمكانيات الأنظمة التي يتفاعل فيها البشر. وأدرك ماكس بسرعة أن قدرتنا المحدودة متأتّية من كوننا بشراً.

وأدرك أيضاً أنه لا يمكن بلوغ الفهم الحقيقي إلا عندما نكون بشراً *بالكامل*، ونسمح لمشاعرنا وانفعالاتنا بدخول عالم الاستقصاء العلمي التحليلي. فاستنتج أن أداء يال كان دون المستوى في هذا الإطار. لقد صنّفت الجامعة كل وجه من أوجه الموضوعات، وقسّمتها إلى اختصاصات، ويقوم المدرّسون والمحاضرون بالتحدث إلى بعضهم بعضاً من دون التحدث إلى أحد خارج النظام المُغلَق. كان الطلاب يتعلمون المزيد عن أمور متناقصة، ولا يقتربون من هدف وايتهيد المتمثل "بفهم الفهم"، ولا يبتعدون عنه في الواقع.

وبينما كان ماكس يستعد لكتابة البحث، أنهى قراءة *روح على الجليد* لإلدريدج كليفر، وهي رواية عن حركة الفهد الأسود وشعور السود بالغضب بسبب تعرّضهم للقمع نتيجةً لقيود النظام القضائي وعدم عدالته في الولايات المتحدة في النصف الأول من القرن العشرين. كان أسلوب كليفر لاذعاً لا بل عنيفاً أيضاً.

وبتأثره بهذا الأسلوب واعتباره فعالاً، كتب ماكس مقالته الفلسفية المؤلفة من ثماني عشرة صفحة بتعابير قوية، وضمّنها عناصر من حالته العاطفية، وتفاصيل عن عدم خلوده إلى النوم، ودخوله في حالة من اليأس، وكيفية ارتباط تلك العوامل بالاختراق الذي حققه في ميدان "فهم الفهم".

لقد وضع المقالة بعناية بعد اطّلاعه على هدف يال وممارساتها. وكان شعار الجامعة "النور والحقيقة" جيداً بتقديره، ويجاري انتقاد وايتهيد لأسلوب التعليم. واقترح وايتهيد أنه إذا كان في استطاعة أحدهم فهم الفهم، إذاً، يمكن فهم كل شيء.

وكونه عالماً في الرياضيات، كان ماكس يعتقد أن الطريقة الوحيدة لإتمام هذا الأمر تتمثل بالخروج من النظام البشري، وقد عبّر عن تلك النظرية في تقريره.

وأنهى التقرير بمعادلة "أيه مساوية وغير مساوية لأيه". على غرار المعادلة الأساسية التي تشرح كيفية النفاذ إلى ميدان "فهم الفهم" الفكري الذي لا يمكن النفاذ إليه. فالأمر مماثل لحَجَر الكيميائي العجيب الذي يحوّل الرصاص إلى ذهب، أو يحوّل أي جهل إلى معرفة.

كان وايتهيد يعتقد بشدّة بوجوب تركيز الطلاب والمدرسين في كل لحظة تعليمية على أفضل خبرة ممكنة للتعلّم. وهكذا، اعتبر ماكس أن أفضل خبرة يمكن لزملائه الطلاب اكتسابها تتمثل بقراءة ومناقشة بحثه الذي يعتبره اختراقاً.

وارتأى أولاً مناقشة أمر إرجاء الامتحان مع البروفسور فوكس الذي يرأس أيضاً قسم الفلسفة. وواضعاً ذلك نُصب عينَيه، وصل ماكس إلى قاعة الامتحانات باكراً، واجتاز المنصة الخشبية، ووقف بالقرب من المنبر قُبالة قاعة المحاضرات الكبيرة.

وبسبب أوجه الشبه بينه وبين مدرّسه؛ شعرٌ بنّي اللون مجعَّد وأشعث، نظارات، ومجموعة ملابس غير رسمية مؤلفة من سترة، وبنطال كلاسيكي، وقميص من دون ربطة عنُق، افترض العديد من الطلاب أن ماكس هو أستاذ فوكس. فطرح عليه طالبان أسئلة عن الامتحان، وطلب منهما ماكس بهدوء الجلوس في مقعديهما وعدم الشعور بأي قلق.

"قد لا يكون هناك امتحان نهائي". قال على نحو غامض.

ونتيجةً لذلك، سرت شائعة في القاعة عندما ظهر البروفسور فوكس قبل دقيقة أو دقيقتين من بدء الامتحان. وعندما نظر إليه

الطلاب مُرتَبكين، قام ماكس بتسليمه المقالة قائلاً: "أيه هي أيه وليست أيه".

"أمضيت الليل بأكمله أكتب هذه المقالة". شرح ماكس: "وأظن أنني بلغت الهدف النهائي لوايتهيد المتمثل بفهم الفهم".

وبينما كان الأستاذ يقلّب صفحات البحث، أضاف ماكس: "سيستفيد الصف من قراءة هذه المقالة أكثر من الخضوع لامتحان". قال مؤكداً.

فأصغى البروفسور فوكس إليه بهدوء وأجاب:

"ربما اختبرتَ في الواقع هذا الاختراق المدهش. ولكن لم يتسنَّ لي بعد قراءة هذه المقالة. وكما أنك توافق رأي وايتهيد بوجوب قيام كل فرد باتّباع ما يعتبره الوجهة المثلى للتعليم التربوي، يجب عليّ إجراء الامتحان".

وبالرغم من عدم تحقيق النتيجة المرجوّة، تلقى ماكس هذا النبأ بهدوء وأجاب:

"لقد فهمتُ. ربما في المرة القادمة. أردت فقط توفير الفرصة المناسبة لك".

"حسناً، لستَ بحاجة إلى إجراء الامتحان هذه المرة إذا لم تكن راغباً في القيام بذلك. لقد كتبتَ مقالة أطول من المطلوب، وبما أنك سهرت طوال الليل، كما قلتَ، لإنهائها، قد لا يكون الظرف مؤاتياً لك لإجراء الامتحان".

"لا، سأكون بخير". أجاب ماكس: "يمكنني إجراء الامتحان الآن، لستُ مُتعَباً إلى هذا الحد".

وبينما كان متوجهاً إلى مقعده، أدرك أنه يُفترض به تمضية وقته في التأمّل بفهم الفهم، انسجاماً مع طرائق التفكير وفقاً لوايتهيد، وعدم

تضييع وقته بالإجابة عن أسئلة حول سبينوزا، وكانت لا لشيء إلا للحصول فقط على علامة أيه تُحدث انطباعاً في نفوس الآخرين.

وهكذا، استدار ماكس نحو البروفسور فوكس وقال:

"أجل، أظن أنك مُحق. من الأفضل لي ربما عدم إجراء الامتحان في الوقت الحاضر. شكراً لك، يا سيدي".

وخرج من قاعة المحاضرات.

* * *

في أثناء مغادرته المبنى، فكّر ملياً في تفاصيل مقالته، وازدادت حماسته. والتقى بأستاذ علم الاجتماع، أوجينيو رودريغيز. ومتحمّساً بشدة لمشاطرته قلقه حيال ما توصل إليه، قام ماكس بإيقافه وشرع بالتحدث إليه.

"لقد اكتشفتُ للتوّ طرائق التفكير وفقاً لوايتهيد، وكشفت النقاب عن سر فهم الفهم". قال بسرعة.

وأُثير اهتمام البروفسور رودريغيز بعد أن لفتت حماسة الشاب انتباهه، وتبنى دور محامي الشيطان.

"هل يوصلنا هذا الفهم إلى القمر، أو يسمح لنا بإيجاد حل لأيٍّ من المشاكل الاجتماعية الراهنة؟". سأل.

فتردد ماكس للحظة، وانطلاقاً من مستوى نظري معيّن يوحي أن أولئك الذين رفضوا التقيّد بالنظام البشري يستطيعون إنجاز أي شيء، أجاب مبتهجاً.

"أنا بحاجة إلى التفكير في الأمر قليلاً، ولكنني أعتقد أنه يتناول تلك المسائل إضافةً إلى مسائل أخرى!".

"إذاً، استمر في التفكير". أجاب البروفسور رودريغيز: "وأعلمني بما تتوصل إليه". وأكمل سيره إلى داخل المبنى.

وبعد شعوره بالفضول حيال اقتراح الأستاذ، قرر ماكس أن القيام بنزهة على القدمين في هواء كانون الثاني/يناير المنعش سيساعده على غربلة أفكاره. ومع صوت الدَّوس على الثلج، بدأ يتأمل مختلف أنواع التطبيقات "لأيه هي أيه وليست أيه" وما قد يعنيه "فهم الفهم" حقاً لكل بشري على الأرض.

قد تكون هناك تطبيقات عملية. فقانون عدم إمكانية الاختراق المتمثل بعدم إمكانية تواجد شيئين في المكان نفسه وفي الوقت نفسه قد لا يكون صحيحاً على الدوام. ومن شأن هذا الأمر أن يبدّل طبيعة الفيزياء، ويسمح بتطوير تكنولوجيات جديدة يمكنها تخطي حدود سرعة الضوء، إضافةً إلى ثوابت أخرى في المعادلات، مما يؤدي إلى خطوات كبيرة متقدمة في ميدان السفر في الفضاء واستيطان كواكب أخرى.

ومن شأن تحقيق "أيه هي أيه وليست أيه" أن يبدّل متغيرات كل منطق، والاستنتاجات التي يمكن للنظرية المنطقية البَحتة أن توفرها، إضافةً إلى المسلّمات التي ترتكز عليها الرياضيات العامة، مما يؤثّر في التحقيقات العلمية العسيرة كافة.

وبدأ عقلُ ماكس يحلل الاحتمالات كافة.

قد يكون الجواب عن السؤال المطروح حول وجودنا بالذات... وهدف حياتنا، قال في نفسه. *كلنا متصلون ببعضنا بعضاً وليس بشكل سطحي فقط*.

وفي أثناء تأمّله هذه المفاهيم، دنا منه البروفسور فوكس الذي كان يبحث عن ماكس كما يبدو. فنظر الأستاذ إلى عينيه بإعجاب واضطراب.

"مقالتك مثيرة للإعجاب، يا ماكس، ولكنني لست واثقاً من أنني فهمتها". قال: "لقد طلبت من غوردون هويل، المتخرج المسؤول عن

قسم الفلسفة، أن يأخذها ويلقي نظرة عليها. يريد أن يراك في مكتب العميد في أقرب وقت ممكن".

* * *

"لا معنى لهذا الأمر بالنسبة إليّ". قال غوردون هويل بوضوح. "لا أفهم نظريتك المطروحة على الإطلاق. تُعلن أن المشاعر يجب أن تكون بطريقة ما جزءاً من التحليل التحليلي في النصف الأيسر من الدماغ. هذا الأمر ليس منطقياً أو عملياً".

ونظر إلى عيني ماكس مباشَرةً.

"ويبدو أنك غاضب جداً ليس من يال ومدرّسيك وزملائك الطلاب فحسب، بل من كل البشر".

"لقد أغفلتَ النقطة الرئيسة". قال ماكس، وبدا السخط في صوته. "أنا غاضب من رياء هذه المؤسسة، وليس من المؤسسة نفسها. هناك الكثير من الأمور الرائعة في يال، ولكنني أتحدث عن أعلى مستويات الحقيقة. أنت بحاجة إلى إعادة قراءة المقالة، وستتحقّق من أن ما أقوله صحيح وفقاً لوايتهيد، وهو أن *أيه هي أيه وليست أيه*".

عندئذ، دخل رجل آخر الغرفة، وعرّف ماكس أنه العميد بريدجز. فسلّم ماكس استمارة.

"يا ماكس، لقد تحدثتُ إلى البروفسور فوكس والسيد هويل". قال بهدوء. "يبدو لهما أنه في استطاعتك اللجوء إلى الراحة والتغيّب ربما أيضاً عن صفوفك الدراسية المنتظمة لبعض الوقت". وأشار إلى الورقة التي يحملها ماكس. "رجاءً، وقّع استمارة الانقطاع عن ارتياد الجامعة، وسيكون في إمكانك العودة إلى يال بعد أخذ قسط من الراحة".

فتردد ماكس للحظة، وأدرك بعد ذلك أن من الأفضل له أن يدرس بشكل مستقل أثر "أيه هي أيه وليست أيه" على كل البشر المتعلّمين. ونظر مجدداً إلى العميد.

"أين تريدني أن أوقّع؟". سأل.

وبعد لحظات، كان قد انقطع رسمياً عن ارتياد يال.

ودخل الغرفةَ رجل ضخم البنية ذو شعر أسود مجعّد، وعرّف نفسه قائلاً إنه الطبيب وينشتاين من قسم خدمات السلامة العقلية في يال. وأخبر ماكس أنه تدبّر أمر بقائه في المستوصف حيث يوصَف له دواء للنوم.

وبينما كان ماكس يفكر مليّاً في الأمر، شرح الطبيب وينشتاين الأمر قائلاً إنه رأى آثار سوء استخدام المخدرات لدى عدد كبير من الطلاب من خلال سلوكهم المنحرف والأرق القَسري الناجم عن الاستخدام المُفرط للمنشطات التي تساعدهم على إجراء الامتحانات.

وقال إن ماكس هو حالة نموذجية.

وهكذا، تبع ماكس الطبيب وينشتاين إلى سيارته من دون إحداث أي جلَبة، وتم اصطحابه إلى المستوصف حيث أُعطي دواءً للنوم.

بعد ثلاثين دقيقة، استدعى الممرضة وسألها إذا كان في استطاعتها إحضار بعض الكتب من المكتبة. فأعلمته أنه لن يكون في إمكانها القيام بذلك، وقالت إنه بحاجة إلى النوم.

"أحضري لي ورقة وقلم على الأقل". قال ماكس متوسلاً. "هناك بعض الأفكار في رأسي أحتاج إلى تدوينها. فهذا الأمر يساعدني على النوم".

لم تبدُ الممرضة مرتاحة إلى الفكرة، ولكنها لبّت طلبه.

وهكذا، أمضى الساعات الأربع التالية في كتابة وتحليل كيف يمكن "لفهم الفهم" تبديل تصرفات الإنسان وطريقة تفكيره. وعبّر عن أفكاره استناداً إلى طبيعة العلاقات البشرية.

فإذا كانت "أيه هي أيه وليست أيه"، إذاً، تكون كل العلاقات، ولا تكون كما تبدو عليه في الواقع. وقد يكون رجل ما ابناً ولا يكون ابناً في الوقت نفسه. وقد تكون الزوجة زوجة ولا تكون زوجة في الوقت نفسه. وقد يكون الطالب طالباً ولا يكون طالباً في الوقت نفسه.

لقد بدا التحليل واضحاً في بادئ الأمر، ولكن ماكس وجد كيف أن معظم الناس لا يفهمون البتة المعنى الضمني لذلك. فالتحليل عنى لماكس أن كل التخطيط البشري مرتكز على فرضيات مغلوطة ومسلّمات مغلوطة تؤدي في غالب الأحيان إلى إرباك، وتُغفل الفرص المناسبة لحدوث أفضل تفاعل بين الناس.

كان في استطاعته أن يرى كيف أن "فهم الفهم" يساعد على إيجاد حلٍّ للنزاعات السياسية والاقتصادية. فبعد الكشف عن فرضيات مغلوطة، قد تنشأ بنيات جديدة تماماً، بنيات لا تتطلب تمييزاً هرَمياً.

وواصل التركيز على المعاني الضمنية للرياضيات والفلسفة. "فأيه هي أيه وليست أيه" حلّت عُقداً فلسفية جوهرية، وعللت تناقضات ظاهرية، وسمحت بمستوى نظري أعلى لمعادلات رياضية أكثر تعقيداً.

كان ماكس في عالم خاص به، ويستمتع بصيَغه الرياضية وأفكاره المثيرة. وقد منعه ذلك من النوم بالرغم من تناول عقاقير منوِّمة قوية.

ومرّ الطبيب وينشتاين به لزيارته، ووصف له جرعة أقوى من الحبوب المنوِّمة التي وفت بالمطلوب أخيراً. وبعد عشرين دقيقة من زيارة الطبيب، استغرق ماكس في نوم متقطع.

واستيقظ في صباح اليوم التالي، وكان مستعداً لمغادرة المستوصف. وشرع بارتداء ملابسه، ولكن الممرضة أوقفته.

"رجاءً، انتظرني لأتصل بالطبيب وينشتاين". قالت بسرعة. "لا يمكنك الخروج من الباب من دون موافقته".

"ولكنني أشعر بأنني في حال جيدة"، قال معترضاً. "لقد حصلتُ على بعض الراحة، وأريد الذهاب إلى المكتبة للتحقق من تأثير ما اكتشفتُه".

فأصرّت الممرضة على بقائه، وعاد ماكس إلى سريره بعد أن رأى مدى اغتمامها. لم يشأ التسبب بمزيد من الإزعاج لها.

عندما وصل الطبيب وينشتاين، طلب من ماكس ملازمة غرفته حتى يقوم والداه، الموجودان في أوروبا، باصطحابه لدى عودتهما بعد يومين. وأبلغ الطبيب ماكس أنّ والدَيه فوّضاه بإبقائه تحت السيطرة، لا بل أيضاً بنقله إلى مصحّة للأمراض العقلية، وذلك حمايةً له وحفاظاً على سلامته.

"إذا قمتَ بأي محاولات إضافية للمغادرة، فهذا ما سيحدث بالتحديد". قال الطبيب وينشتاين، وأشارت نبرة صوته إلى أن المسألة غير قابلة للنقاش.

وبدا ماكس مشدوهاً.

"ولكن والدَيّ لن يسمحا أبداً بهذا التصرف". قال ماكس مؤكّداً.

"حسناً، لقد سمحا بذلك". أجاب الطبيب. "وسأُودعك مؤسسة مماثلة إذا اضطُررت إلى ذلك". ولان صوته بعد ذلك. "نرغب حقاً في إبعادك عن مصحة الأمراض العقلية إذا أمكن. يا ماكس، أنت تعاني من مرض نفسي. فهذا الأمر يحدث مع أفضل طلابنا في غالب الأحيان.

هناك الكثير من الضغوط في بال، ولا يتعيّن عليك الشعور بالإحراج بسبب ذلك، ولكن يجب عليك التعاون والسماح بمعالجتك".

وأضاف: "يتم إعطاؤك التورازين وبعض الأدوية المضادة للأمراض النفسية، ستساعدك على النوم والتغلّب على أوهامك. يجب عليك التعاون". كرّر: "وما دمتَ تقوم بذلك، ستتمكّن من دون شك من التسجّل في الخريف التالي وإكمال تخصّصك".

ومع ذلك، لم يستطع ماكس تقبّل ما تعرّض له.

"ولكنني لا أعاني من الأوهام. لقد صودف أنني فهمت الفهم. الأمر غير منصف بتاتاً"، قال معترضاً.

وانتهت المحادثة، ورمقه الطبيب بنظرة مُبهَمة عند مغادرته الغرفة، واتضح لماكس أن الطبيب وينشتاين يظن حقًا أنه يعاني من مشكلة عقلية.

وبعد تهدئة اضطرابه الداخلي، فكّر مليّاً في مسائل السلامة العقلية المتأصلة في عائلته. فشقيقة والدته الصغرى، ميريام، أُدخلت إلى مصحة للأمراض العقلية عندما كانت صغيرة. وشاء القدَر أن تلتقي بزوجها مايكل هناك الذي كان مريضاً أيضاً. لقد اعتُبر مايكل مختل العقل، ولكن انتهى به الأمر إلى شراء مستنقع خارج مدينة نيويورك، في نيوجرسي، باعه بملايين الدولارات لشركة بَنَت فيه إستاد ميدولاندز لكرة القدم.

وانتحرت والدة جدّة ماكس لجهة والده برمي نفسها عن سطح مبنى بروكلين السكني الذي كانت تقيم فيه، وذلك عندما اكتشفت أن زوج ابنتها، جدّ ماكس، لم يكن يلتزم بتناول الكوشر، وكان يُدخل لحم حيوانٍ مقزَزاً مدخّناً إلى مطبخها.

وبالرغم من اعتبار أفراد آخرين في عائلته الموسّعة مختلّين عقلياً، لم يتم إدخال أي منهم إلى مصحة للأمراض العقلية، باستثناء عمّته.

وعلى ضوء تأملاته، فكّر ماكس مليّاً في احتمال كونه مصاباً باختلال عقلي. وبينما كان يستنتج أنه ليس كذلك، أدرك أن نظريته "أيه هي أيه وليست أيه" تنطوي على عنصر فُصامي متأصل، نوع من أنواع الجنون الذي يمكن السيطرة عليه، ومع ذلك فهو يُعتبر جنوناً.

* * *

في أثناء بقائه في المستوصف لمدة ثلاثة أيام، عانى ماكس من انعدام النشاط ومن آثار جانبية أخرى للدواء. وبدأت فترات نومه تزداد طولاً، ولكن حماسته لم تفتُر حيال صوابية معادلته.

ووصل والده لاصطحابه. وعندما دخل الغرفة، حاول ماكس أن يناقش معه الإنجاز الذي حققه، ولكن هربرت لم يُبدِ أي اهتمام. لقد تكلم بطريقة واقعية وأشار إلى مقتنيات ماكس.

"اتبعني إلى السيارة فحسب، ولنخرج من هنا". قال بسرعة.

وعندما وصلا إلى المنزل، رحّبت به جاين بحرارة وحب، وشرحت له أن الطبيب وينشتاين تدبّر لماكس أمر لقاء طبيب نفسيّ محليّ. وشرحت أيضاً أنها لن تتحدث وهربرت إليه بشأن "فهم الفهم" أو أيّ من نظرياته الفلسفية مخافة تفاقم المشكلة. ويُسمح للطبيب أوستن فقط، الذي تم اختياره، بمناقشة الإنجاز الذي حققه.

لقد أحبطت هذه الظروف ماكس، ولكنه وافق والدَيه الرأي حتى لا يقلقهما، وذهب بعد ذلك إلى غرفته ليهدّئ من رَوعه.

وفي صباح اليوم التالي، أقلّت جاين ماكس للقاء الطبيب أوستن، وهو رجل مَهيب ذو شعر رمادي ويضع نظارة. كان ابنه موسيقياً محترفاً عمل مع جيري جيف واكر على إصدار أسطوانة مسجّلة تتضمن إحدى أغنيات ماكس المفضّلة وهي "السيد بوجانكلز". وأدى هذا الواقع إلى نشوء انسجام بين الطبيب والمريض.

لقد وضع الطبيب أوستن كتاباً شهيراً حول القوى السيكولوجية التي شكّلت شخصية أدولف هيتلر وأثارت اهتمام ماكس أيضاً. كان الطبيب فخوراً لأن مارك توابن، الذي تناولت بعض روائعه دراسة الطبيب أوستن، كان يمتلك منزلاً في تاريتاون ذات مرة.

وشرح الطبيب أوستن قائلاً إنه عالج في السابق مفكرين عظماء، ولا شك في أنه يعتقد أن ماكس يعاني من حالة تُعرف "بجنون العظمة". وبالرغم من ذلك، أمضى ماكس جلساتهما الخمس الأولى محاولاً شرح الفوارق الدقيقة لمعادلة "أيه هي أيه وليست أيه"، وسبب كونها اختراقاً.

ولكن الطبيب أوستن لم يكن مقتنعاً بذلك.

واستمر في زيادة جرعة التورازين حتى بات ماكس يشعر بالترنّح في معظم الوقت. وكان يزور الطبيب أوستن خمس مرات في الأسبوع حتى إشعار آخر.

* * *

شعر الطبيب أوستن في أواخر شهر أيار/مايو بحدوث تحسّن كبير في حالة ماكس، فخفّض عدد الجلسات إلى ثلاث مرات أسبوعياً.

وشعر ماكس أيضاً بهذا التحسّن. كان قد تعلّم الإجابة عن الأسئلة بطريقة تحمل الطبيب أوستن على الاعتقاد أنه لم يعُد يعاني من أوهام أو من "جنون العظمة".

لم يُشر ماكس أبداً إلى ما خبره في حالة النورانية، أو إلى الألوان الاثني عشر والأسماء الاثني عشر؛ فهو لم يعتقد ببساطة أنها ضرورية. كان يعلم أنه منسجم مع ذاته بالرغم من عدم فهم الأشخاص الآخرين لنظريته.

وبالرغم من تحسّنه الظاهري ورضى الطبيب عن حاله، فهو لم يكفّ أبداً عن التفكير في أنّ "أيه هي أيه وليست أيه" نظرية ألمعية،

واعتبر أن غوصه في كُنه الأمور سيؤدي إلى تبدّل العالم. لم يفهم ماكس أنه بحاجة إلى مزيد من الحِرص لدى مشاطرة أفكاره. ولكن ذلك لم يعنِ أن أفكاره لم تكن صالحة.

وفي أيلول/سبتمبر، قُبل ماكس مجدداً في يال بشرط واحد: *لا يستطيع حضور أي صفوف في الفلسفة.*

محتجَز في بوليفيا

1970

بالـــرغم مـــن حرصه على اتّباع الاتجاه السائد في يال، احتفظ مـــاكس بالكـــثير لنفسه، وأكمل مقرراته الدراسية، ومارس رياضات ضمن الجامعة، واعتمد بشكل عام أسلوباً يُسِرّ والديه ومدرّسيه وأولئك الذين يخشون استقراره العقلي.

بالطبع، كان يعلم أنه لا يزال يفهم الفهم وكل ما يستتبع ذلك، ولكـــنه تجنّب المقررات الدراسية في الفلسفة كما طُلب منه. وتدبّر أمر التـــسلل إلى مقرر دراسي في الأنثروبولوجيا الثقافية يتناول كلود ليفي- ستروس والبُنيوية، وهو طريق آخر إلى تأمل التتابعات الخارقة للدماغ البشري في الثقافات وعبر الزمن.

* * *

في ربيع العام 1970، التقى ماكس ببول هازلتن، وهو متخصص في العلـــوم السياسية وذو اهتمام خاص بشؤون أميركا اللاتينية. كان بول قد شارك في برنامج في البيرو يدعى *مشروع الصداقة*، وينتمي إليه طلاب أميركيون جامعيون يريدون برنامجاً مباشَراً أكثر من برنامج بيس كـــوربس، ويـــسمح بإجراء اتصال فَوري بين طلاب أميركا الشمالية وشعوب أميركا اللاتينية.

وتمثلت الفكرة بإرسال أربعين طالباً جامعياً إلى أريكويبا، البيرو، للعمل على إنشاء مدارس، وتنفيذ برامج في ميدان الخدمة الاجتماعية، والمـــساعدة بصورة عامة بأي طريقة ينصحهم مضيفوهم باعتمادها في المركز الثقافي البيروفي - الأميركي الشمالي في أريكويبا.

وتقـــوم عـــائلات أريكويبـــية بإيواء الطلاب كجزء من التبادل الثقافي.

وبمـــا أن ماكس يجيد الإسبانية بطلاقة، اعتبر أن *مشروع الصداقة* ســـيكون بـــرنامجاً صيفياً مثالياً بالنسبة إليه يمكّنه من خوض مغامرات جديدة والمحافظة على طلاقة لسانه باللغة الإسبانية.

وبدأت الرحلة بشكل يدعو إلى التفاؤل. وكانت العائلة التي أُلحق بهـــا ماكس في أريكويبا مماثلة لعائلته في برشلونة، باستثناء أن السِّنيورة رودريغيـــز أرملة وأنّ لديها ابنين: ألبرتو في الخامسة عشرة من عمره، وخافـــيير الـــبالغ من العمر سبعة عشر عاماً. كانت شقيقة السِّنيورة رودريغيز تقيم أيضاً معهم، وكان الجميع عازمين على تعلّم الإنكليزية والمحافظـــة علـــى الحرية الاقتصادية التي ضمنها لهم انتماؤهم إلى أعالي الطبقة الوسطى عندما كان السِّنيور رودريغيز لا يزال على قَيد الحياة. وعلـــى غرار الجميع في ذلك الوقت، وباستثناء العائلات الأشد فقراً في أريكويـــبا، كـــان لـــدى العائلـــة عدة خدّام: بستانيان، طاهٍ واحد، وخادمتان. علماً أن المنـــزل لم يكن كبيراً جداً.

كانـــت غرفة نوم ماكس تُشرف على مركز أريكويبا الأبيض البرّاق بهندسته المعمارية التي تعود إلى زمن الاستعمار. فوفقاً للقانون، يجب طلاء كـــل المـــباني باللون الأبيض. وعندما تُشرق الشمس، تتلألأ المدينة في الواقـــع بنور رائع يُعمي الأبصار. ويترك غروب الشمس بألوان السماء البرتقالية والقرنفلية قبل حلول الظلام انطباعاً في النفوس لا يُمحى.

وبوجود جبل إل ميستي البركاني المدهش في خلفية المشهد إزاء سماء زرقاء ساطعة لا تخلو من السحُب، كانت أريكويبا إحدى المدن الأكثر لفتاً للأنظار التي رآها ماكس يوماً. وكما كانت حاله في إسبانيا، فقد شعر بصلة عميقة بهذا البلد وشعبه، وبقدر كبير من الراحة.

لم يكن قد تخطى فقدان ليزي تماماً، ولكنه خرج من حالة الركود العاطفي عندما التقى كارولاينا العاطفية على نحو لا يصدَّق وذات الجمال غير العادي، وكانت في الثالثة والعشرين من عمرها، وتقيم على بُعد خمس دقائق من منزل رودريغيز سَيراً على الأقدام. فكارولاينا هي نسيبة خافيير وألبرتو والابنة الوحيدة لشقيق والدهما الذي أنجب اثني عشر ابناً قبل ولادتها.

وبالرغم من سنّها، لم تنفرد كارولاينا يوماً بشاب. كان والدها أستاذاً في الجامعة ويؤلف كتاباً مدرسياً عن الرياضيات، والتقى ماكس في أثناء حفلة أُقيمت في منزل شقيقته للترحيب بزائرها. لقد أثار اهتمامَه كونُ ماكس عالماً ماهراً في الرياضيات، وتدبّر له مهمة تدريس علم الجبر في إحدى المدارس الثانوية المحلية.

وبسروره بمهارات ماكس التعليمية، اعتبر الأستاذ أن ماكس هو الشخص المثالي لترجمة كتابه المدرسي إلى الإنكليزية. وهكذا، وجد ماكس سبيلاً لدخول منزل كارولاينا والتقرّب منها في النهاية.

لقد أثار تقرّبه من كارولاينا رَيبة أشقائها الذين كانوا على ثقة أن هذا الأمر لا يمكن أن يكون جيداً، ولكن والدهم كان مأخوذاً بقدرة ماكس لدرجة أنه تجاهل مخاوفهم، لا بل وافق أيضاً على اقتراح كارولاينا اصطحاب ماكس في زيارة إلى الأماكن الهامة على أن يرافقهما أحد أشقائها.

وبعد رحلتَين مماثلتين، طلبت كارولاينا من ماكس مرافقتها لمشاهدة النسخة الجديدة لفيلم سينمائي بعنوان "ماش" لروبرت ألتمان. ولم يكن الأشقاء متاحين لمرافقتهما، ولكن والد كارولاينا منح موافقته. لقد بدا قيام الثنائي الشاب بمشاهدة فيلم معاً أمراً بريئاً، ونزولاً عند اقتراح كارولاينا، اشترى ماكس تذكرتَين لحجز *بوتاكا* في مسرح كولونيال بالاس الموسيقي.

لم يكن ماكس يعلم أن *البوتاكا* هي غرفة خاصة مع ستائر تفصلهما تماماً عن الموجودين في المسرح. وكان في استطاعة كارولاينا وماكس النظر إلى الشاشة إذا أرادا ذلك من دون أن يكون في استطاعة أحد رؤيتهما.

ولم يتذكر ماكس أي مشهد من الفيلم السينمائي.

لقد سعت كارولاينا في هاتين الساعتين إلى الاستكشاف واستيعاب ما مُنعت من مشاهدته واختباره في السنوات الثلاث والعشرين من حياتها.

بعد ذلك، غمرت كارولاينا ماكس بعاطفتها القوية، ولم يستطع في أثناء إقامته في أريكويبا لمدة ثمانية أسابيع إبعاد تفكيره عن الجمال البيروفي. ووضعته هذه العلاقة الغرامية الغامرة في حالة من الغِبطة، ولكن بترفّع اعتبره مُربِكاً ومحرِّراً.

* * *

بهذه الحالة الغريبة من الترفع، تقرّب منه رولف آينس، وهو أحد المشاركين في *مشروع الصداقة*، وطلب من ماكس مرافقته إلى مجاهل الدَّغل البوليفي بحثاً عن الجاغوار. فرولف هولندي في سنّ السادسة والعشرين، وقد أتمّ خدمته العسكرية في هولندا، وكان الفرد الأكبر سنّاً في مشروع الفريق، طويلاً ونحيفاً، يزيد طوله عن ستّ أقدام، يضع

نظارة، يرتدي ثياباً أنيقة، وكان شعره بنـيّ اللون قصيراً ومُهَندَماً على الـدوام ممـا يُضفي عليه بعض الفرادة، وذلك لأن الشعر الطويل كان مألوفاً في ذلك الوقت.

كـان رولـف طالباً في عامه الأخير في الهندسة المدنية في جامعة فاندربيلت في تنيسي، وثبتت فائدة معرفته بالشؤون الهندسية في تصميم المـدارس والمنازل التي ساعدت مجموعة المشروع على بنائها في مختلف أنحاء أريكويبا في صيف ذلك العام 1970.

لقد هزّ زلزال في ذلك العام شمال البيرو، وكان رولف قد حصل علـى إجـازة لمدة أسبوعين للمساعدة على رفع الأنقاض هناك. كان مُحـبّاً للمرح، وذا طَبع متهوّر، وكان أحد أهدافه الشخصية في تلك الـرحلة صيد الجاغوار بعد إنهاء مشروع الصداقة. لذلك، كان يبحث عن رفيق يتحدث الإسبانية بسبب عدم إجادته هذه اللغة البتة حتى بعد أسابيع من التفاعل مع السكان المحليين.

لقـد اعتبر ماكس مرشحاً ممتازاً لمرافقته، وكان قد حدّد مكانين محتمَلين للصيد، أحدهما مدينة إيكيتوس البيروفية في الأمازون، والآخر منطقة يانغاس بالقرب من بوليفيا.

"يا ماكس، هل فكرتَ يوماً في صيد الجاغوار في أدغال البيرو أو بوليفـيا؟". سـأل رولف ماكس في أثناء تناولهما البيسكو سورز في مـشرب المركـز الـثقافي البيروفي - الأميركي الشمالي وسط مدينة أريكويبا.

"لا يمكـنني قـول ذلك". أجاب ماكس. "لم أحمل أبداً بندقية، ولكنني أحب زيارة دَغل حقيقي. فيمَ تفكر؟".

"لقـد درسـتُ الموضوع". قال رولف بحماسة: "قمت بزيارة القنـصلية البوليفية، وأعلموني بوجود مكان في الدَّغل يدعى كاراناڤي

حـيث يمكـنك استخدام مرشدين وصيد الجاغوار. الأمر غير مرتفع الـتكلفة، لـذلك سأغطي نفقات الصيد إذا كنت راغباً في الانضمام إليّ".

وأضاف: "تعرف أن لغتي الإسبانية ليست جيدة، لذلك سيكون من الجيد أن ترافقني كمترجم لي، وسنمضي وقتاً رائعاً معاً بالطبع".

"أدخلني في حسابك". أجاب ماكس باندفاع. "يبدو الأمر مثيراً للحماسـة". وشـربا نخب التصديق على التزامهما من كوبَي بيسكو سـورز. "ولكـنني أملـك مئة دولار فقط لكل الرحلة التي ستدوم أسبوعَين، لذلك سيكون سفراً منخفض الميزانية". أضاف ماكس.

"باسـتثناء المال الذي ادّخرته لصيد الجاغوار، أعاني من ضيق في الميزانية أيضاً". اعترف رولف. "مع ذلك، لا تقلق. لقد خططت لكل شـيء، حـتى إنه يمكننا أيضاً زيارة كوزكو، وماتشو بيتشو، وأماكن رائعة أخرى".

"ممـتاز". أجـاب ماكس، وأشرق وجهه. "كنت آمل في زيارة ماتشو بيتشو، وبحيرة تيتيكاكا، وتياهواناكو إذا أمكن".

"كلـها ضمن الأماكن التي ستجري زيارتها". أكد رولف بينما كان يبتلع ما تبقى من شرابه.

* * *

بعد يومين، غادر الثنائي بالقطار إلى بونو. وبعد تمضية يوم هناك، تابعا رحلتهما إلى كوباكابانا.

كانـت *كوليكتـيڤو* وسـيلة الـنقل الأقل تكلفة من بونو إلى كوباكابانا، وهي حافلات صغيرة من طراز فولكسفاغن تتسع كل منها لاثني عشر راكباً. ومع ذلك، كانت هناك تسع حافلات مليئة بالكامل عندما وصل رولف وماكس إلى محطة الانطلاق.

فقدّر أحد السائقين حجمهما، وأبلغهما أنه سيؤمّن لهما مكاناً في حافلته. وشرع بالتحدث بلغة الكويشوا بسرعة إلى الركاب الجالسين، فوقف فجأةً هنديان، وخرجا من الحافلة، وصعدا على سطحها لقاء أُجرة سفر منخفضة على الأرجح.

كان الطريق غير معبَّد، ومغطى بالغبار، ومليئاً بالحُفر. كانت فعلاً رحلة متهوّرة تطلبت من الركاب الذين دفعوا نصف الأُجرة التشبّث بحياقم العزيزة.

وركاب الحافلة قادمون من قرى صغيرة محيطة ببحيرة تيتيكاكا حيث توجد منازل السكان القدماء، أي الإينكا الأصليين الذين حكموا الأنديز وقسماً كبيراً من أميركا الجنوبية – إن لم تكن كلها – طوال عقود من الزمن.

لم يتكلموا الإسبانية أبداً، بل لغتَي الأيمارا والكويشوا الأصليتَين. كان العديد منهم متجهين لحضور المهرجان الموسيقي الذي يقام لمدة يومين في شهر آب/أغسطس من كل عام، والعزف على الآلات الموسيقية نفسها، وإنشاد الأغاني نفسها، وتكرار خطوات الرقص نفسها على غرار أجداد أجدادهم، لا بل أيضاً على غرار أسلافهم في الماضي البعيد.

يعتقد الهنود بالمكانة المبجّلة للحياة. فهم لا يميّزون بين الأشياء المتحركة وغير المتحركة. بالنسبة إليهم، هناك حياة في كل شيء، وهم يسعون إلى إلحاق الهزيمة بالزمن عبر طقوس إعادة إحياء موسيقاهم المبجّلة. ويسعون أيضاً إلى الإسراف في الرقص والأغاني وتناول أوراق الكوكا.

كان جميع من في الحافلة ثملين أو مبتهجين حتى قبل أن يجلسوا. باستثناء السائق، كما أمل ماكس ورولف.

* * *

لدى عبور الحافلة الحدود من البيرو إلى بوليفيا، طلب ماكس من السائق التوقف كي يتمكنا من خَتم جوازَي سفرهما. فأبلغهما السائق أن حراس الحدود لا يتحققون من جوازات السفر.

"يعرفون أن المئات من شعبنا سيعبرون ويعودون بعد انتهاء المهرجان غداً"، قال شارحاً، "هم يعرفوننا ويعرفون أن كل شيء بخير".

لقد بدا الأمر منطقياً بالنسبة إلى ماكس ورولف، لذلك لم يسألاه شيئاً.

وبعد ساعتين، توقفت الحافلة على شاطئ بحيرة تيتيكاكا في مدينة كوباكابانا. كان الليل قد بدأ يهبط وهناك حشود من الناس على الشاطئ وفي الساحات العامة، وكانت هناك أغانٍ ورقصات تُؤدّى في كل مكان. لقد صدر من آلات الناي والآلات الوترية ذبذبات غير عادية جعلت الجميع يرغبون في الرقص ليس بطريقة جامحة على غرار كرنفال ريو، بل بخطى تنمّ عن فَيض من المشاعر العميقة، كنوع من الحزن الصوفي الذي يتضمن جوهر الفرح الذي يبدو متجسّداً بهؤلاء الأشخاص الذين يشعرون بالفخر بالرغم من إخضاعهم.

فالرجال والنساء متدثّرون بدثارات وعباءات ذات ألوان برّاقة صنعوها من صوف القرمل والأغنام، وتعتمر كل النساء قبّعات من أشكال وأحجام مختلفة. وتُعرَف كل بلدة صغيرة بفرادة قبّعاقا، يرمز الشكل إلى هوية الإرث الخاص بالمكان، والغاية من اعتماد هذا الشكل.

تنقّل ماكس ورولف في المكان الذي يسوده جوّ مشحون إلى حدٍّ كبير بالموسيقى وحيوية الناس كما لو أنهما في حُلم. لقد تناولا ذُرة مشوية، ولحماً، ومآكل لذيذة أخرى من البائعين، وشعرا أخيراً بالحاجة إلى النوم.

وبما أن كل الفنادق مليئة، سمح لهما مزارع لطيف بالنوم في الحظيرة مع ماعز القرمل، جاعلَين من التّبن سريراً لهما. ورمى لهما زوجاً من البطانيات الجميلة متعددة الألوان.

ظنّ رولف أن هاتَين البطانيّتين تصلحان كرداءي بونشو رائعَين، فدفعا للمزارع ثمنهما مبلغاً من المال، عالمَين أنهما سيكونان بحاجة إلى ملابس أكثر دفئاً لرحلتهما الطويلة والشاقة عبر الممرات الجبلية قبل النزول إلى الدَّغل.

في اليوم التالي، عاد ماكس ورولف إلى وسط البلدة، مرتديَين رداءَي البونشو الجديدَين الملوّنين. واشتريا قبّعتَين من القش مصنوعتَين وفقاً للطراز المكسيكي ليكملا الزّيّ ويبدوَا مثيرَين للسخرية تماماً. كان في الإمكان تمييزهما بسهولة عن الآخرين.

وطافا المكان وصولاً إلى الشاطئ حيث التقيا بفتاتَين جذّابتَين في السابعة عشرة من عمرهما قدمتا مع عائلتَيهما وأصدقائهما للمشاركة في المهرجان الموسيقي. كانتا تعيشان في لاباز، وتمكّنتا من تدبّر أمر عودتهما في حافلة المدرسة.

وفي أثناء المحادثة، توددت الفتاتان إلى هذَين الأجنبيَّين اللذين يمثّلان العوالم التي لا يمكن لهما حتى أن تتخيّلاها. فدعتا رولف وماكس للانضمام إليهما على متن الحافلة في رحلة العودة إلى لاباز، فاغتنما الفرصة، عالمَين أن رفقة الفتاتَين قد تجعل الرحلة أكثر إمتاعاً.

في صباح اليوم التالي، وبعد وقت قصير على شروق الشمس، وبعد تمضية ليلة أخرى مع ماعز القرمل، صعد رولف وماكس على متن حافلة المدرسة. لم تكن الرحلة زاخرة بالأحداث بالرغم من وجود عشرين نقطة تفتيش على الأقل على امتداد الطريق إلى لاباز. كان الجنود عند الحواجز يعرفون الحافلة والسائق، ويشيرون إليه بالمرور.

ووصلا إلى لاباز في وقت متأخر من بعد الظهر، وودّعا الفتاتَين وعائلتَيهما شاكرَين، وقررا التوقف عند المقهى الخارجي بالقرب من محطة الحافلات. وكونه هولندياً، كان رولف مولَعاً بشراب الشعير بصفة خاصة، وشراب الشعير البوليفي شراب ممتاز ابتكره الألمان الذين استُقدموا إلى بوليفيا لإنشاء مصانع شراب الشعير بصفة خاصة.

كان شراب الشعير المحلي مميَّز بسبب عذوبة مياه جبال الأنديز، ويُقدَّم في زجاجات يبلغ حجمها ضعف حجم نظيراتها الأميركية.

"إنه أفضل شراب شعير تناولته يوماً". أكد ماكس. "حتى إنه أفضل من شراب/ريكوبينو البيروفية". وطلب ورولف المزيد من الشراب الملائم لأنواع الطعام اللذيذ في المشرب.

"أظن أنك مُحق". قال رولف في أثناء إنزال كوبه.

فجأةً، قفز ماكس عن الطاولة.

"آه، يا الله". قال. "إنه أرشي بنسن".

"أرشي، أرشي، أنا هنا". صاح ماكس بينما كان يومئ بعشوائية للفت انتباه أرشي. "ماذا تفعل هنا؟". سأل في أثناء توجّه صديقه إلى الطاولة وبجانبه شابة جذّابة.

وجرى التعريف، وشرح أرشي.

"لا أعتقد أنك قابلتَ زوجتي من قَبل، إليزابيت، أليس كذلك؟ لقد تزوّجنا في حزيران/يونيو بعد انتهاء الصفوف الدراسية مباشرةً، ونحن هنا في أميركا الجنوبية في مهمة لصالح الأمم المتحدة. سنُغفل الفصل الدراسي في الخريف لنكمل مشروعنا. ولكن ماذا تفعل هنا؟". سأل أرشي.

"نزور المكان ليس إلا، ولكن رولف يريد الذهاب إلى يانغاس لصيد الجاغوار". وابتسم ماكس بينما كان يتكلم.

"حسناً، لقد عدنا لتوّنا من يانغاس". قال أرشي. "إن أفضل طريقة للوصول إلى هناك هي عبر القفز إلى متن ما يدعونه مركب *الموز*. إنها شاحنة تأتي من الدَّغل محمَّلة بالموز، وعندما تُفرغ حمولتها تعود فارغة في اليوم التالي، فيقفز السكان المحليون إلى متنها. ويمكنكما الذهاب إلى آخر الخط حيث توجد بلدة كارانافي، وذلك لقاء بنس واحد لكل ميل. من هناك، أنا على ثقة أنه يمكنكما الحصول على مرشدين لصيد الجاغوار".

وكم كانت دهشة ماكس كبيرة عندما سلّمه أرشي مفتاح غرفة فندق.

"لقد دفعنا أجر ليلتَين إضافيّتين. لماذا لا تنزلان في الغرفة إذا كنتما بحاجة إلى مكان للإقامة فيه؟".

فسُرّ الثنائي بالأمر. لقد عثرا مجدداً على مسكن بأفضل سعر ممكن؛ في هذه الحالة، مسكن مجّاني.

وبما أن بوليفيا بلد العديد من الثورات، وتنص القوانين بوضوح على ضرورة تسجيل أسماء كل الأجانب، يتّبع كل فندق سياسة حازمة بالاطلاع على جواز سفر كل أجنبي وتدوين معلومات عن كل زائر. وهكذا، دخل رولف وماكس الفندق المتواضع بتكتّم واستقرّا في غرفتهما المجانية.

في اليوم التالي، أعلن كل العاملين في وسائل الإعلام الإضراب، خرجوا إلى الشوارع وأغلقوا كل صحيفة وإذاعة ومحطة تلفازية.

وانطلق ماكس ورولف في مغامرتهما لصيد الجاغوار، قلقين، وسارا حتى آخر محطة للوقود على الطريق الممتد من لاباز إلى يانغاس، وصعدا على متن مركب *الموز* حيث جلسا بشكل متراصّ بجانب أربعة عشر هندياً من السكان الأصليين، بمن فيهم ثلاث أمهات يُرضعنَ

صغارهنّ الذين تتراوح أعمارهم بين أشهر قليلة وخمسة أعوام تقريباً. فالنساء البوليفيات يعتقدنَ أن أفضل طريقة لتحديد النَّسل هي إرضاع صغارهنّ أطول مدة ممكنة، لذلك لم تكن رؤية صغير في السادسة من عمره يرضع من صدر والدته أمراً غير عادي.

كان الهنود قد اصطحبوا معهم المأكل والمشرب، فتشاطروها مع رولف وماكس، متفحّصين بعناية رداءَيهما الشبيهَين بملابس السكان الأصليين. كانت هناك نقاط تفتيش كل عشرين كيلومتراً تقريباً، ومع ذلك فإن مركب الموز لم يُبطئ أبداً. كان السائق خوسيه معروفاً من قبل الجنود، وبدا أنهم يعتقدون أن لا سبب يدعوهم إلى تفتيش الشاحنة.

كانت الرحلة على متن الشاحنة إحدى الرحلات الأكثر إثارة التي قام بها رولف وماكس يوماً، وكان في الإمكان أن تكون الأخيرة ببساطة. فخوسيه يعرف كل بوصة من الطريق، ولكن المنحدرات شبه العمودية، والقنوات، والمنعطفات، قاسية جداً لدرجة أن أي شخص عاقل لا يحاول عبورها.

وفي الساعات الست التالية، قفز كل الركاب الآخرين من الشاحنة، وقصدوا منازلهم وقراهم الواقعة داخل جوانب الجبال التي اجتازوها.

فدعا خوسيه ماكس ورولف للانضمام إليه في حجرة السائق، طارحاً عليهما أسئلة حول أميركا، ومشاطراً إيّاهما ما يعرفه عن بلدته كارانافي وحبه لها. وعندما وصلوا إلى نقطة التفتيش العسكرية الأخيرة قبل دخول كارانافي، تمكن الجندي الشاب قَيد الخدمة من ملاحظة أن ماكس ورولف راكبان غير عاديَّين. فحدّق إليهما مرتاباً، وطلب رؤية بطاقة هويّة كل منهما. فسلّم ماكس جوازَي السفر إلى الجنديّ المرتَبك

الذي لم يسبق له أن رأى أجانبَ - أو حتى جواز سفر - في هذا المركز النائي.

"إنها بطاقات هوية دولية، كتلك التي تستخدمونها هنا في بوليفيا، ولكنها أفضل". شرح ماكس.

ونظر الجندي إلى خوسيه الذي ابتسم وعبّر عن رأيه بوضوح.

"هذان الفتيان صالحان". قال السائق: "لقد رافقاني طوال الرحلة. لن يتسببا بأي مشكلة، يا خورخيه. لا بأس، دعهما يمرّان".

لقد ثبت أن الجندي متزوّج بنسيبة والدَي خوسيه. وهكذا، عبر رولف وماكس نقاط التفتيش التسع والثلاثين، ونقطة التفتيش الأخيرة، داخل بوليفيا من دون أن يتم إيقافهما أو استجوابهما، متحدّيَين كل الاحتياطات الأمنية التي تتخذها الحكومة العسكرية البوليفية.

وأكمل مركب الموز طريقه إلى داخل بلدة كاراناڤي، وأنزل خوسيه ماكس ورولف عند المشرب الأقرب، وتوجه إلى منزله حيث زوجته وأولاده. وفي أثناء استمتاع المغامرَين الشابَين بالشراب والطعام، تبادلا أطراف الحديث مع مالك المطعم الذي وعد بتدبّر بندقيّتَي صيد لهما وإرشادهما إلى أماكن وجود الجاغوار.

بعد انتهاء الحديث، أسندا ظهرَيهما إلى كرسيّيهما وراقبا محيطهما.

فبالرغم من كونهما وسط الدَّغل في أميركا الجنوبية، شعرا كما لو أنهما في الفيلم السينمائي جون واين وايلد وست. كانت هناك أكواخ خشبية وضيعة على جانبَي الطريق الرئيس الجافّ والمكسوّ بالغبار، إضافةً إلى ممر يرتفع ثماني أقدام تقريباً عن الشارع، ويصلح كرصيف. وعلماً أن الطريق يتحول إلى نهر في موسم المطر، لذلك أُنشئت معظم المباني على ركائز درءاً للفيضانات.

وعندما أنهى كل من ماكس ورولف كوب الشراب الثالث، اقترب منهما جندي بلباسه الرسمي، وألقى التحية عليهما، وتحدّث إليهما بالإسبانية.

"*إل ديتشيه* يريد رؤيتكما. هل يمكنكما القدوم معي؟". قال الرجل.

لم يكن ماكس يملك أي فكرة عن الشخص الذي يتحدث عنه، وعندما أصرّ على الجندي مستوضحاً، أعلمه هذا الأخير أن *إل ديتشيه* يوازي المدير، ورئيس البلدية، وحاكم المنطقة، في آن معاً. فتكوّن لديه انطباع أنه لا يُفترض بأحد العبث مع *إل ديتشيه*، لذلك كان عليه وعلى رولف إنهاء كوبَي الشراب ومرافقة الرجل إلى كوخه الخشبي الصغير الواقع على الجانب الآخر من الشارع، والذي يُستخدم كمكاتب حكومية وسجن.

كان *إل ديتشيه* رجلاً ممتلئ الجسم، مَهيباً. وأول ما طلبه هو رؤية جوازَي سفرهما اللذين تفحّصهما بعناية. واستجوب ماكس بعد ذلك بهدوء ومن دون انفعال. وعندما قيل له إنهما موجودان هناك لصيد الجاغوار، ابتسم وقال لهما إن الجندي سيقوم باصطحابهما إلى الفندق الوحيد في البلدة، وإنه سيحتفظ بجوازَي سفرهما طالما بقيا في منطقة نفوذه.

مدركَين تضاؤل مدّخراتهما المالية، قال رولف لماكس إنه يُفترض إخبار *إل ديتشيه* أنهما ليسا مستعدَّين للذهاب إلى الفندق بعد لأنهما يرغبان في التعرّف إلى البلدة أولاً. في الواقع، كانا يخططان للتخييم بجانب النهر وتجنّب دفع فاتورة الفندق، وهكذا كان.

لسوء الحظ، وضع ماكس ورولف رداءيهما على كثيب ناجم عن حفر النمل، وعندما استيقظ النمل في صباح اليوم التالي، استيقظا أيضاً وكانا يعانيان من عدة قضمات كبيرة.

كان الصباح حاراً بضراوة. وفي أثناء عودتهما إلى البلدة لتناول الغداء ولقاء مرشدهما إلى الدَّغل ومالك المطعم، التفت رولف إلى ماكس واعترف أنه فقد حماسته لرحلة الصيد بسبب الحرّ والقضمات.

"كان يجب علينا رؤية هذا الدَّغل غير العادي، إضافةً إلى الكثير من الطيور والحيوانات النادرة". وأضاف: "لقد كان هذا هدفي الرئيس حقاً. لم يكن صيد الجاغوار من أولى اهتماماتي في الواقع، وميزانيتنا محدودة جداً. ربما يُفترض بنا العودة إلى لاباز فحسب، وتمضية مزيد من الوقت في زيارة كوزكو وماتشوبيتشو".

"هو الحل المناسب لي أيضاً". أجاب ماكس.

وهكذا، عادا إلى البلدة مُعتمِرَين قبّعتَيهما المكسيكيّتين، ومتأبّطَين رداءَي البونشو.

فطلبا طبقَين أميركيين يحتويان على قطع لحم بقري صغيرة مقدَّمة مع أرزّ، وموز مقليّ، وبيض، ونوع من القرنيات البوليفية. بالطبع، أُرفق هذا الطبق بالعديد من أكواب شراب الشعير، وطلبا قهوة بوليفية دسمة بعد وجبة تناولاها رويداً رويداً. وبينما كادا ينهيان كوبيهما الأولين، توقفت سيارة جيب بسرعة أمام المطعم، مُحدثةً سحابة كبيرة من الغبار.

وخرج منها جندي بلباسه الرسمي، ودخل، وتوجّه نحو طاولتهما.

"يبدو أن هناك بعض الشوائب في أوراقكما الثبوتية". قال بفظاظة: "يريد الملازم أول التحدث إليكما في الثكنة العسكرية".

فنظر ماكس إلى رولف للتحقق مما يُفترض القيام به أو قوله. وابتسم رولف ودعا النادل إلى القدوم وسكب كوب ثانٍ من القهوة له.

وطلب ماكس كوباً ثانياً من القهوة، غيرَ عالمٍ بما يتوجب القيام به. والتفت إلى الجندي.

"دعنا ننهي وجبتنا فقط، وسنذهب إلى هناك".

فغادر الرجل ذو اللباس الرسمي، وطلب رولف بعد عشر دقائق كوباً آخر من القهوة. وحذا ماكس حذوه.

"يا رولف، ماذا سنفعل؟". سأل ماكس بعصبية وتابع: "لا أستطيع تناول كوب رابع من القهوة، وأعتقد أن صبر أولئك الجنود في سيارة الجيب قد نفد بسبب انتظارنا".

"لا تقلق". أجاب رولف بثقة وقال: "سينتظرون قدر ما يكون عليهم الانتظار. كنت في القوات المسلحة في هولندا، وهذا أمر مسلٍّ بالنسبة إليهم. قد يكون الملازم أول راغباً فقط في التحقق من مخططاتنا بما أننا لم نلازم الفندق ليل أمس".

وهكذا، دفعا فاتورتهما على مَهل وتوجها إلى الجهة الأمامية من المطعم حيث كان لا يزال أربعة جنود بلباسهم الرسمي جالسين في سيارة الجيب وبجانبهم بنادق ثقيلة.

كانت الشمس لا تزال في كبد السماء، وكان الطقس حاراً. فحدّق رولف إلى الطريق الوعر المكسوّ بالغبار، وتبع صديقه.

"ماكس، قل لهم إننا بحاجة إلى السير بعد هذه الوجبة الكبيرة. في استطاعتهم أن يتبعونا بسيارة الجيب، ولكنني أعلم أننا سنشعر بحال أفضل إذا سرنا مسافة ميلَين وصولاً إلى الثكنة من دون أن نُضطر إلى الجلوس بشكل متراصّ في ذلك الجيب غير المريح".

ونقل رغبة صديقه إلى القائد الذي كان ينتظر بصبر، وعندئذٍ، أدرك ماكس أن الأمر لم يعُد مجرّد لعبة.

فأصدر القائد أمراً، وقفز الجنود الأربعة خارج الجيب، وصوّبوا بنادقهم باتجاه رولف وماكس.

"ستدخلان الجيب، وستدخلانه *الآن*". قال لهما القائد بصوت مرتفع وجازم من دون أن يكون في إمكانهما إبداء أي اعتراض. فشعر

ماكس بالخوف، ولكن رولف استمر في الاعتقاد كما يبدو أنها دُعابة كبيرة.

"استرخِ". قال: "هذا ما دُرِّبوا على القيام به. لن يطلق علينا أحد النار في الواقع". وابتسم، وصعدا إلى الجيب.

لم يتطلبهم الأمر سوى خمس دقائق للوصول إلى الثكنة العسكرية، وهو المركز الأمامي الأكبر حجماً في يانغاس. كان هناك أكثر من أربعمئة رجل، ولكنهم بدوا أقل عدداً في ذلك الوقت بالذات.

وعندما رحّب بهما ملازم أول شاب لدى وصولهما، سأله ماكس عن بقية الرجال. فشرح له الملازم أوّل أنهم يتعقّبون آخر أفراد ثوار تشي غيفارا. وكانت كل المنطقة قد أُغلقت بوجه الأجانب يوم قفز ماكس ورولف إلى متن مركب الموز، وهو الأمر الذي لم يعرفا به بفضل إضراب وسائل الإعلام. ولدى سماع هذه الأنباء، تبادل ماكس ورولف نظرات قلقة من دون أن يقولا أي شيء.

كان الملازم أوّل شاباً أنيق المظهر وعفوياً. لقد اعتذر عملياً بسبب اصطحابهما إلى هناك في أثناء وجود كل كبار الضباط مع الجنرال في حملة البحث عن المتمردين. وقال إنه بالرغم من كل شيء سيكون لهم شرف القيام بهذه الاعتقالات الأخيرة.

وشرح أن لا وجود لسجن رسمي لديهم، لذلك سيضع ماكس ورولف تحت الحراسة في مساكن الضباط حيث سيمضيان الليل. وأعلمهما كذلك أنهما سيتناولان العشاء معه ومع زوجة الجنرال في ذلك المساء بما أنها الطريقة الأكثر مُلاءَمةً لمراقبتهما.

وبسبب قبّعتيهما المكسيكيتين وغطاءيهما المبهرَجَين، بدا كما لو أنه يصدّق ما قالاه عن نفسيهما في الواقع، إنهما سائحان لم يسلكا

الطريق المعهود، وتمكنا، عن غير عَمد، من تجنّب ثلاث وتسعين نقطة تفتيش منفصلة.

ولكنها قصة يصعب تصديقها، وبما أن كبار الضباط كافة موجودون خارج الموقع، كان خياره الوحيد أن يبعث برسالة بشأنهما إلى القطاع الخامس، القطاع الأمني الأعلى في مقر قيادة القوات البوليفية المركزية المسلحة في لاباز. وطلب تلقّي الأوامر بشأنهما.

قال إنه سيُعلمهما بمصيرهما في أثناء العشاء.

* * *

على جانب الطريق، لاحظ رولف وجود بعض ملاعب التنس الجميلة المخصّصة للضباط كما يبدو. وطلب من ماكس أن يسأل الملازم أول عما إذا كان في الإمكان لعب التنس في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم. فمنح الملازم موافقته لأنه لم يجد سبباً للاعتراض.

وبالنتيجة، وبعد فترة قصيرة، كان هناك حارسان يتبعان كرات التنس في حين أبقى الآخرون أسلحتهم مصوَّبة نحو ماكس ورولف لضمان عدم حدوث محاولة للفرار.

في وقت متأخر من مساء ذلك اليوم، وفي أثناء تناولهما إحدى الوجبات اللذيذة التي لم يسبق لهما أن تناولا مثلها، وبعد أن تبادلا أطراف حديث مشوّق مع زوجة الجنرال، أرشدهما الملازم أول إلى المكان الذي سيمكثان فيه.

"يشك القطاع الخامس في صحّة روايتكما". أوضح متابعاً: "لقد طلبا مني أن أرسلكما إلى لاباز صباح يوم غد ليتمكنوا هناك من استجوابكما بالطريقة الملائمة. ما دام يتم التحقق من روايتكما، فلا شيء يدعوكما إلى القلق".

"حسناً، لسنا جاسوسَين بالتأكيد". أكد ماكس قلِقاً.

"أعرف ذلك". اعترف الملازم: "سأرسل راوول معكما كمرافق لكما على متن حافلة الساعة السادسة صباحاً المتوجهة إلى لاباز. ستكون الرحلة مجانية، ولكن يتعيّن عليكما شراء الطعام على حسابكما".

ونهض عن كرسيّه.

"لقد استمتعتُ بتناول العشاء معكما، وآمل أن يسير كل شيء بشكل جيد في لاباز". قال الملازم.

وفي أثناء مغادرتهما، رمق رولف ماكس بنظرة ساخرة.

"واو، إن التكلفة أقل بدولارَين مما دفعناه للوصول إلى هنا". علّق قائلاً: "لا يمكنك الحصول دائماً على رحلة مجانية!".

كان ماكس أقل ثقةً بكون هذه الرحلة مجانية، ولكنه ابتسم وأبقى معنوياته مرتفعة.

ومع ذلك، صعب عليه النوم.

* * *

ثبت أن الرحلة على متن الحافلة وفّرت لهما راحة أكبر مما كانت عليه حالهما على متن مركب الموز، وتوقفا في بلدة صغيرة، وتناولا الغداء. لقد مُنحا فرصة الاختيار من بين أسماك الترويت الصغيرة التي تسبح في بِرك طبيعية بين الصخور على امتداد النهر، وشُويت بعد ذلك. كان مذاقها رائعاً، وشعر الجندي راوول بسعادة غامرة بما أن تعيينه كمرافق لهما منحه فرصة الحصول على إجازة لمدة ثلاثة أيام يمضيها في لاباز حيث يكون في استطاعته زيارة خطيبته.

لقد سار كل شيء بشكل جيد حتى وصلت الحافلة إلى لاباز، وقام راوول بتعريفهما إلى خوان، مرافقهما الجديد إلى القطاع الخامس. كان خوان لائقاً، ولكن من الواضح أنه لم يكن يصدّق قصة القبّعتين

المكسيكيّتين، والغطاءين الملوّنين البرّاقين. ورافق ماكس ورولف إلى سيارة جيب عسكرية فيها سائق وجندي مسلّح.

عند الرابعة من بعد الظهر، وصل الغريبان إلى القطاع الخامس. فأخرج رولف آلة التصوير الصغيرة من طراز مينولتا، وبدأ بالتقاط الصور، ولكن جندياً أخذها من بين يدَيه وأدخلهما إلى غرفة كبيرة قبل أن يتمكنا من الاعتراض. وقيل لهما إن الجنرال أناهولا سيلتقيهما ما إن يفرغ من عمله.

عند التاسعة مساءً، شعرا بالجوع. فسألا خوان إذا كان في إمكانهما تناول الطعام، وتفاجأا عندما أمر الجندي بمرافقتهما إلى نادي الضباط حيث قال لهما إن في استطاعتهما طلب وجبتي طعام، علماً أنهما سيدفعان ثمنهما.

بعد نزهة قصيرة سيراً على الأقدام من قسم الاعتقال، توقفا أمام مبنى عسكري يصعب تصنيفه. وعندما دخلا، أذهلت أناقةُ نادي الضباط كلاً من ماكس ورولف. كان يشبه نادي ضباط إنكليزي بطاولاته الخشبية قاتمة اللون، وزخرفاته التي تنمّ عن حُسن ذَوق، وتوجد فيه ثماني طاولات فقط، ولا عيب في الخدمة مع وجود أربعة ندّل. كان متناولو العشاء يشغلون ثلاث طاولات، ولكن أيّاً منهم لم يجد أنه من الحكمة الدخول في أي محادثات في الظروف الراهنة.

في أثناء تناول الوجبة، استُبدل خوان بمرافق جديد، خورخيه. وعند انتهاء الوجبة، كان رولف لا يزال يعتقد أن الأمر ليس سوى ممارسة عسكرية مرِحة، واقترح على ماكس أن يشرح أنهما "ضيوف" الجنرال أناهولا، وأن هذا الأخير سيرفع عنهما الحراسة المشدَّدة. وشرح ماكس الأمر بالرغم من عدم اقتناعه بجدوى ذلك وقدرته على الحكم

علـى واقـع الأمور بشكل أفضل، فابتسم النادل واستمتعا بوجبتيهما المجانيتين قبل أن يعيدهما خورخيه إلى قسم الاعتقال.

كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة، ولم يظهر الجنرال بعد.

* * *

شاعراً بالسأم والتعب، حلّ الاضطراب والقلق على مشاعر رولف وقضيا على مرَحه المتواصل الذي يعبّر عنه بعبارة *هذه هي الحياة*. وأصبحت لكنته الهولندية أقل وضوحاً وأصعب على الفهم.

"يا ماكس، اسأل خورخيه إذا كان في استطاعتنا الاتصال بالقنصليتين الهولندية والأميركية والتحقق مما إذا كان في إمكانهما مساعدتنا". قال، وبدا الإجهاد في صوته. "لا نريد تمضية الليلة في السجن. لا بد من وجود مَخرج لذلك".

"يا سنيور، هل نستطيع إجراء مكالمة هاتفية؟". سأل ماكس خورخيه. كان الجندي يجلس وراء مكتب في منطقة الانتظار حيث احتُجزا في الساعات الأخيرة، وهناك هاتف على مرأى منهما.

"دعني أسأل النقيب موراليس، وأتحقق مما إذا كان يُسمح لكما بذلك". أجاب خورخيه.

مُنحت الموافقة بعد خمس دقائق، وكان عند الطرف الآخر من الخط الهاتفي موظف في القنصلية الأميركية.

"ذهب القنصل إلى المنزل منذ ساعات". أبلغ الموظف ماكس: "سيكون وضعك أول أمر أطرحه عليه في الصباح، ولكنني لا أستطيع القيام بأي شيء هذا المساء".

وهكذا، أنهى الموظف المكالمة الهاتفية.

من جهة أخرى، وعندما اتصل رولف بالقنصلية الهولندية، تم تحويله على الفور إلى منزل الدبلوماسي. فتحدّث القنصل الهولندي

إلى كبير الضباط في مركز الاعتقال، النقيب موراليس، وتمكّن من نقل رولف وماكس إلى عُهدة القنصلية الهولندية. وقال أيضاً إنه يتعهد بعدم محاولتهما مغادرة بوليفيا حتى حل قضيّتهما.

في غضون خمس وأربعين دقيقة – قبل منتصف الليل تماماً – وصل القنصل الهولندي بنفسه إلى القطاع الخامس، ووقّع المستندات المطلوبة، وتمّت مواكبة رولف وماكس إلى فندق متواضع حيث بقي جندي من القوات المسلحة البوليفية عند باب غرفتهما لضمان عدم حدوث أي محاولة للفرار.

في صباح اليوم التالي، تمّ إيقاظهما عند السادسة واصطحابهما إلى القطاع الخامس. وبعد فترة انتظار دامت ساعة ونصف، استدعى الجنرال أناهولا ماكس.

دخل ماكس غرفة صغيرة تحتوي على مصباح كهربائي واحد متدلٍّ من السقف؛ كما شاهد في الأفلام السينمائية القديمة التي يحب مشاهدتها. كان مستعداً للأسوأ، لا بل للتعرض للتعذيب أيضاً، ولكن آلة التعذيب الوحيدة لم تكن سوى آلة كاتبة يدوية قديمة موضوعة على طاولة، وتُحدث ضجيجاً مزعجاً كلما تم استخدامها.

كان الجنرال جالساً إلى الآلة الكاتبة، وشرع على الفور بطرح أسئلة عليه.

"كم مضى على كونك عضواً في الأن أل أف؟". سأل.

"ما هي الأن أل أف؟". أجاب ماكس بنيّة صافية.

"*جبهة التحرير الوطنية*". أجاب الجنرال: "أولئك الذين يدعمون تشي غيفارا وحيواناته".

"لا، أنا لست عضواً في تلك المجموعة. حتى اللحظة، لم أكن أعرف بوجودها".

"إذاً، لا بد من أنك عضو في السّي آي أيه". قال الرجل العسكري بفظاظة.

"لا". أجاب ماكس، محاولاً المحافظة على ثبات نبرة صوته: "لا أظن أنني بلغتُ سنّاً كافية تمكّنني من الانضمام إلى السّي آي أيه، ولما انتسبتُ إليها على كل حال".

"ما حزبك السياسي؟". سأل الرجل.

"لا أزال صغير السنّ للمشاركة في انتخابات الولايات المتحدة، ولكنني لو كنت أكبر سنّاً لانتسبتُ إلى الحزب الديموقراطي".

واستمر الاستجواب لمدة سبع ساعات، وتناول كل لحظة أمضاها ماكس ورولف، وتطرّق إلى كل حافز ممكن. وذُكر في التقرير كل شخص؛ بدءاً بالمسؤول البوليفي الأعلى في القنصلية في أريكويبا وانتهاءً بنادل المشرب في كاراناڤي.

بعد انتهاء الساعات السبع، كان الجنرال أناهولا قد أعدّ مستنداً من صفحتين لا يحتوي على أي سطور فارغة بين سطر وآخر، ويتطرق إلى أربع وأربعين نقطة. فقرأ ماكس المستند ووقّع عليه، مؤكداً أن كل ما كُتب هو *اعتراف* صحيح وحقيقي.

ويورد المستند بالتحديد كيفية انسلال ماكس ورولف عبر الأجهزة الأمنية، وكيفية عملهما مع *مشروع الصداقة*، واتخاذهما قراراً باستقلال حافلة *كوليكتيفو* من بونو، ومصادفتهما أرشيبالد بنسن في الشارع في لاباز، وتفاصيل رحلتهما غير المحتمَلة كافة لصيد الجاغوار.

لقد وجد ماكس صعوبة في تصديق ما دُوِّن، ولكنه وقّع المستند وعاد إلى غرفة الانتظار، مرهَقاً، حيث كان رولف ينتظره بقلق حاملاً آلة التصوير الصغيرة من طراز مينولتا. وبدا الاضطراب على وجه

رولف، وشرح قائلاً إن التقاط صور للسكان المحليين والحيوانات في الدَّغل هو الذي أفسد الأمور.

لم يكن ماكس متعاطفاً معه كثيراً؛ لقد أرهقته ساعات الاستجواب السبع. وحان دور رولف، ولكن الاستجواب لم يدُم سوى خمس دقائق، وعاد بابتسامة واسعة على وجهه.

"ماذا حدث؟". سأل ماكس غير مصدِّق.

"حسناً، كما تعلم، إن لغتي الإسبانية غير جيدة. لذلك، سألوني فقط عما إذا كان كل ما قلته صحيحاً. فقلتُ *ماكس لا يكذب أبداً*، ووقّعتُ على اعترافك نفسه".

* * *

بالرغم من التوقيع على "اعترافيهما"، أُبقي ماكس ورولف تحت المراقبة العسكرية طوال سبعة أيام. وسُمح لهما بتمضية لياليهما في الفندق، ويقوم مرافق عسكري بإيقاظهما عند السادسة من صباح كل يوم، ويُعيدهما إلى القطاع الخامس لمزيد من الاستجواب.

وماكس هو الوحيد الذي خضع للاستجواب في الواقع، ولم يتم إدخال رولف معه إلى غرفة الاستجواب.

لقد تم التحقق تكراراً من كل تفصيل في روايتهما، فأُجري اتصال بالفندق في لاباز، وتبيّن أنه لم يكن لديه أي سجل يشير إلى نزولهما فيه. وأُرسل محققون إلى أريكويبا، وكوباكابانا، وكاراناڤي، للتحقق من كل تفصيل، واسم، و"مصادَفة".

في الليل، كان في استطاعتهما الذهاب إلى المكان الذي يختارانه، بما أن الاثنين قد كفلهما القنصلان الهولندي والأميركي، ولكن تحت الحراسة. وذهبا ذات مساء لحضور مباراة في كرة القدم، وكان المرافقون التسعة مسرورين جداً بذلك، وقد حضروا كلهم في الوقت

نفسه – بالرغم من تناوبهم – للتأكد من أن ماكس وورولف لن يحاولا الفرار.

لقد تمكنوا بالصُدفة من الاستمتاع بالمباراة الكبيرة ضد بيرو المجاورة.

في نهاية الأسبوع، وبعد أن عجز المحققون العسكريون عن العثور على أي ثغرة في تأكيد الموقوفَين الأجنبيَّين المذهل بالرغم من عدم احتمالية حدوثه، أُبلغا أنهما يملكان حرية الذهاب في صباح اليوم التالي، وأنه سيتم اصطحابهما إلى محطة الحافلات ونقلهما إلى تياهواناكو، وهو الموقع الصوفي القديم، ووضعهما على متن مركب يُقلّهما إلى بينو في البيرو حيث يُعاد إليهما جوازا سفرهما عندما ينزلان من المركب. وتمّ تعيين ضابطَين عسكريين لمرافقتهما في المرحلة الأخيرة من مغامرتهما البوليفية.

كان الضابطان مسرورَين بهذا التعيين لأنهما رافقا ماكس وورولف في زيارتهما إلى الأطلال العائدة لحضارة الإينكا في تياهواناكو. وبعد انقضاء أسوأ ما في "مغامرتهما"، انتاب ماكس شعور بالارتياح عند الأطلال، إضافةً إلى شعور بالعجَب. كان قد قرأ عن فيراكوشا سيد الشمس القديم ، الذي يُعتقد أنه خرج من مياه بحيرة تيتيكاكا المجاورة وابتدع حضارة أول شعب أصلي.

وأطلال تياهواناكو هي نُصب تذكاري لهذا المعلّم والقائد العظيم، وتدور الأساطير حول وصوله ومغادرته. وتمتاز الأطلال بطابع فريد كما لو أن الصخور نفسها لا تزال تتنفس وتنقل الدروس القديمة لفيراكوشا الأسطوري.

وأكد الضابطان أنهما يصدّقان الأساطير القديمة والاعتقاد المحلي أن بحيرة تيتيكاكا ومياهها المجدِّدة للشباب والنشاط هي مهد البشرية.

وهناك أيضاً من يعتقد أن البحيرة ستغدو مجدداً في الأزمنة القادمة مركز القوة الروحية للكوكب بأكمله، مبشِّرين بعصر جديد للبشرية.

* * *

بعد وصولهما إلى مكاتب مراقبة الهجرة في البيرو، رحّب بماكس وورولف مسؤولان رسميان مبتسمان كانا يحملان جوازَي سفرهما.

"نحن في انتظاركما. أهلاً وسهلاً بكما في البيرو". وسلّماهما جوازَي السفر، وقد خُتمت على الطابع البوليفي عبارة "شخص غير مرغوب فيه"، وكان يوجد تحتها ما يوضح بالإسبانية أن هذين الفردَين المريبَين غير مرغوب فيهما كزائرَين إلى بوليفيا في أي ظرف من الظروف.

شخص غير مرغوب فيه

نيسان/إبريل 1973

عندما بلغ ماكس الثانية والعشرين من عمره، تخرّج من يال، وبدأ العمل في شركة النشر التابعة لوالده، وأصبحت مغامراته البوليفية مجرد ذكرى مثيرة.

وسمح له العمل بكسب المال وتعلّم القواعد والإجراءات المعتمَدة في عـالم النـشر. لقد تعرّض والده لنوبة قلبية طفيفة سمحت لماكس بالتقرّب منه بشكل وثيق.

كان قد عمل لدى والده مدة تسعة أشهر عندما تولى مهمة إعادة كتابة وتطوير كتاب الاستعداد للاختبارات بعنوان: "*كيف تُحرز نقاطاً عالـية في اختبار دخول كلّية الطب*؟"، مستمراً في النجاح الذي حققه والـده في ميدان مساعدة الطلاب على اجتياز طريقهم إلى النجاح. لم يكـن ماكس يعرف شيئاً عن الطب، ولم يسبق له أن حضر أي مقرر دراسـي في هذا الشأن بعد المدرسة الثانوية، ولكنه يعرف كيفية إجراء بحث إضافةً إلى الكثير عن إعداد الاختبارات.

كان يُقيم آنذاك في نيوبورت، كونكتيكت، ويتوجه كل يوم إلى المكتبة العامة للشروع بعمله اليومي.

وعند الظهر، يكون جاهزاً للاستراحة.

وبما أن "الواي أم سي أيه" موجودة في المبنى المجاور، ويقوم دَوري كرة القدم بالبحث عن لاعبين جدد، عمد ماكس إلى التسجّل. عندها التقـى بجورج هاردي، وهو منتج أفلام مستقل وكاتب. وبالرغم من كـون جورج أكبر سنّاً منه بعشرين عاماً، كان لاعباً كفؤاً وتنافسياً، وأصبح وماكس خصمَين وشريكَين في المباريات الثنائية بشكل منتظم.

كـان ماكس يتطلّع باستمرار إلى لعب كرة القدم مع جورج في "الواي أم سي أيه"، وتمضية بعض الوقت في التحادث بعد كل مباراة، فيـشاطره ماكس شغفه بأميركا اللاتينية، والثقافة، والشعب، واللغة، ويُظهـر حماسة بالغة لدى سرد خبراته لجورج الذي لم يكن التأثير فيه أمراً سهلاً، ومع ذلك فقد كان يُؤخذ بحماسة الشباب لدى ماكس.

لقـد وافـق جـورج علـى إنتاج فيلم لمؤسسة رالف كوهين بروداكشنـز بعنوان *البحث عن ألغاز قديمة*، وكان يبحث عن شخص مـا لاستكشاف المواقع في أميركا الجنوبية. لقد أعجبه ماكس بسبب تمتّع هذا الأخير بمناقبية جيدة في العمل، وإجادة اللغة الإسبانية، ومعرفته بثقافة أميركا الجنوبية.

"مـا الأمـر؟". قـال ذات يوم: "إنها ليست عملية جراحية في الـدماغ". وهكذا، عرض جورج العمل على ماكس في غرفة الخزائن بعد مباراة اتخذت طابع المنافسة بصفة خاصة.

"هـل سمعـتَ يوماً بإريك فون دانيكن وكتابه *البحث عن روّاد الفضاء القدماء*؟". سأل بينما كانا يرتشفان معاً القهوة.

"لا". أجاب ماكس بصدق.

"إنـه الـشخص الذي يعتقد أن روّاد فضاء قادمين من الفضاء الخارجـي اسـتوطنوا الأرض طوال آلاف السنين، وكانوا سبب أحد ألغـاز الحضارات القديمة التي لا يمكن تفسيرها. لقد شرح رود سرلينغ

في برنامج خاص على شاشة الأن بـي سي مضمون كتبه. فالعديد من المواقع التي ذكرها موجودة في أميركا الجنوبية، وأعتقد أنك خيار جيد للمساعدة على اختيار لائحة بمواقع خاصة بالفيلم. هل تعتقد أنك ستكون مهتماً بالأمر؟". سأل جورج.

من دون تردد، اغتنم ماكس الفرصة.

"بالتأكيد، يبدو الأمر ممتعاً". أجاب.

* * *

في اليوم التالي، قام جورج بتسليم ماكس موجزاً عن الفيلم مؤلفاً من أربع عشرة صفحة، إضافةً إلى لائحة أولية عن المواقع التي تتضمن تياهواناكو في بوليفيا، وكوزكو في البيرو، وأماكن أخرى غير عادية تتباهى بألغاز لا يمكن تفسيرها، وتشير إلى احتمال وجود روّاد فضاء من كواكب أخرى على الأرض في الأزمنة القديمة.

كان جورج صريحاً تماماً حول تقلّب مفهوم الفيلم.

"ما نكتشفه قد لا يكون على مستوى الآمال". قال: "ليس هناك ما يُثبت أن فون دانيكن على صواب، أم أنه يصدّق الأمر".

"حسناً، بعد أن أطلعتَني على نظريته، اطّلعتُ على كتابه في المكتبة، وعليّ القول إن قسماً كبيراً من محتوياته بعيد الاحتمال على الأقل، هذا إذا لم تكن هناك أمور ملفّقة بشكل كامل". أسرّ ماكس.

"إذاً، حسناً، أعتقد أن هذا المشروع لا يثير اهتمامك". قال جورج بنبرة تنمّ عن خيبة أمل.

"لا، بل العكس تماماً، أجده مشروعاً فاتناً، ويُسعدني أن أساعدك. أحب استكشاف الألغاز القديمة والحضارات القديمة. إن العمل معك مثير للحماسة".

"عظيم!". أجاب جورج: "سيكون راتبك الأساسي 125 دولاراً في الأسبوع، وأعتقد أنك ستقوم بعمل رائع. وبالإضافة إلى اختيار فريق العمل ووضع لائحة بالمواقع، أنا بحاجة إليك أيضاً للإعداد لإدخال فريق عملنا وتجهيزاتنا إلى كل من البلدان التي نخطط لتصوير الفيلم فيها. هل تظن أن في استطاعتك القيام بهذا الأمر؟".

"بكل تأكيد". أجاب ماكس بثقة.

وهكذا، طلب إجازة من دار نشر الكتب التابعة لوالده للتغيّب عن العمل، وكرّس نفسه للمشروع بحماسة. وبدأ البحث الأساسي، وقرأ في غضون أربعة أسابيع كل موضوع نشرته *الناشيونال جيوغرافيك*، ووضع لائحة بالأماكن المرتبطة بالألغاز والمواقع القديمة في بوليفيا، وإنكلترا، وسوريا، وفلسطين المحتلة، واليونان، والهند، واليابان.

وعندما التقيا، أُعجب جورج بما أنجزه ماكس حتى ذلك الحين، وعرض عليه منصب منسّق الإخراج في المشروع، مما يعني أنه سيشارك في أعمال التصوير اليومية في البلدان كافة. ورفع جورج الأجر الأسبوعي لماكس إلى 150 دولاراً.

فجأةً، وصل خبر تقديم موعد الشروع بتصوير *البحث عن ألغاز قديمة*. سيكون عليهم مضاعفة جهودهم ليكونوا مستعدّين للمواعيد الجديدة ووصول الفريق الجديد.

"هل يمكنك الذهاب إلى البيرو خلال الأسبوعين التاليين؟". سأل جورج ماكس.

في الواقع، كان ماكس مستعداً للذهاب، ولكن هناك مشكلة. لم يتسلّم الأذونات الضرورية من السفارات التي تسمح لهم بالتصوير في الدول المعنية.

ولم يبدُ جورج شديد القلق، وقد عبّر عن ثقته أن كل شيء سيجري في الوقت المناسب، وهو أمر فاجأ ماكس ولم يكن واثقاً من ذلك، فتوجّه إلى ليما والبيرو بعد أيام وحجز في فندق شيراتون، وهو الأكبر والأفخم في ليما.

لقد ثبُت أن جورج يحافظ على رفاهيته باستمرار في أسفاره (فنادق من الدرجة الأولى، وأفضل المطاعم...). وكان يتوقع أن يعامَل فريقه بالطريقة نفسها. لقد علّمته سنوات في ميدان الأعمال الترفيهية، كما قال لماكس، أن فريق عمل مكتفياً يؤدي إلى فيلم ناجح.

وبما أن ماكس عضو في الفريق - مستطلِع - فقد جنى فوائد المساكن الفخمة. ولكن كان لا يزال يتعيّن عليه القيام بمهمة عسيرة؛ يصل بقيّة أفراد الفريق في غضون خمسة أيام، ويتعيّن عليه التأكد من تلبية متطلباهم كافة.

وتمثّلت الخطوة الأولى بلقاء السكرتير الثاني لوزير الشؤون الثقافية البيروفي، السّنيور ألتامونتانا، ولكن الأمر لم يجرِ بشكل جيد. كان ألتامونتانا قصير القامة، يضع نظارة، ويتمتع بطاقة كبيرة. وعندما رحّب بماكس، بدا كما لو أنه لا يعرف شيئاً عن إنتاج الفيلم.

فصُعق ماكس، ولكنه استعاد تركيزه بسرعة.

"ولكن، ألم تستلم رسالتي؟". قال: "لقد أرسلتها منذ أكثر من أسبوعين".

فأجاب السكرتير الثاني للوزير قائلاً إنه لم يستلم الرسالة، وحتى ولو استلمها فإن الأمر يتطلب اثني عشر أسبوعاً للحصول على الموافقات المطلوبة وانتهاء الإجراءات الجمركية للسماح للتجهيزات بالدخول وتصوير الفيلم.

بازدياد قلق ماكس، شرح ألتامونتانا بهدوء قائلاً إن القانون الجديد وُضع في ذلك العام لحماية صناعة الأفلام البيروفية.

"لن تكون هناك أي استثناءات". قال السكرتير الثاني لماكس بنبرة الأمر الواقع.

فشعر ماكس بالإرباك.

ماذا الآن؟ قال في نفسه، مفكراً في حلول سريعة.

في تلك اللحظة، دخل مساعد السكرتير الثاني الغرفة حاملاً كدسة صغيرة من المغلفات على صينية فضيّة؛ البريد اليومي.

هناك، وفي أعلى الكدسة، رأى ماكس شيئاً مألوفاً: الرسالة التي كان قد أرسلها مع مزيد من الطوابع البريدية ليتم تسليمها بسرعة.

"ها هي رسالتي". صاح ماكس فرِحاً: "رجاءً، افتحها فحسب. ستجد كل ما تحتاج إلى معرفته هناك".

وبالرغم من ظهور أمارات الارتياب على وجهه، فتح السكرتير الثاني المغلف، وقرأ الرسالة المطبوعة تحت شعار فيوتشر فيلمز.

لقد تأثر السكرتير الثاني بتوقيت تسلّم الرسالة والتأكد من قانونية المشروع، ولكنه تشدد بشأن استحالة منح الإذن خلال هذه المدة القصيرة. فشرح لماكس قائلاً إن اللجنة الخاصة بالشؤون الثقافية ستكون بحاجة إلى الاطلاع على نص الالتماس. وكرّر أن شهر أيلول/سبتمبر سيكون أقرب تاريخ للنظر في الطلبات المقدّمة.

كان ذلك الشهر شهر حزيران/يونيو.

"ولكن فريقي سيصل في غضون خمسة أيام". قال ماكس معترِضاً.

"أيّاً يكن الظرف، لن يُسمح لأعضاء الفريق أو لتجهيزاتهم بالدخول". أجاب ألتامونتانا بحزم: "لذلك، من الأفضل لك أن تُعلمهم بعدم القدوم".

وانتهى الاجتماع، وخرج ماكس مغتمّاً. لقد بدا أن نجاحه الباهر والفجائي في مهنة البرامج التلفازية انتهى قبل أن يبدأ.

كان من المقرَّر أن ينضم إليه جورج في ليما، ولكنه لم يستطع انتظار وصوله. فاتصل على الفور بأحد المنتجين، دان براندون، في لوس أنجلوس وقال له: "هناك مشكلة".

"لا تقلق". أجاب دان مبتهجاً، وغضّن ماكس جبينه مُرتَبكاً. "لقد استبقنا اضطرارنا إلى تسريع جدول الأعمال وإمكانية مواجهة مشكلة مع المسؤولين البيروفيين. لحسن الحظ أن جوليان جاسبر من يو أس سي هو أحد أصدقاء رالف كوهين المقرَّبين".

فلم يعرف ماكس الاسم، وأضاف دان.

"كان جوليان في فريق السباحة وشارك في الألعاب الأولمبية. إنه عنصر جيد، ويدير صناعة الأفلام في البيرو، حتى إنه يملك شركة الحافلات الرئيسة في ليما وعدداً من المؤسسات الأخرى. لقد وافق على لقائك.

"هو يقيم في ميرافلوريس وينتظرك على الغداء".

بالرغم من ابتهاجه بقدر ابتهاج دان بسبب هذا الأمر، كانت لا تزال لدى ماكس شكوك قوية عندما أُنهيت المكالمة الهاتفية. قد يكون جوليان "شخصاً قوياً" ومنتج أفلام مقتدراً، ولكن مساعد السكرتير الثاني لوزير الشؤون الثقافية البيروفي كان واضحاً، يتطلب الأمر الحصول على موافقات، والتقدّم بنموذج عن السيناريوهات، وانتظار اثني عشر أسبوعاً على الأقل.

مع ذلك، كانت ميرافلوريس بمثابة بفرلي هيلز ليما، لذلك، سيحظى ماكس على الأقل بغداء ممتع.

وعندما وصل إلى ملكية جاسبر، استقبله خادم منزلي يرتدي ثياباً لا عيب فيها، ورافقه إلى البستان حيث يجلس جوليان إلى مائدة

غداء أنيقة مع زوجته وابنته، وقد وُضعَت عليها زهور وأوانٍ خزفية صينية، وكان البستان مليئاً بأشجار الفاكهة وبعدد كبير من مشاتل الزهور المزروعة بطرائق غير عادية.

كان جوليان شخصاً ضخم البنية ومبتهجاً. فنهض وعانق ماكس وعرّفه إلى عائلته.

كان الطعام ممتازاً والمحادثة لطيفة ومليئة باقتراحات حول المشاهد التي يُعتقد أن ماكس سيلتقطها في ليما. وبالرغم من قلقه حيال وصول فريق التصوير، بدأ ماكس بالاسترخاء في الواقع.

وبعد الغداء، انتقلوا إلى بناء مُظلّ في جزء آخر من البستان، حيث تطرّق جوليان إلى الموضوع الرئيس.

"ليس عليك القلق". قال مبتهجاً: "لقد اهتممتُ بكل شيء. لن يواجه فريق عملك والتجهيزات أي مشاكل تتعلق بالحصول على إذن للتصوير".

فصُعق ماكس.

"ولكن، هل هذا ممكن؟ لقد غادرتُ مكتب مساعد الوزير منذ ساعات قليلة فقط، وأُبلغت أن القانون الجديد لن يسمح بأي استثناءات".

فكشف جوليان أنه من وضع قواعد وقوانين تصوير الأفلام بنفسه، وأنها وُضعت بشكل أساسي بحيث تحميه وتحمي أصدقاءه. وبما أن ريتشرد كوهين هو صديقه، اتفقا على أن يكون فيلم *البحث عن ألغاز قديمة* إنتاجاً مشتركاً مع جاسبر بروداكشنز.

وهكذا، فقد غدا إنتاجاً بيروفياً ولن يخضع لأي قوانين جديدة. وأضاف أنه قد تكون هناك مشكلة صغيرة مع الجمارك بسبب وجود قانون وطني يقضي ببقاء تجهيزات مماثلة أسبوعاً على الأقل في عزلة إلزامية درءاً لأعمال التهريب.

ومن جهة أخرى، كان جوليان قد حصل على ميدالية رئيس بلدية ليما الفخرية بسبب خدمة النقل بالحافلات التي يؤمّنها لعامة الناس. وقد أهّلته الميدالية ليكون مستثنى من القوانين كافة المُلزِمة لموظفي المدينة. وبما أن بعض مسؤولي الجمارك هم مسؤولون في المدينة، كان على ثقة تامة أن مكانته الفخرية ستسمح بإدخال التجهيزات.

كان جوليان مُحِقاً في كل شيء، وأُنقذ النهار.

* * *

بضمان الجانب البيروفي، كانت بوليفيا المحطة التالية على جدول أعمال ماكس، وحان الوقت ليقوم بإخبار جورج أنه شخص غير مرغوب فيه في ذلك البلد مما يحول دون تمكّنه من التوجه إلى جنوب لاباز حيث يُفترض به تصوير تياهواناكو وبحيرة تيتيكاكا.

ووصل جورج إلى ليما، والتقيا في رَدهة الشيراتون. كان جورج قد احتسى البيسكو سورز، وهو الشراب البيروفي الأصلي، لذلك جرى اللقاء بشكل أفضل مما يتوقعه ماكس.

"حسناً، ما دمتَ على اتصال بأشخاص هناك يلبّون متطلباتنا، وبما أنّ جدول الأعمال محدَّد، أظن أن الأمر سينجح". قال جورج بين رشفة وأخرى. "يمنحك هذا الأمر يوماً أو يومين إضافيَّين هنا في البيرو. لَمَ لا تصعد إلى تروجيلو لمعاينة الأهرامات، والتحقق مما إذا كان في الإمكان تصوير أي شيء أو أي شخص يمكننا إجراء مقابلة معه؟".

الفصل السابع

بدأت الرحلة بالحب

حزيران/يونيو 1973

نزل ماكس من الطائرة في تروجيلو، واستقلّ سيارة أجرة إلى الفندق المحلي. فبالرغم من الحجم الأكبر للمدينة في شمال البيرو، كانت تروجيلو لا تزال تستعيد حياتها الطبيعية بعد الزلزال، ويوجد فيها فندق فخم رئيس واحد.

بعد تسجيل اسمه، كشف ماكس عن مهمته لموظف الفندق الذي يدعى خوسيه، وسأل عن مدى بُعد الهرم القديم والأطلال. كان خوسيه سعيداً جداً بتقديم المساعدة، ولم يمضِ وقت طويل حتى وصلت سيارة الأجرة لاصطحاب ماكس في مهمة لاستكشاف هرم هواكا دي لا لونا، أو معبد القمر.

في أثناء تجوّله في هذا البناء الضخم الذي يحيط به الغموض، وعلى بُعد ميلَين ونصف فقط من المدينة، دنا من ماكس عدد كبير من "علماء الآثار الهواة"، وعرضوا عليه شراء ذخائر قديمة مُبجَّلة ومنحوتات. وبالرغم من جدران الهرم المتقَنة والمثيرة للإعجاب، لم يكن يحتوي على أسرار هامة لحبكة رواية فون دانيكن.

وبعد عودته إلى الفندق، وجد شاباً حيوياً وذا شعر أسود في انتظاره. فعرّف الرجل بنفسه قائلاً إنه إدواردو، وشرح أنه يعمل لصالح المحطة التلفازية المحلية.

"لم يسبق أن قدم فريق عمل أميركي إلى تروجيلو لتصوير فيلم، باستثناء تغطية الزلزال، ونرغب في إجراء مقابلة معك". قال.

كان ماكس صادقاً مع إدواردو وأخبره أن التصوير في تروجيلو هو أمر غير مؤكّد. ومن جهة أخرى، لم يكن المراسل التلفازي الشاب المتحمّس مهتماً كثيراً بذلك الأمر كما يبدو، وغادر لاصطحاب فريق التصوير.

فافترض ماكس أنه أسبوع إخباري مُملّ.

بعد دقائق، عاد إدواردو برفقة المصوّر، ريجينالدو، والمرأة الأكثر جمالاً وفتنة التي رآها ماكس يوماً.

كان اسمها ماريا، في العشرين من عمرها، وكانت نحيلة، وشعرها قاتم اللون، وعيناها بنيتين داكنتين، وابتسامتها سلسة ونابضة بالحياة، وتتمتع بتركيز يُفقد المرء اتزانه.

كانت ماريا ترتدي ملابس بسيطة عبارة عن بلوزة وبنطال فضّيين. وكما شرح إدواردو، فهي مساعدة المنتج في البرنامج الإخباري، وتقوم بالقليل من كل شيء. فابتسمت لماكس وبدت مهتمّة له في أثناء وجوده معها.

بعد انتهاء المقابلة، غادرت برفقة ريجينالدو وإدواردو. وبعد لحظات، عادت لتطلب من ماكس تدوين اسمه، واسم شركة الإنتاج، وبعض التفاصيل الأخرى التي ذكرها خلال المقابلة. وبعد الحصول على المعلومات المطلوبة، استدارت للمغادرة ولكنها توقفت فجأةً ونظرت إلى ماكس.

"هل أنتَ بمفردك هنا؟". سألت، وقفز قلبه في صدره. "هل ترغب في رفيق على العشاء؟ أعرف أفضل المطاعم في تروجيلو".

فاستعاد ماكس رباطة جأشه بسرعة وقال إن الانضمام إليها هو أمر يَسرّه. و لم يمضِ وقت طويل حتى استقلا سيارة أجرة في طريقهما

إلى مطعم صغير تذوّقا فيه أسياخ قطع قلب عِجل مشويّ ومبهّر، وتلا ذلك طبق لحم هندي مشويّ مع خضار غريبة لم يتمكن من معرفتها، ولكنه استمتع بها بالرغم من ذلك.

طوال العشاء، لم يتمكن ماكس من الامتناع عن التحديق إلى عينيّ ماريا. كانتا قاتمتَي اللون ولا نهاية لغوريهما، ووجد نفسه يفقد تسلسل أفكاره أيّاً يكن الموضوع المطروح.

وبدت ماريا مأسورة بماكس بالطريقة نفسها، واعترفت أنه السائح الأميركي الأول الذي قابلته يوماً.

"هل كل الأجانب مثيرون للاهتمام على غرارك؟". قالت ممازحة: "وهل يتكلمون كلهم لغة *الكاستيلانو* بهذه الطلاقة؟ أشعر تقريباً كما لو أنني أتحدث إلى ملك إسبانيا. لغتك الإسبانية أفضل بكثير من لغتي التي أتحل بها إلى حدٍّ ما". وضحكت.

ومتّسماً بطابع جدّي أكبر وتائهاً في جمال ماريا، تمتم ماكس قائلاً: "حالفني... حالفني الحظ إذ قمت بجولة في أنحاء أوروبا والقارة الأميركية في سنّ مبكّرة، ولكنني لست مثيراً للاهتمام إلى هذا الحدّ. عالمك يفتنني بقدر ما يفتنك عالمي، وربما أكثر. أحب طريقة حديثك، وفي صوتك عذوبة وموسيقى طبيعية بَحتة".

وكلما تحدثت ماريا شعر ماكس أكثر فأكثر كما لو أنه يفقد السيطرة على ذاته.

لقد بقيا في المطعم إلى ما بعد منتصف الليل حتى أغلق المطعم أبوابه. لم يشأ أي منهما أن ينتهي الليل، لذلك طلبا من سائق سيارة الأجرة أن يُقلّهما إلى المتنزّه العام الواقع إلى جانب الفندق حيث يقيم ماكس. وبينما كانا يسيران وسط الأشجار ممسكَين بيد أحدهما الآخر تحت السماء الساطعة بضوء النجوم، قام رابط بينهما.

بالنسبة إلى ماكس، بدا الأمر كما لو أنهما يعرفان بعضهما بعضاً منذ زمن بعيد. وأخبرته ماريا عن عائلتها وجذورها الإينكية الأصلية. وتحدثت عن اعتقادها الراسخ بقوة روحية تتخطى الإدراك البشري، وكيف أن لكل الأشياء حياة. "حتى الصخور والأشجار تملك وَعياً". قالت.

وأعربت عن اعتقادها بعودة أسياد الإينكا القدماء ذات يوم، فيحكم شعب الإينكا الحقيقي مجدداً أرضهم الأم. وتحدثت عن تقبّلها الطقوس والممارسات الكاثوليكية التي لا تسمح بممارسة الجنس إلا بعد الزواج فقط.

وبعد جلوسه بجانبها على مقعد خشبي، وجد ماكس أن الكلمات تخرج من فمه بشكل متعثّر وعلى نحو غير متوقّع ومضبوط.

"أعرف أن هذا الأمر يبدو جنونياً، ولكنني مُغرَم بك تماماً". قال: "أرغب فيك بقوة أكبر مما رغبتُ في حياتي في امرأة أخرى. حبي لك طاهر لم يسبق لي أن اختبرته...".

"أعلم أن الأمر ضرب من الجنون التام...".

وفجأةً، طبعت ماريا على شفتيه بشغف قبلة طويلة. وحدّقا إلى عيني بعضهما بعضاً، وشاهد في ثلاثين ثانية عمراً يمضيانه معاً. ولدى النظر إلى وجهها، وجد أن الفكرة نفسها تستحوذ عليها.

فسمعا صوت طفل حديث الولادة يبكي.

وشاهدا نفسَيهما يتقدّمان في السنّ معاً ويغدوان جداً وجدة.

ورأيا مستقبلَين مماثلَين و لم يتحدثا.

لم يكن في الإمكان التعبير بكلمات عن وضوح الاختبار، ووصف الشعور المتبادَل.

أخيراً، تكلمت ماريا.

"أحبك كما تحبني، وأنا مستاءة على غرارك. إنه حب لا يمكن تجسيده أبداً بالأعمال، ولكنه حب رفعته قبلتنا إلى مستوى الكمال في ملء الزمن وسيعيش في ذاكرتنا إلى الأبد".

ولزم ماكس الصمت، مصدوماً بهذا الاعتراف بالحب، ومُربَكاً وحائراً على حدٍّ سواء. لقد رأى حياةً مع هذه المرأة. كان يعرفها، وأراد البقاء معها حتى نهاية الأزمنة.

وأدرك أيضاً أن ماريا صادقة وأن ظروفهما لن تسمح بارتباط على مدى الحياة من النوع الذي نشأت ماريا على الإيفاء به.

كان عليه الاتصال بجورج في لاباز في غضون ساعات قليلة، وإبلاغه بما إذا كان هناك ما يمكن تصويره في تروجيلو، على أن ينتقل بالطائرة بعد ظهر ذلك اليوم من ليما إلى كيتو، الإكوادور، ومن ثم إلى لندن. فهو يكاد لا يملك الوقت للاستحمام والتوجه إلى المطار في تروجيلو للسفر إلى ليما.

وبتبادر هذه الأفكار وغيرها إلى ذهنه، نظر ماكس إلى ماريا بمزيج من الفرح والحزن والتسليم، ورفع يدَيها ووضعهما على قلبه.

"كانت ليلة، ولن أنساك أبداً".

فأخرج قلماً وورقة، وطلب من ماريا أن تدوّن اسمها وعنوانها كي يتمكن من الاتصال بها.

وسلّمته ماريا الورقة التي كتبت عليها اسمها وعنوانها البريدي الكامل.

ماريا ماغدالينا راميريز

224 كالي دي لاس فلوريس

تروجيلو 9490 البيرو

ودخل ماكس في حالة صدمة.

هو اسم رآه قبل سنوات من دون أن يتمكن من تذكّره بالرغم من محاولته الجاهدة. ولكنه بدا شديد الوضوح في أثناء التحديق إليه مدوّناً على الورقة التي يُمسك بها بإحكام.

فاسم ماريا هو أول الأسماء الاثني عشر التي اختبرها في أثناء اختبار حالة النورانية.

ونظر إلى ماريا بيلوزتها الفضية، وأعاد النظر إلى الورقة.

لقد ظهر اسمها لماكس باللون الفضي قبل ثماني سنوات. لا يمكن أن يكون الأمر مصادَفة. يجب أن يكون هناك معنى أعمق، ربما صلة يُفترض بها في الواقع تبديل حياتهما. ربما كانت ماريا رفيقة روحه حقاً، لذلك رأى اسمها عند اختباره حالة النورانية.

وحاول أن يشرح لماريا هذا المستوى الجديد من الربط بين الأفكار.

"ربما كان لقاؤك السببَ الوحيد لقدومي إلى البيرو". قال: "ربما قُدِّر لنا حقاً أن نكون معاً، أم أن هناك مصيراً هاماً يربطنا".

وشعر بالارتياح لأن ماريا لم تتصرف كما لو أنه أصيب بالجنون، وبقيت هادئة وتقبّلت التزامنية الغريبة التي جمعتهما.

"العالم واسع وغريب، ولن نفهم أبداً كل ما يحدث". قالت مؤكّدة: "إذا كان مقدَّراً لنا أن نكون معاً، فإن ذلك سيتحقق بطريقة ما، ولكنك إذا لم تغادر الآن، فإنك ستُغفل الرحلة الجوية ولن أسمع رأي والدَيّ بالموضوع".

"أحبك، لقد أحببتك دائماً، وسأحبك على الدوام". وأضافت: "أشعر حقاً بصلة بك أعمق من أي صلة شعرت بها حيال أي شخص آخر، صلة أعمق من صلة الأصدقاء والأشقاء، لا بل أعمق من صلتي بوالدتي ووالدي، ولا أشك في أن حياتينا تتقاطعان لسبب ما. ومع ذلك، لا أرى كيف يمكننا تبديل قدرَينا الحاليَّين".

بهذه الكلمات، قبّلت ماريا ماكس، ووقفت، وخرجت من المتنزّه العام، تاركةً إيّاه بمفرده أمام فندقه وهو يفكر ملياً في الكلمات نفسها التي استخدمتها والدته بعد أن اختبر حالة النورانية.

ويستمر البحث

حزيران/يونيو 1973

الجزيرة الشرقية.

ستوهنج.

غلاستنبيري.

متحف الرُّحُل، كهوف لاسكو في فرنسا، أثينا، وجزيرة سانتوريني اليونانية.

لقد عقد ماكس اجتماعات في كل من هذه الأماكن مع علماء في العلوم الطبيعية، وعلماء آثار، وكانت لدى الجميع معلومات إضافية حول البحث المستمر عن الألغاز القديمة.

من جهة ثانية، لم يتمكن ماكس من الكف عن التفكير في ماريا ماغداليـنا راميريز خلال الدقائق القليلة من اليوم التي لا يكون منشغلاً فيها باستئجار سيارات، ومراكب، وطائرات، وكل آليات العمل التي تساعد فريق الإنتاج.

وطوّر نمطاً محدداً للقيام بأعماله؛ يصل أولاً إلى كل مدينة، ويتصل بالمسؤولين الحكوميين، ومسؤولي المتاحف، وأشخاص آخرين يكون بحاجة إليهم للحصول على التصاريح. ويقوم باستكشاف المواقع، ويستقبل فريق العمل لدى وصوله إلى كل مطار دولي.

يوري أليك هو الخبير السينمائي في فريق العمل، واعتُبر في تلك الأيام أفضل مصور سينمائي في جيله على أرض وعرة. كان في العقد الرابع من عمره، نروجياً، نحيلاً، يرقى إلى مستوى لاعب رياضي محترف، ويستمتع بحمّامات البخار والسونا، إضافةً إلى ممارسات صحية أخرى لاكتساب لياقة بدنية تساعده على الاسترخاء.

إنه متماسك، واثق بنفسه في أثناء التصوير، يقصد أي مكان لتصوير مشهد ما، ولا يخاف شيئاً. ففي استطاعته تسلّق المباني بسبب لياقته البدنية ورشاقته، والجثوم على الدرابزين لتصوير مشهد ما، والتقاط المشاهد بأنواعها كافة من الحوامات والطائرات من دون أن يواجه أي مشكلة بسبب العلوّ، فينحني إلى الخارج أو يربط نفسه بهيكل طائرات صغيرة تم استئجارها لتصوير خطوط نازكا المُبهَمة في الصحراء البيروفية، أو الأطلال في أماكن نائية.

يسهل على يوري الانسجام مع أي وضع، ويعامله الجميع باحترام، وتتم الاستعانة بخدماته باستمرار. يوري متزوج وله ابنان في لوس أنجلوس، ولكنه يلازم مواقع التصوير لما يزيد عن ثمانية أشهر في العام.

وراس أرنولد، وهو المصور السينمائي المساعد، في العقد الثالث من عمره، ضخم البنية وقوي. وفيلم *البحث عن ألغاز قديمة* كان بمثابة فرصة كبيرة لراس كونه المشروع الأكثر أهمية في تاريخ مهنته الفنيّة. ويستمتع راس باحتساء شراب الشعير، وهو أقل حركة من يوري ولكنه كفؤ ومحترف ويُظهر مناقبية عالية في العمل.

راس شديد التدقيق بالتفاصيل كونه خبير الفريق في التصوير والإضاءة، ويحب تناول الطعام وإطلاق الفكاهات، ولكنه لا يهتمّ بلياقته البدنية بقدر يوري، وغالباً ما يُسرف في الأكل والشرب واللهو بعد انتهاء العمل.

أورلاندو سامرز في التاسعة والعشرين من عمره ومسؤول عن الميزانية. لقد منح ماكس علاوته اليومية وبقي على اطّلاع على شؤون التجهيزات والنفقات. كان يرفع تقاريره إلى جورج مباشَرةً الذي يثق به تماماً. ويطمح أورلاندو أن يصبح منتجاً ومخرجاً، وكان ماكس على علاقة به أكثر من أي عضو آخر في الفريق، يعملان معاً بشكل وثيق لتنظيم عملية انتقال التجهيزات وفريق العمل. لقد تعلّم أورلاندو الاعتماد على حكم ماكس بشأن إحداث توازن بين التكاليف وأهمية اختيار المشاهد وفقاً لأولويتها.

وأندي مونيتز هو العضو الأخير في الفريق. كان في السابعة والعشرين من عمره، نحيلاً، بارز العظام، ويرفع تقاريره إلى أورلاندو ويوري مباشَرةً كونه تقنيّ الصوت، ويساعد كلاًّ منهما على إعداد المشاهد المصوَّرة وكل ما قد يكونان بحاجة إليه في أي ظرف.

بالنسبة إلى ماكس الذي لم يخدم أبداً في القوات المسلحة، كان *البحث عن ألغاز قديمة* بمثابة رفيقه في السلاح الذي تربطه به علاقة وثيقة. عمل الفريق الصغير من دون توقف تقريباً، واعتمد أعضاؤه على بعضهم بعضاً في شتى الأمور تقريباً.

الرهانات عالية لكل منهم، قد يكون المشروع خطوة كبيرة إلى الأمام في مهنهم. لقد اكتسبوا خبرة وافية نتيجة للضغط الذي يتعرضون له في أثناء التفاوض مع بلدان أجنبية، والذهاب إلى أماكن غريبة وبعيدة لم يزرها سوى عدد قليل من الناس بحثاً عن الألغاز القديمة.

وهناك حاجة ماسّة إلى العمل لم يظنّ ماكس أنها موجودة في العمل المنتظم بين التاسعة صباحاً والخامسة بعد الظهر. إنه أمر مُبهج تماماً.

أما تجهيزاتهم فتساوي مئات آلاف الدولارات، وأينما ذهبوا رُحِّب بهم بفضول وتدقيق. ففي الهند، توقعوا أن يكون من المستحيل

عليهم السير في الشارع. ولكن الأمر نفسه كان صحيحاً في القدس، وليما، وأثينا، وسانتوريني، ولندن، وطوكيو، لا بل أيضاً في البلدات الأصغر حجماً المحيطة بكهوف لاسكو، وأعمدة ستونهنج الحجرية، وأطلال كوزكو.

لقد عملوا وتناولوا الطعام معاً، ولم يفترقوا أبداً إلا عند النوم. وطوّروا لغتهم الخاصة، فإذا سمعوا مَن يقول منهم في نهاية اليوم: "السادسة صباحاً، بعد الانتهاء". فإن ذلك يعني الاجتماع عند السادسة صباحاً بعد تناول الإفطار، و"واحدة فقط في الأكروبوليس عند شروق الشمس"، تعني تصوير مشهد واحد فقط في الأكروبوليس عند شروق الشمس.

كانت كل دقيقة ويوم وليلة مغامرة. لقد تمت تمضية كل لحظة خارج العمل بزيارة مدن غريبة واستكشاف مواقع إضافية، وأمضوا الوقت في أثناء توقف الإنتاج بالذهاب إلى منتجعات المياه المعدنية أو تسوّق هدايا للعائلة والأصدقاء. وبعد انتهاء فترة التصوير البالغة اثني عشر أسبوعاً، اعتبروا أنهم سيكونون أصدقاء حقيقيين وليس مجرد زملاء تشاطروا المغامرات فحسب... وهكذا كانوا.

كان ماكس يعرف أنواع الشراب الاسكتلندي والشوكولاته المفضّلة، ولم يفتقر أعضاء فريق التصوير أبداً إلى مشروباتهم المفضّلة وولائمهم بالرغم من مخصصاتهم المالية الزهيدة ووجود المتاجر التي لا تُفرض ضرائب على سلعها. وثبت في النهاية أنه يتمتع بمهارة أخرى فريدة ألا وهي قدرته على الركض وراء سيارات الأجرة.

ولدى الوصول إلى المطارات، كان من السهل الحصول على سيارات الأجرة المطلوبة لنقل فريق العمل والتجهيزات، ولكن لم يكن هناك عدد كافٍ من السيارات لدى القيام بجولة في المدينة لتفقّد

الأماكن. وبطريقته السلسة والواقعية، بدا ماكس قادراً على تأمين كل السيارات المطلوبة بشكل عجيب، حتى عندما تمطر أو يكونون في مكان لا توجد فيه العديد من سيارات الأجرة.

ولكنهم علموا أن الأمر سيكون مختلفاً في فلسطين.

فنظراً إلى الاحتياطات الإضافية المتخَذة لتوفير الأمن، اتُخذ قرار بالاستعانة بمدير إنتاج محلي للاهتمام بلوجستيات استئجار السيارات كافة، والطائرات، ومتطلبات الإنتاج الأخرى. كان ماكس سعيداً تماماً بالتخلي عن تلك المهام الشاقة.

في القدس، سيركز ماكس على أعمال البحث والمقابلات. وبعد أيام من العمل على مدى أربع وعشرين ساعة، سيبدو الأمر كما لو أنه إجازة.

كان مكتب نيويورك قد اتصل بماكس في الفندق الذي ينزل فيه في أثينا عندما كان يستعد للانطلاق إلى المطار، وأخبروه أن مدير الإنتاج الذي سيلتقي به في الطرف الآخر من الرحلة الجوّية يدعى يوسكي حاسفور.

فابيضّ وجه ماكس مرة أخرى عندما تذكّر هذا الاسم بشكل واضح.

كان يوسكي حاسفور الاسم الثاني في لائحة الاثني عشر.

* * *

في أثناء الرحلة الجوية التي دامت ثلاث ساعات، فكر ماكس ملياً في ما قد تعنيه الأسماء الاثنا عشر.

لقد مضت ثماني سنوات على اختباره الحالة النورانية، وقليلاً ما كان يفكر في الاثني عشر. ولكنه التقى في غضون أربعة أسابيع شخصين من الأشخاص الاثني عشر، علماً أنه لم يكن يملك أي فكرة عما قد يعني ذلك.

واعتبر أنه لا بد من وجود صلة بين إنتاج الفيلم وهذه الأسماء. هل للأمر علاقة بالقادمين من الفضاء الخارجي الذي يسعى الفريق إلى تسليط الضوء على إنجازاتهم؟ قد يكونون موجودين حقاً، وهي الطريقة الوحيدة لإثبات ذلك.

فاستناداً إلى خبراته في يال حيث ثبت عدم رغبة الأشخاص الأكثر ثقافةً في أخذ أفكار جديدة في الاعتبار، قرر ماكس عدم الإفصاح ليوسكي عن طبيعة علاقتهما عندما يلتقيان. لا، فهو سيراقب ويشاهد ويحاول العثور على رابط من نوع ما قد يقدّم تفسيراً.

* * *

كان يوسكي شديد الابتسام في المطار، قصير القامة ولكن قوي، كان لديه شاربان وشعر مرتدّ إلى الوراء، يرتدي بزّته العسكرية التي تعود إلى زمن خدمته العسكرية، يضع خاتماً، ويتدلى من حزامه عدد لا يُحصى ولا يُعَدّ من المفاتيح، ويضع حول عُنُقه لفاع أبيض.

هو يضحك بسهولة ويحب رواية القصص والدُعابات، ويشعّ وجهه عندما يبتسم الآخرون.

ووفقاً لماكس، لم يكن هناك شيء لا يستطيع يوسكي القيام به. فهو الرجل الأكثر تنظيماً الذي التقى به يوماً، واعتُبر منسق الإنتاج الأفضل في كل فلسطين. لقد عمل على إنتاج العديد من الأفلام الوثائقية، ويعرف كل من يعملون في هذا المجال.

لقد أخذ يوسكي على عاتقه أمر التأكد باستمرار من توافر السيارات عند الحاجة، وتدبّر أمر زيارة ماسادا في أريحا، والأماكن الأكثر بُعداً كذلك. كان يحب المرح والطعام والشراب الجيّد مما جعله محبّباً لراس وأندي. وأخذ على عاتقه أيضاً استمتاع فريق العمل بأفضل الفنادق، والمطاعم، والمناظر الطبيعية الجميلة، في فترات الاستراحة.

وتعرّف ماكس إلى الحمامات التركية الأصلية في القدس التي يعود تاريخها إلى ألف عام مضت، واصطحبه إلى كل الأماكن المقدسة في القدس. وبقي ماكس خمسة أيام فقط مع يوسكي، ولكن تعاوناً قام بينهما لا يحدث إلاّ في أثناء الحرب، أو لدى إنتاج فيلم.

وفي نهاية تلك الفترة، وبينما كانا متجهَين إلى المطار حيث يستقلّ ماكس الطائرة المتوجهة إلى دلهي في الهند، التفت إليه يوسكي وسأله عن زيارته إلى فلسطين.

"إذاً، يا ماكس، من بين كل ما عرّفتك إليه في هذه الأيام الخمسة الأخيرة هنا في فلسطين، ما الذي ستتذكره أكثر من سواه؟".

ففكر ماكس قليلاً قبل الإجابة.

"كان كل شيء مثيراً للدهشة، لا يمكنني اختيار موقع واحد فقط، ولكن قد أختار الأرض نفسها وحيوية الشعب. هناك الكثير من التركيز والحيوية في الشوارع، والمطاعم، والمشارب، وفي كل مكان". قال.

"أنا سعيد جداً لأنك تشعر بهذه الحيوية". أجاب يوسكي، وابتسم. "أجل، يكمن الجمال الحقيقي في فلسطين في شعبها.

"أما وقد اختبرتَ فلسطين للمرة الأولى، فأنا على ثقة تامّة أنك ستعود، وعندما تقوم بذلك، سأكون هنا للترحيب بك".

فشعّ وجه يوسكي ابتساماً في أثناء رَكن السيارة في موقف السيارات في المطار.

وقبل أن يدخل ماكس إلى المنطقة الأمنية المُتقَنة في المطار، التفت إلى صديقه.

"كنت كوالد ثانٍ بالنسبة إليّ هنا". قال: "لن أتمكن أبداً من شكرك بما يكفي أو مُجازاة حسن ضيافتك".

فابتسم يوسكي.

"لا تقلق. لقد استمتعتُ بكل دقيقة في أثناء عملي معك ومع فريقك. أنت شاب، ويوماً ما سيكون شاب ما بحاجة إلى مساعدتك. عندئذ، تذكّرني وأكون لك شاكراً".

"الآن، اذهب وأعدَّ فيلماً رائعاً. رافقتك السلامة".

وفي أثناء صعوده إلى متن الطائرة، كان ماكس على ثقة أنه اتخذ له صديقاً لمدى الحياة. وبالرغم من العلاقة الوثيقة بينهما، لم يتمكن من تبيان أي صلة تفسّر وجود يوسكي في لائحة الاثني عشر، فقرر عدم مشاطرته هذا السر.

عندما كان جندياً، لم يكن يوسكي يبدو أنه من الأشخاص الذين يمكن مشاطرتهم الخبرات، ولكن دخول يوسكي في حياته كان أمراً كافياً بالنسبة إليه.

الهند

تموز/يوليو 1973

بعد الخروج من مبنى الوصول والمغادرة في مطار دلهي، وجد ماكس نفسه مُحاطاً بحمّالين، ومتسوّلين، وسائقي سيارات أجرة، ومدّعين أنهم سائقو سيارات أجرة، ونشّالين، ومسافرين يرتدون ملابس ذات ألوان برّاقة. كان عليه النضال لأجل التحكم بحقيبته، وبعد قليل من الإجهاد تمكّن من دخول سيارة أجرة إلى فندق أشوكا بالايس، أحد الفنادق الثلاثة الفخمة في دلهي.

وبعد استراحة جيدة في أثناء الليل، بات على استعداد للقاء الرئيس الأعلى للشؤون الثقافية، بروجاب أكبر، المسؤول عن كل مشاريع الأفلام الأجنبية المصوَّرة في الهند. وبعد دخول المركز الحكومي، أُحفل ماكس لدى رؤيته أربعين قِرداً ترتدي بذلات حمراء وتتولّى الحراسة في الناحية الخارجية من البوابة الرئيسة. كان الأمر أشبه بمشهد من قصر ويكد ويتش في فيلم *ويزارد أوف أوز*، ولم تكن هذه القِردة أفضل من أتباع الساحرة الذليلين إذ يمسّون السياح برفق ويلتقطون كل ما يمكنهم التقاطه من طعام أو أشياء صغيرة.

بعد عبور منطقة القِردة، شق طريقه إلى داخل مكتب بروجاب أكبر، وكان مَهيب المظهر وفي العقد السادس من عمره. فأصغى أكبر

إلى ماكس بصبر، وشرح قائلاً إنه لن يتمكن من منح الإذن لدخول فريق التصوير إلى البلد ما لم يحصل على ثلاث نسخات كاملة من السيناريو تشير إلى كل المشاهد التي سيصورونها هناك.

فحاول ماكس أن يشرح له عدم وجود سيناريو لأنهم يصوّرون فيلماً وثائقياً. وضحك بروجاب.

"حسناً، إذاً، لن يكون هناك أي فيلم". قال: "يجب عليك أن تزوّدني بالموضوع على الأقل، وبلائحة بالمواقع، وما الذي سيظهر ويقال في كل فقرة. ما لم أحصل على هذا السيناريو عند الخامسة من بعد ظهر اليوم، لن أتمكن من منح الأذونات التي تحتاجون إليها".

ووقف ماكس من دون الشعور بأي إثباط للعزيمة.

"شكراً لك. سأُعدّ لك سيناريو وأعود قبل الخامسة بعد الظهر".

كان النهار قد انتصف تقريباً عندما عاد ماكس إلى فندق أشوكا بالايس. كان يعرف كل الأماكن وجزءاً من السيناريو مّما يمكّنه من إعداد المستند المطلوب، ولكن لم تكن لديه آلة كاتبة أو ناسخة لإعداد النسخات الضرورية.

كان يتعيّن عليه العمل بسرعة.

فشرح ماكس طبيعة المشروع لموظف الاستقبال، شيفا، الذي ابتسم وقال إنه مستخدم ماهر للآلة الكاتبة ويمكنه استعمال إحدى الآلات الكاتبة التابعة للفندق.

عند الثالثة من بعد الظهر، أعدّ ماكس سيناريو مكتملاً وظنّ أنه في وطنه. ولكن عندما شرح أنه بحاجة إلى ثلاث نسخات، أخبره شيفا أنه لا تتوافر أي آلات نسخ في دلهي في ذلك الوقت، لا بل في كل الهند أيضاً. ولكنه طمأن ماكس قائلاً إن لديه خطة.

* * *

شقّت سيارة الأجرة طريقها داخل دلهي القديمة، وسط الأصوات المتنافرة الناجمة عن سائقين يجرّون عربات، وأولئك الذين يقودون دراجات هوائية ثلاثية الإطارات لنقل الركاب، ودراجات هوائية ثنائية الإطارات، إضافةً إلى أصوات الأبقار، والعربات التي تجرّها جياد، والجرّارات، والشاحنات الخشبية، والسيارات الحديثة، والحافلات التي تنفث المازوت، وعدد لا يُحصى ولا يُعَدّ من المشاة الذين يحمل العديد منهم أحمالاً ضخمة على رؤوسهم.

فجأةً، أشار شيفا إلى السائق بالتوقف أمام متجر للتصوير الفوتوغرافي لا يمكن تمييزه عن سواه من المتاجر. لم يكن ماكس واثقاً من الأمر، ولكنه تبع مرشده عبر الباب. وبعد دقائق، شُرح له أن هذا المتجر لديه آلة تصوير قديمة الطراز بقياس "8 × 10". فأخذوا صوراً لكل صفحة من المستند وقاموا بتظهيرها بعد ذلك بالمواد الكيميائية في الغرفة المُظلمة في الناحية الخلفية من المتجر.

وفي غضون أربعين دقيقة، حصل ماكس على ثلاث نسخات لا عيب فيها، جاهزة ليتم تقديمها إلى الحكومة.

* * *

دخل ماكس مكتب بروجاب عند الرابعة وتسع وخمسين دقيقة تماماً. فسُرّ المسؤول ولكنه تفاجأ برؤيته، وتفاجأ أكثر فأكثر عندما قدّم إليه ماكس النسخات الثلاث "لسيناريو التصوير".

"سأطّلع عليه وأتصل بك بعد يومين لأُبلغك بما إذا كان كافياً لمنح الإذن بدخول فريق عملك والتجهيزات إلى الهند". قال بلطف: "إذا تمت الموافقة على طلبك، سيعيَّن لك مشرف على التصوير".

وبارتياح كبير، أسرع ماكس عائداً إلى فندقه، وجمع مقتنياته، وطار إلى باكستان حيث يتعيّن عليه الإعداد للتصوير في لاهور.

كان عليه العمل بسرعة لأنه سيعود إلى دلهي في اليوم التالي. لذلك، قام بتحديد المواقع الباكستانية خلال يوم واحد في عمل كان من المقرَّر له أن يدوم يومَين.

لقد عمل بسرعة كبيرة وكان سعيداً بالجلوس على متن الطائرة والتقاط أنفاسه. وفكّر ملّياً في الصُّدفة الجميلة والمثيرة للدهشة التي جمعته بماريا ويوسكي، وشعر بوجود صلة وثيقة بهما، ولكنه لم يعتقد أنه قد يراهما مجدداً.

وعمله على فيلم بعنوان *البحث عن ألغاز قديمة* هو أمر مثير للسخرية في الواقع لأن الأمر بدا كما لو أن خبرته الخاصة تتطور لتغدو رحلة هامة من الاكتشافات الشخصية. لم تكن لديه أي فكرة عما يوجد وراء كل زاوية، وجعلته العلاقة الغرامية يشعر بالحماسة وكانت حافزاً له.

لقد شعر ماكس أنه يعي الاحتمالات التي قد يحملها المستقبل في طياته.

القيّم على القرن الخامس عشر

تموز/يوليو 1973

تحقق ماكس بسرعة مما يتعيّن تصويره في لاهور، وأمضى بقية اليوم متنقلاً في المدينة القديمة على ظهر الحمير وعلى متن عربات تجرّها الجياد، أكثر منه بواسطة الحافلات على الطرقات الرئيسة.

ومن جهة أخرى، كان قلقاً ويريد العودة إلى دلهي بأسرع وقت ممكن للتأكد من الموافقة على سيناريو التصوير، ومنح الإذن لفريق العمل والتجهيزات بدخول الهند. لذلك، عاد إلى الهند في أول رحلة جوية متوافرة، ومكث في فندقه بانتظار الجواب.

في اليوم التالي، كان ماكس مسروراً لدى تلقّيه من بروجاب نبأ موافقة لجنة الأفلام على السيناريو وتعيين مشرف لضمان التقيّد بالقوانين المحلية في أثناء التصوير. وعلم أيضاً أنه يحظّر عليهم تصوير الجسور، والمتسوّلين، ومحطات سكك الحديد، وإذا لم يتقيّدوا بهذا القانون تتم مصادرة كل الفيلم وترحيل فريق العمل.

وأحد هذه الأماكن، المتحف الوطني الهندي في نيودلهي، يتطلب الحصول على إذن من مدير المتحف نفسه، ويجب تقديم رسالة الإجازة هذه إلى بروجاب في اليوم التالي.

"وفقاً لمعلوماتي، لم يمنح الإذن أبداً لأي فريق عمل للتصوير داخل المتحف الوطني، لذلك أشك في نجاحك". قال لماكس. كان هناك في طريقة قول ذلك ما يُلمح إلى أنه قد يكون في الإمكان تجاوز مدير المتحف... عندما تكون الظروف مناسبة.

أدرك ماكس منذ البدء أن للمال سلطة تفتح الأبواب الموصَدة. ومع ذلك، فقد كان متردداً بسلوك ذلك الطريق وعازماً على القيام بأي شيء بنزاهة. حتى ذلك الوقت، جرت الأمور بنجاح وشق طريقه في أوضاع صعبة.

لم يتوقع أن يكون هذا الوضع مختلفاً.

ومتسلّحاً بأفكاره، انطلق إلى المتحف. ولدى وصوله، شرح مهمته للحراس الموجودين عند المدخل، فأرشدوه وسط المتسوّلين والبائعين الجوّالين إلى المدخل المخصص للموظفين وأولئك الذين يقومون بأعمال رسمية.

كان المتحف واسعاً، ويعرض لحضارة شبه القارة الهندية العظيمة التي تعود إلى عشرين قرناً مضى. ويشار إلى كل عصر بفترته الزمنية، وقيل لماكس إن المسؤولين عن كل فترة مُنحوا لقب القيّم. ووجد أنه من المدهش أن يكون شخص واحد مسؤولاً عن قرن كامل من التاريخ والحضارة.

وأينما ذهب ذُهل بمحتويات المتحف. وفي أثناء جلوسه في غرفة الانتظار خارج مكتب المدير، تأمّل بمزاج عصبي كيفية تمكّنه من إقناع المدير بمنحه الإذن لتصوير الفيلم.

"يمكنك الدخول الآن". قالت موظفة الاستقبال المبتهجة لماكس بينما كانت تُدخل تحسينات على مظهر ساريها. وبعد ثوانٍ قليلة، جلس ماكس أمام رجل طويل القامة، مثير للإعجاب، في العقد السابع من عمره، ولديه لحية بيضاء، ويضع نظارة.

إنه في. أس. نايبول الذي شغل منصب مدير المتحف لأكثر من عشرين عاماً. وبينما كانا يتحدثان، شعر ماكس أنه لا يزال يملك ذلك الفضول الفكري نفسه الذي جعله بحّاثة مَهيباً يشغل المنصب الذي يرغب فيه الجميع بقوة. كانت عيناه تشعّان حكمة ومعرفة.

"تقوم سياستنا على عدم السماح بتصوير أي شيء في هذا المتحف". شرح بطريقة واقعية: "تحفنا الفنية القديمة دقيقة تماماً، ولا يمكننا السماح بنقل أي منها عندما لا تكون هناك حاجة إلى ذلك بسبب ما قد يلحق بها من ضرر يستحيل إصلاحه".

"تتمثل مهمتنا بالمحافظة على تحفنا الفنية القديمة لصالح البحّاثة والجمهور الهندي". أضاف: "إذاً، لماذا يُفترض بنا السماح لك بالتصوير؟".

فَوَزَن ماكس كلماته بعناية.

"لستُ واثقاً من أنك ستسمح لنا بالتصوير". قال بصدق: "في أثناء عبوري المتحف للقائك اليوم، لاحظتُ مدى تميّز العديد من المعروضات ودقّتها".

"لقد درست الأدب والأنثروبولوجيا في جامعة يال، وأجريت العديد من الأبحاث حول مكتبة الكتب النادرة في حرم الجامعة. فعلى غرارك، لم تكن سياسة يال تسمح بالتقاط صور لأي شيء. ومع ذلك، كانت هناك استثناءات في مناسبات نادرة. أعتقد أن مشروعنا المدعوّ *البحث عن ألغاز قديمة* قد يستحق استثناءً مماثلاً من قِبل متحفكم".

"ولماذا بالتحديد؟ ما المميَّز في فيلمكم؟". قال في. أس. نايبول، مُصرّاً.

"أحد أهداف فيلمنا هو إظهار التكنولوجيات المتقدمة في الحضارات القديمة". قال ماكس بصراحة وصدق تامّين. "يشير بحثنا إلى

وجود نصوص قديمة باللغة السنسكريتية هنا في متحفكم توثّق وجود آلات طائرة قديمة في الهند منذ قرون. نريد تصوير تلك النصوص وإجراء مقابلات مع خبراء قد يكون في إمكانهم تأكيد وجود هذه الآلات الطائرة بالفعل".

ارتسمت ابتسامة على وجه نايبول.

"أنا بحّاثة في اللغة السنسكريتية، وقرأت النصوص التي ذكرتها. تعود معرفة الآلات الطائرة في الهند إلى أكثر من ألف عام. وتعود النصوص الوحيدة في متحفنا والتي توثّق آلاتنا الطائرة القديمة إلى القرن الخامس عشر، ولكنني أعرف بوجود نصوص قديمة أخرى تحتوي على مراجع عديدة تصف تصميم هذه الآلات وقدراتها".

أخبر ماكس أنه درس في أوكسفورد، وكان يتعرض للسخرية على الدوام من قِبل زملائه البحّاثة عندما يعلن أن أولى الآلات الطائرة لم يطوّرها كيتي هوك في الولايات المتحدة بل تم تطويرها في الهند. وأكد أن نصوص المتحف تحتوي على رسوم توضيحية، ولكنه قال إن ماكس سيكون بحاجة إلى موافقة القيّم على القرن الخامس عشر لتحريك النصوص وفتحها من دون إلحاق الضرر بها. وإذا منحه الإذن، يكون الأمر استثناء لسياسته العامة، كما قال، فيسمح لهم بالتصوير.

وازدادت حماسة ماكس عندما أدرك أنه على شفير اختراق هام. ولكن الوقت هو الأساس بما أنه يجب توجيه رسالة الأذونات في اليوم التالي.

فاستُدعي القيّم على القرن الخامس عشر، وعندما وصل، تم تعريف ماكس إليه على أنه "بي. أن.".

كان رجلاً في أواسط العقد الثالث من عمره، رماديّ الشعر، معسول اللسان ولطيفاً. لقد درس في جامعة بوسطن في الولايات

المتحدة، وحصل على مقررات دراسية عدة في الرياضيات المتقدمة والأنثروبولوجيا بينما كان يعمل للحصول على شهادة متقدمة في علم الآثار.

وشاءت الصُّدَف أن يكون قد تلقى علومه على أيدي أساتذة درسوا مع أساتذة في يال. فبعض هؤلاء الأساتذه قاموا بتدريس ماكس.

لقد بدا الأمر كما لو أنه اجتماع عائلي ثقافي.

وأُقفل المتحف، وبات بي. أن. مستعداً لمرافقة ماكس في أرجاء رَدهة القرن الخامس عشر وتعريفه إلى المعروضات كافة من دون مقاطعة. وكان المخطوط الذي يتعيّن تصويره في حالة جيدة، ولن تُطرح أي مشكلة إذا فُتحت صفحاته التي تشير إلى الآلات الطائرة القديمة.

وطمأن ماكس بأنه سيتأكد من قيام في. أس. بتوفير الإذن المطلوب وتمكينه من التقاط الصور بعد ظهر اليوم التالي. ودعا ماكس إلى مرافقته إلى منزله لتناول العشاء.

"أعرف أن عائلتي ستكون سعيدة بلقائك". قال بحرارة، وأضاف: "يتعيّن علينا الذهاب بواسطة القطار".

* * *

لقد بدا لماكس كما لو أن الجميع في دلهي موجودون في المحطة. ومرّ بي. أن. عبر الحشود، وعثر على قطاره، وشق طريقه إلى مقصورة تحتوي على ثمانية مقاعد محجوزة. كان هناك ستة بَرَهْميّين آخرين من الطبقة العليا، على غرار بي. أن. جالسين، فسلّم على كلٍّ منهم كما لو أنه يعرفهم بسبب تنقّلاتهم التي لا تُحصى ولا تُعَدّ.

كان الركاب الأقل حظاً يجلسون خارج المقصورة على أرض القطار، وأولئك المتمسكون بأعلى القطار يتشبثون بحياتهم العزيزة

كلما تمايل إلى الأمام والوراء عندما يتوقف وينطلق كل خمس أو عشر دقائق.

ومن نافذة المقصورة، شاهد ماكس الحقول والعمال العائدين إلى منازلهم في البلدات الصغيرة القائمة على امتداد الطريق. كان الأمر أشبه بالعودة في الزمن قرناً إلى الوراء أو أكثر.

عندما خرجا من القطار بعد أربعين دقيقة، كانوا في بلدة صغيرة ذات شوارع قذرة حيث يقود عدد كبير من الأطفال دراجات هوائية، ويمارسون لعبة رَكل الصفيحة المعدنية وألعاباً أخرى. وأثار ماكس ولون بشرته الفاتحة فضول الأطفال، قام العديدون بفركه للتحقق مما إذا كان مطليّاً بذلك اللون الأبيض الزهريّ الغريب الذي يوجد تحته اللون الأسمر المماثل للون أجسادهم.

ومازح بي. أن. الأطفال، والتفت إلى ماكس ليشرح الوضع.

"بالرغم من كوننا على بُعد عشرين ميلاً فقط من نيودلهي، أنت أول شخص أبيض يراه هؤلاء الأطفال. يظنون أنها خدعة ولا يمكنك أن تكون بهذا البياض".

"ويتساءل آخرون عما إذا كنتَ مريضاً. فمدارسنا بدائية في هذه البلدة، والأطفال في هذه القرية يعيشون في عزلة تامة باستثناء عائلتي وعائلات بَرَهمية أخرى. هم لا يعرفون أي شيء عن العالم الخارجي. لم يسبق لهم أن سمعوا بأميركا".

بعد خمس عشرة دقيقة من السير في الشارع المكسوّ بالغبار، والذي تقوم على جانبه أشجار لَيلك، دخل بي. أن. وماكس بوابة باحة منزل العائلة. كان المنزل المؤلف من طابق واحد منبسطاً ويتباهى بفناء كبير. كان هناك رُواق خارجي مسقوف وواسع يمتد على

ثلاثة جوانب وعليه كراسٍ، وطاولات، وأُرجوحات للنوم، يشغلها أكثر من عشرين شخصاً.

ويعيش في منزل العائلة عدد مساوٍ، أو أكبر، من النساء، كما شرح بي. أن، ولكنهنّ كنّ في المطبخ يساعدنَ على إعداد الطعام، أو يسترخين في غرف التجمع الكبيرة داخل المنزل.

فعرّف بي. أن. كل أفراد عائلته إلى ماكس؛ زوجته وابنته الصغيرة، والده، وعدد كبير من الأنسباء الآخرين. كان الجميع يرتدون ملابس بسيطة مع ثياب هندية تقليدية وعلى وجوههم ابتسامات رِضى. وفي أثناء تعرّض ماكس لسؤال تلو الآخر بلغة إنكليزية خالية من الأخطاء، أدرك أنه بالرغم من الفقر البادي على المحيط، فهذه المجموعة مؤلفة من أشخاص مقتدرين ومطّلعين. كانوا محترفين، ومنهم المهندسون المعماريون والأساتذة والمهندسون المدنيون الحائزون على أعلى الشهادات، وقد سافر عدد كبير منهم إلى الخارج لتحصيل العِلم والعمل.

وقُرابة نهاية المساء، كان ماكس جالساً في الفناء المكشوف عندما قامت امرأة بتقديم الشاي إليه في أثناء تبادل أطراف الحديث مع غوبتا، عمّ بي. أن.، كان نحيلاً، ولائقاً، في الخمسين من عمره، عاش في إنكلترا ودرس الفلسفة في جامعة أوكسفورد. كان مفكراً حقيقياً حائزاً على شهادة متقدّمة في الهندسة المعمارية من جامعة كامبريدج، إضافةً إلى شهادة في علم الاقتصاد من كلّية لندن لعلم الاقتصاد.

في سنّ الخامسة والثلاثين، أصبح المدير الإداري لجامعة دلهي. كان بي. أن. يُذعن له على غرار أشقائه الخمسة، ويطلبون على الدوام نُصح العمّ غوبتا في أمور تتعلق بالمهنة، أو السياسة، أو علم الاقتصاد.

إنه أول شخص يستمتع ماكس معه بمناقشة الأفكار المعقّدة لسبينوزا، ووايتهيد، والفلاسفة الآخرين المفضّلين لديه، منذ أن منعته يال من دراسة الفلسفة.

وشاطر ماكس أيضاً العمّ غوبتا حادثةً وقعت في اليوم السابق في أثناء قيام مراسل *هندوستان تايمز*، وهي أكبر صحيفة في الهند باللغة الإنكليزية، بإجراء مقابلة معه.

لم يطلب إجراء هذه المقابلة، ولكن بوّاب الفندق اعتبر أن الأمر جدير بالمحاولة بعد اطّلاعه على مشروع ماكس، واتصل بالمراسل. كان ماكس قد حاول أن يشرح له أنه ليس المسؤول عن الفيلم، ولكن البوّاب رفض الإصغاء إليه.

"يا لحماقتك، يتضح من هالتك أنك الشخص المسؤول. لا يمكن إتمام هذا الفيلم من دونك". قال بالرغم من اعتراضات ماكس.

"أتعاطى مع الأشخاص الأكثر اقتداراً في العالم، ويمكنني التأكيد لك أنك رجل مميَّز جداً. في الواقع، يمكنني أن أتبيّن من خلال هالتك أنك لا تتمتع بأي كرما(*)، ولكنك هنا في مهمة خاصة لمصلحة الآخرين".

وضحك غوبتا عندما نقل له ماكس الحديث، ولكنه أحفل ماكس بتعليقه التالي.

"لست واثقاً من سبب تكبّده عناء قول ذلك لك". قال غوبتا: "ولكن الأمر جدير بالمحاولة حقاً. أنا أيضاً أستطيع قراءة هالتك، ولا شك في أنك لم تولد في حالة الكرما".

"مع ذلك، لا تدَع الأمر يُربكك. فأنت مسؤول عن أعمالك هنا حتى وإن لم تكن تتمتع بأي كرما، ولا شك في أنك حققتَ بعض

(*) الكرما: هي العاقبة الأخلاقية الكاملة لأعمال الفرد في طور من أطوار الوجود (القدر).

الكرما في حياتك. لستُ خبيراً في هذه المسائل وأوليها قليلاً من الاهتمام لأن الحياة بحد ذاتها زاخرة بالتحديات. لا أظن أنك بحاجة إلى إرباك نفسك بهذه النظريات الفلسفية. تابع فقط التركيز على عملك، وستعيش حياة طويلة ومنتجة".

بعد ذلك، شعر ماكس بما يكفي من الارتياح لمشاطرة غوبتا خبرته مع ماريا. وفي أثناء مواصلتهما مناقشة طبيعة الزمن والحيِّز الزمني، حاول ماكس تطبيق نظرياتهما على ما كان قد خبره.

"هل لا تزال تلك اللحظة التي خبرتُها موجودة؟ هل من المقدَّر لماريا ولي أن نتشاطر الحياة معاً؟ وهل نتشاطر هذه الحياة في أثناء تحدّثنا؟".

"باختصار، نعم". أجاب غوبتا: "تدوم هذه اللحظات إلى الأبد، ولكن إذا لم تكن موجوداً معها الآن، ولا تسمح لك الظروف أن تكون معها في المستقبل، عليك ألا تقلق في هذا الشأن. فالاختبار الذي مررتَ به يحملك على الشعور بأن وضعك آنذاك حدث معك من قَبل. هو ليس علامة لحياة مستقبلية، ولست بحاجة إلى السعي وراءه".

فصُدم ماكس قليلاً بسبب مقاربة غوبتا العملية، ولكنه تأثر بحكمته وأراد التحقق من شعوره حيال أحداث روحانية أخرى.

وفكر مليّاً في مشاطرته حدث اختباره حالة النورانية والأسماء الاثني عشر التي رآها، ولكنه قرر عوضاً عن ذلك أن يسأل غوبتا عن رأيه بممارسي اليوغا وبالمعلمين الهندوس الذين يذيع صيتهم في الولايات المتحدة.

"يستطيع ممارس حقيقي لليوغا السفر إلى أي مكان في الكون". شرح غوبتا: "لقد تعرفتُ إلى هذا النوع من الأشخاص، وقد كانوا استثنائيين. هم لا يعلنون عن قدراتهم ولا يحاولون جني المال من خلال القيام بخدع".

فتفاجأ ماكس إلى حدٍّ ما بالثقافة الواسعة التي يتمتع بها هذا الرجل، وقرر مواصلة الحديث معه.

"تعني أنه في استطاعة ممارس حقيقي لليوغا الذهاب إلى أي مكان في الكون بواسطة فكره؟".

"لا". قال غوبتا مصحِّحاً: "يمكنه القيام بذلك بواسطة جسده".

عندئذٍ، دنا بي. أن. من ماكس وأشار إلى ساعته.

"لا مزيد من القطارات لهذا المساء، لذلك يتعيّن عليك العودة بالحافلة، ويجب علينا أن نوصلك إلى المحطة على الفور وإلا أغفلتَ آخر رحلة بالحافلة إلى المدينة"، قال محذِّراً، "هناك عربة يجرّها شخص في الانتظار". وبينما كان ماكس يقف ويستعد للمغادرة، أضاف بي. أن.

"ربما أراك عندما تعود إلى التصوير". وسلّم ماكس بطاقته التعريفية. "لنبقَ على اتصال".

* * *

هكذا، وجد ماكس نفسه على متن حافلة متجهة إلى دلهي القديمة. ولم يكن ركاب الحافلة جديرين بالاحترام على غرار ركاب القطار، وبدوا أشراراً في الواقع.

وعندما ترجّل من الحافلة، بدا الأمر أكثر سوءاً. كان يحيط به نشالون، ولصوص شائعون، وقوّادون، وفتيات ليل، ومتسوّلون، وأشخاص على شفير الموت، ومرضى، ومتشرّدون. ومبقياً وجهه نحو الأسفل، وشاقّاً طريقه باتجاه عربة يجرّها شخص، تمكن من الفرار من نتانة الخوف والمرض اللذين يغلّفان المحطة نفسها.

وفي غضون دقائق، عاد ماكس إلى فندق أشوكا بالايس وتوجه إلى غرفته. وشعر بقليل من الدهشة عندما رأى ماسح الأحذية نائماً في

الكوّة خارج باب غرفته. فعرف أنها عادة متوارثة منذ زمن الحكم الإنكليزي للهند، إذ يترك نزلاء الفندق أحذيتهم خارج أبواب غرفهم ليتمّ تلميعها وإعدادها لتكون صالحة للانتعال في صباح اليوم التالي. لم يسبق له أن فكر أبداً في كيفية تلميع حذائه.

فاعتذر بسبب إيقاظ الرجل الذي تمثل ردّ فعله الوحيد بسؤال ماكس عن حذائه. فسلّمه إيّاه.

بعد دخول الغرفة، استسلم ماكس للنوم بسرعة ما إن لامس رأسه الوسادة.

ومع ذلك، فقد استيقظ مراراً في أثناء الليل ليجد جسده طافياً فوق السرير. فيظن أنه يحلم، ولكنه كان يمد يده ويدرك أنه غير مُستلقٍ على الفراش.

كان يحوم في الهواء من دون الاتكاء على أي شيء، سابحاً فوق السرير. ومن دون أي إنذار، شعر ماكس بحضورٍ يمسك يده اليسرى. بدا الأمر كما لو أنها يد بشرية، ولكنها أكثر خفة. فأدرك أنه جسد نوراني يملك ميزات الجسد البشري كافة، ولكن لا كثافة له. وخاطبه صوت قائلاً:

"لا تخف، أنا ممارس يوغا أرسلني غوبتا. لقد استمتع بالحديث معك هذا المساء ويريدني أن أُريك حقيقة ما أخبرك به".

"يمكننا الذهاب إلى أي مكان ترغب فيه في الكون". وسأل ممارس اليوغا: "إلى أين تريد الذهاب؟".

فقال ماكس بشكل فطري من دون أن يعي ما الذي يجري.

"إلى القمر".

وفي لحظة من الزمن، شعر بجسده الخفيف يسافر إلى القمر. كان بجسده المادّي، ولكن من دون كثافة على غرار جسد ممارس اليوغا،

محتفظاً بمزاياه كافة وأحاسيسه وبقدراته على التفكير والتحدث والمشاهدة.

كان القمر رمادياً وبلا حياة، ولكنه يحمل طابعاً غبارياً وسائلاً في الوقت نفسه. كان شفافاً تقريباً ويوحي بانعدام الوزن في أثناء وثوبه من مكان إلى آخر، مما حدا بماكس على الظن أحياناً أنه قد يقع على القمر. وبعد قليل، خاطبه ممارس اليوغا مجدداً.

"إلى أين تريد الذهاب أيضاً؟".

كان لا يزال مُربَكاً إلى حدٍّ ما، ولكنه تمكن من الإجابة.

"خذني إلى الكوكب الذي تحيط به حلقات".

على الفور، وجد ماكس نفسه في مكان يوحي بأكبر قدر من الإحساس باللون البرتقالي الذي لم يسبق له أن اختبره من قَبل. إنه لون لم يرَ ماكس مثيلاً له على الأرض، لون واضح وساطع يُثبت أنه اختبار حقيقي وليس مجرّد حلُم أو خيال.

وأمضى ما بدا أنها ساعات عدة منتقعاً باللون البرتقالي للكوكب، ولكنّ ممارس اليوغا خاطبه مجدداً.

"إلى أين تريد الذهاب أيضاً؟".

"أه، هذا يكفي لأمسية واحدة". أجاب ماكس: "في استطاعتنا العودة الآن. ينتظرني يوم شاق".

وبسرعة وصولهما إلى القمر والكوكب البرتقالي، عادا إلى غرفة الفندق في فندق أشوكا بالايس القديم.

كان جسد ماكس الذي يتمتع بكثافته المعتادة طافياً على ارتفاع ست بوصات من السرير، ولا يزال ممارس اليوغا ممسكاً بيد ماكس الذي شعر أن جسده الخفيف عاد إلى كثافته الطبيعية.

وشعر أن ممارس اليوغا يبتسم له ويغادره، وهبط جسد ماكس ببطء على السرير، ونظر إلى الساعة.

إنها الرابعة وأربع وأربعون دقيقة صباحاً.

فقرص نفسه للتحقق من أنه لا يحلم، وعاد إلى النوم.

عندما استيقظ بعد أربعين دقيقة فقط، نظر حَوله في أرجاء الغرفة للتحقق من أنه لا يزال في فندق أشوكا بالايس. ونهض عن سريره، ونظر عبر النافذة إلى المَرجة الخضراء، وشم هواء الصباح، ونظر إلى الزهور والفاكهة الموجودة على طاولة غرفته، وابتسم متأمّلاً رحلته الليلية.

ونظر إلى نفسه في المرآة ليتحقق مما إذا كان ماكس نفسه الذي كان عليه في اليوم السابق. وشكك في لحظة من الزمن في الاختبار كلّه، ولكنه لاحظ توهجاً في وجهه، ورأى للمرة الأولى الجسد الأثيري ضمن جسده، شيئاً لم يره من قَبل.

* * *

في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، عاد ماكس إلى المتحف الوطني، وتمّت مواكبته إلى مكتب المدير. فابتسمت السكرتيرة في أثناء تسليم رسالة إلى ماكس.

"شغلتُ منصب سكرتيرة المدير طوال أكثر من خمسة عشر عاماً". قالت، وبدت الإثارة في صوتها: "إنها المرة الأولى التي يُطلب مني طباعة رسالة تمنح الإذن لشخص ما بالتصوير. لا بد من أن مشروعك على قَدر كبير من الأهمية. أهنّئك".

وأخذ ماكس الرسالة إلى مكتب بروجاب أكبر بعد ظهر ذلك اليوم، وعندما فتح رئيس الشؤون الثقافية المغلف، ظهرت على وجهه ملامح عدم تصديق كامل، وخيبة أمل.

"أعترف أنني مندهش". قال بصدق: "ولكن المدير يمنحك وفريق عملك الإذن للتصوير في المتحف، وهذا ما سيحدث. لقد عُيّن لك

مشرف للتصوير، وسيلتقيك وفريق عملك في فندقك يوم الثلاثاء عند التاسعة صباحاً".

وخرج ماكس من المكتب، ومرّ أمام القردة التي ترتدي بذلات حمراء، وواصل البحث عن المواقع المتبقية الواردة في لائحته؛ المرصد الفلكي القديم في دلهي وكهوف أجانتا خارج بومباي.

فهذه الأماكن هي بعض من الألغاز غير المحلولة التي تشكل جوهر الهند.

* * *

كان ماكس يعلم أنه يتعيّن عليه أن يكون في المطار عند الرابعة من صباح اليوم التالي لإنهاء المعاملات الجمركية وإخراج فريق عمله إلى فندق أشوكا بالايس، لذلك تناول عشاءً باكراً واستعد للخلود إلى السرير.

وفي أثناء إفراغ جيوبه، قرأ بطاقة بي. أن. التعريفية للمرة الأولى.

القيّم على القرن الخامس عشر

المتحف الوطني في دلهي

براما نيبال ماهارز

لقد صُعق للمرة الثالثة بسبب مروره بحالة من الوضوح المفاجئ والإلهام المذهل.

فبي. أن. هو براما نيبال ماهارز، الاسم الثالث بين الأسماء الاثني عشر.

إن القيّم على القرن الخامس عشر مرتبط بماكس على نحو يتخطى منح الإذن للتصوير في المتحف الوطني.

على متن الطائرة إلى اليابان

آب/أغسطس 1973

بعد التحديات التي واجهها في أثناء إعداد مجموعة بسيطة من النسخات في دلهي، كان ماكس مستعداً لدى بلوغه اليابان للتعاطي مع مجتمع التكنولوجيا المتقدمة المنظّم والفعال المؤلف من سكان مدينة طوكيو.

كان قد تمّ استخدام مترجم، واستئجار سيارات، وتأمين سكرتيرات، وكانت الاتصالات بالولايات المتحدة سهلة نسبياً. وما لم يكن سهلاً في الواقع أهم في شهر آب/أغسطس الذي تبدو فيه اليابان كلّها في إجازة، كان ماكس قد خطط لاصطحاب فريق العمل إلى هوكايدو، وهي الجزيرة التابعة لليابان والواقعة في أقصى الشمال حيث يعيش الآينو، وهو عرق أبيض البشرة.

فلا علاقة لهذا العرق أبيض البشرة ببقية سكان اليابان. وهناك تأويلات كثيرة حول هويّتهم والمكان الذي قدموا منه، ويقترح بعض الناس أنهم متحدّرون من حضارة أجنبية.

شعر ماكس أنه مكان بعيد غير ضروري بالنسبة إلى فريق العمل. وعندما وجد أنه من المستحيل حجز رحلة جوية لفريق العمل، ألغى التصوير في ذلك الموقع وأخبر أعضاء فريقه أنهم سيلتقطون مشاهد في المتحف الوطني بدلاً من هوكايدو.

في تلك المرحلة، كان مقتنعاً أن نظرية فون دانيكن عن رواد الفضاء القدماء غير قابلة للتصديق تماماً. كان قد بحث - كما يقضي عقده - عن ألغاز قديمة أينما أودت به عملية البحث، وعاين أكثر من عشرة ملايين قطعة موجودة في متاحف العالم ووجد ست قطع فقط من صنع الإنسان يمكن نَسبها إلى رواد فضاء قدماء أو سفن فضاء قديمة.

فالعثور على ست قطع بين مجموعة عشرة ملايين قطعة هو أمر جيد. وكلما تابع البحث ازداد إحباطه بسبب عدم جدوى إعداد الوثائقي التلفازي بالاستناد إلى الألغاز غير القابلة للتصديق التي كشف النقاب عنها.

وهناك ألغاز ستوهنج وجراحة الدماغ التي أُجريت قبل ستمئة عام في البيرو وتُثبت أن الحضارات القديمة كانت تمتلك تكنولوجيات مثيرة للاهتمام فُقدت بطريقة ما. وشعوب الأزمنة القديمة مثيرون للإعجاب بهندستهم المعمارية، وتكنولوجياتهم، وتنظيمهم الاجتماعي، وفنّهم. لقد بدا الأمر كما لو أنه لا حدود لما يستطيعون تحقيقه، ولم يجد أن هناك حاجة إلى إدخال شخصيات من الفضاء الخارجي إلى حبكة الرواية لتطويرها.

ففي الحالة التي اختبر فيها خروجه من جسده عناصر غريبة مرتبطة بمرحلة لاحقة، ولكن من الغريب أنه لم يفكر في أن الأمر مرتبط بالفضاء الخارجي. ولم يبدُ الأمر غير مألوف بالنسبة إلى ماكس. في الواقع شعر في أثناء الرحلة الجماعية بسلام داخلي وبشعور بالانتماء.

هل ذلك يعني أنه من حضارة غريبة؟ إذا كان في استطاعة ممارسي اليوغا مغادرة كوكب الأرض والعودة إليه، فهل يُعتبَرون أغراباً أيضاً؟

لم يعتقد ماكس ذلك. لقد التقى بالتأكيد بكثير من الأشخاص في حياته، قال في نفسه، وظنّ أنهم قد يكونون من كوكب آخر، على رأسهم شقيقه، لويس. ولكن الأكثر إثارةً للاهتمام من إمكانية وجود المخلوقات الأجنبية بأنواعها كافة على كوكب الأرض هو رؤية دليل على ذلك.

فتأمّل هذه الأفكار بينما كان في سيارة أجرة متوجهاً إلى المتحف للإعداد لالتقاط مشاهد مصوَّرة. كان قد حصل على الأُذونات بسهولة نسبية، وتعرّف إلى المعروضات التي ينوي زيارتها، مستعيناً بكتيّب.

ولدى دخوله المبنى، وقع الكتيّب من يده وهمّ بالتقاطه. وعندما انحنى، سمع صوت تمزّق مرتفع.

عندما تحقق من الأمر، أدرك أن درزة موجودة في ناحية البنطال حيث يجلس تمزّقت وأحدثت فتحة بقياس ثماني بوصات، كاشفةً عن ملابسه الداخلية. فشعر بالإحراج ولم يكن واثقاً بما يتعيّن عليه القيام به.

فحاول أن يشرح الأمر للحارس الموجود عند مدخل المتحف، قائلاً إنه بحاجة إلى إبرة وخيط. ولكن الحارس لم يفهم ما قاله ماكس، إضافةً إلى أن أدوات الخياطة لم تكن من مهامه.

وعندما حاول ماكس تحديد خطوته التالية، دنت منه امرأة يابانية عرّفت بنفسها قائلةً إنها يوكو. كانت ترتدي فستاناً أصفر برّاقاً متمّماً لشعرها الأسود ومظهرها الذي لا عيب فيه، وتتكلم الإنكليزية بشكل ضعيف.

"تعالَ معي. يمكنني مساعدتك". قالت.

فاقتادته يوكو إلى باب غرفة الرجال.

"ادخل وأعطني بنطالك". قالت لماكس الذي لبّى مطلبها بالرغم من شعوره بالإجفال.

وجلست على كرسي بجانب حارس الأمن، وبعد دقائق قليلة، سلّمت ماكس بنطالاً قد تمّ إصلاحه مرمَّماً على النحو الأمثل.

"شكراً جزيلاً لك". قال بامتنان، وأضاف: "رجاءً، هلاّ انضممتِ إليّ في جولتي في أرجاء المتحف. أعمل لصالح التلفاز الأميركي وأختار ما يجب تصويره لفيلم وثائقي".

فابتسمت يوكو خجَلاً.

"حسناً". قالت، وأمضيا الساعتين التاليتين في مشاهدة المعروضات وقيام ماكس بتدوين ملاحظات عن قطع متنوعة للتصوير.

"عملك مثير جداً للاهتمام". قالت يوكو: "لقد استمتعتُ كثيراً بمعرفة بعض الأمور عن الألغاز اليابانية".

"حسناً، لقد استمتعتُ كثيراً برفقتك". أجاب: "رجاءً، هلاّ انضممتِ إليّ لتناول العشاء".

وابتسمت يوكو خجَلاً مرةً أخرى.

"هل أنت واثق من ذلك؟".

"أجل". أجاب: "أنا بمفردي وهناك سبب للاحتفال بما أنه المكان الأخير هنا في اليابان. رجاءً، ساعديني على الاحتفال".

"إذاً، أنا موافقة". أجابت بلغتها الإنكليزية الضعيفة: "سيكون من الممتع أن أنضم إليك".

وعثر ماكس بسرعة على سيارة أجرة، وغامرا بالذهاب إلى الفندق حيث يقيم. كانت غرفة الطعام هناك مطعماً من الدرجة الأولى، وشجع ماكس يوكو للانضمام إليه لتناول وجبة مُتقَنة.

في أثناء العشاء، تبدد بعض الحياء لدى يوكو وتحدثت عن حياتها. كانت وكيلة سفريات وخياطة، وهي الابنة الوحيدة والصغرى لعائلة عامل مصنع، وتنتمي إلى الطبقة الوسطى، ولديها خمسة أشقاء وسبعة

أبناء وبنات أشقاء، وتعيش بمفردها في استوديو صغير قائم في المبنى نفسه الذي يوجد فيه والداها المسنّان، وتقع على عاتقها مسؤولية الاعتناء بهما.

وشرحت يوكو أنها وُلدت خطأً عندما كانت والدتها في الثالثة والأربعين من عمرها. ولا تزال تتذكر الرُّعب الذي تعانيه طفلة صغيرة في أثناء الحرب العالمية الثانية، وبعد سقوط القنبلة الذرية.

بالرغم من ذلك، كانت تستمتع بكونها وكيلة سفريات، وأكثر ما تفضّله في الحياة الحصول على إجازة أسبوعين كل عام للذهاب إلى هاواي، أو باريس، أو أماكن غريبة أخرى، مع الحسومات التي تحصل عليها من وكالة السفريات التي تعمل لديها. وكشفت عن اعتقادها أنها لن تتزوج أبداً، وتشعر كما لو أن أبناء وبنات أشقائها هم الأطفال الذين رغبت في إنجابهم يوماً.

وعندما أنهت قصتها، طلب ماكس زجاجة من شراب خفيف للاحتفال بنهاية أسابيعه الاثني عشر من العمل المستمر المُرهق. ووصف بعض المغامرات الأكثر إثارة للاهتمام التي اختبرها، وكانت يوكو تضحك في أثناء تناول الشراب. لم تكن معتادة على تناول المشروبات، وقالت أخيراً لماكس إنها لا تشعر أنها في وضع يسمح لها بالذهاب إلى المنزل بمفردها. وسألت ماكس عما إذا كان في إمكانها النوم قليلاً في غرفته بالرغم من أن الأمر مُعيب، فوافق.

وبعد قليل، كانا مستلقيَين على السرير قُبالة بعضهما بعضاً، ولم يكن في الإمكان مقاومة مزيج الشراب وتقرّبهما الوثيق من بعضهما بعضاً.

لم يُقم ماكس علاقة حميمة مع امرأة منذ بداية أسفاره، وشعر أن يوكو لم تُقم ربما علاقة حميمة مع رجل منذ عدة سنوات. فما بدأ

ملامسات لطيفة أدى سريعاً إلى تطوّر الأمور بينهما، وشعر ماكس باتزان جسده وعقله وروحه مع يوكو. لم يسبق له أبداً أن تحسس بشرة بنعومة ملمس بشرة يوكو، وكانت هشة بقدر هشاشة دمية من البورسلان.

* * *

عندما استيقظ في صباح اليوم التالي، كانت يوكو قد رحلت.

ولاحظ أنها تركت بطاقتها التعريفية على الطاولة الموجودة بجانب السرير، وعليها اسمها الكامل وعنوانها وملاحظة جاء فيها:

وجودي معك كان أمراً رائعاً. لتكن عودتك إلى أميركا ميمونة وراسلني إذا أردتَ العودةَ مجدداً إلى اليابان.

XOXOXO (قبلة، معانقة)

يوكو

وكان الاسم على البطاقة:

مياكو ميتسوي

من الواضح أن يوكو هو لقب تحبّب. وأدرك ماكس بوضوحٍ ما بات مألوفاً، وبذهول، أن اسم مياكو ميتسوي هو الاسم الرابع على لائحة الاثني عشر.

وأدرك أن التزامن قد بدأ يغدو الأمر السائد، وتساءل عن القوى التي توجهه كما يبدو من دون أن يَعي ذلك. فأيّاً تكن هذه القوى، يبدو أن تأثيراتها تتسارع.

ومع ذلك، لم يعرف بعد مكان وجود تلك القوى التي تقوم بتوجيهه. ما لغز الاثني عشر؟ لقد باتت هذه المجموعة المنوّعة من الأسماء أمراً جديراً بالتصديق. ولكن لماذا يلتقي بهؤلاء الأشخاص؟

فرحلته إلى تروجيلو لم تحدث إلا بسبب خوفه مما قد يحدث إذا عاد إلى بوليفيا، ومع ذلك، فقد التقى ماريا في تروجيلو.

ويمكن نَسب لقائه بيوسكي إلى العمل الذي جمعهما، ولكنّ لقاءه بيـــي. أن. جاء نتيجةً للموضوع الذي أراد في. أس. نايبول مناقشته.

حتى إن زيارته إلى متحف طوكيو جاءت نتيجة عدم قدرته على الوصــــول إلى منطقة الآينو، ولم يكن في إمكان أحد توقّع تمزّق بنطال ماكس.

ويبقى الافتقار التام إلى الصلة بالأسماء الأربعة الأمر الذي لا يمكن دحضه.

الفصل الثاني عشر

أحداث الحياة تتكشف

1976-1973

عـــاد مـــاكس إلى الـــولايات المـــتحدة وإلى أســـلوب حـــياة عادي.

كان على الدوام ابناً مطيعاً، وكان السبب الرئيس وراء عمله في شـــركة النشر هو مساعدة والده الذي سبق له أن أصيب بنوبة قلبية. وبعد عودة هربرت إلى حالته الطبيعية، قرر ماكس التدريس.

فعـــاد إلى أكاديمـــية فيليبس في أندوفر، ماساشوستس، لتدريس الإسبانية لمدة عام، محاولاً أن يطبع في نفوس طلابه بعض الحماسة التي اكتسبها من السّنيور إغليزياس قبل أعوام.

ولكـــن مهمته في أندوفر كانت بديلاً مؤقتاً، وعندما انتهى العام الدراســـي، تلقـــى منحة من المؤسسة الوطنية للسلامة العقلية لدراسة الأنثـــروبولوجيا الثقافية في جامعة هارفرد. وبعد ستة أشهر من وجوده في هارفرد، أدرك ماكس أنه أخطأ.

لقـــد اكتشف أن الأنثروبولوجيا لم تعُد تتناول دراسة الشعوب الأصلية. في الحقيقة، لم يتبقَّ سوى القليل من المجموعات الأصلية، وبدا أن مجـــرد الاتصال بالحضارة الغربية العصرية يحكم على أي من القبائل الأصلية القليلة المتبقية بالزوال التدريجي أو الفوري.

وأدرك أن البشر العصريين يتطورون في الواقع ليغدوا ما يدعى *كائنات غير بشرية*. فكتب بحثاً عن الموضوع لم يقدّره أساتذته حق قدره. وشرح في بحثه أن الصفات الأساسية التي تجعل البشر "بشراً" على طريق الزوال.

ومن جهة أخرى، شعر أساتذته في هارفرد أن بحثه يضفي الطابع الرومانسي على الحضارات البدائية، ولكن ماكس بقي على قناعته أن أمراً جوهرياً فُقد عبر السعي المتهور وراء التكنولوجيا والراحة المادية والوَفرة.

وشاهد أولى الأفلام السينمائية عن التراث العِرقي مثل *نانوك الشمال*، آخذاً في الاعتبار خبراته الخاصة التي اكتسبها جرّاء اختلاطه بالشعوب المعزولة في الأمازون، والهند، والأنديز، وأماكن غريبة أجنبية أخرى كان قد زارها في أثناء صناعة الأفلام وإجراء بحث أنثروبولوجي. واستنتج أن فن العيش بتناغم مع الطبيعة قد فُقد.

لقد طوّرت بعض هذه الشعوب البدائية وسائل لزراعة الحدائق تُعتبر أعمالاً فنية إضافةً إلى كونها مصادر للتغذية، كما ابتكرت تصاميم هندسية غيّرت اللون مع تغيّر الفصول، ولا يمكن اكتشاف هذه التصاميم في غالب الأحيان إلا لدى النظر إليها من سفوح التلال المشرفة على الحقول. ومن جهة أخرى، فقد بدا له أن بذل كل هذا الجهد في عمل زراعي جمالي لضمان إنتاج محصول ثانوي هو أمر لا يمكن تخيّله.

ولاحظ أن حضارات أخرى طورت شعائر خاصة بالرقص والموسيقى أدت إلى معالجة العلاقات البشرية وصقلها. وراقب ماكس أنماطاً من الابتكار والفرح لدى ما يُدعى بشعوب بدائية حتى في أدق التفاصيل؛ تزيين عصا للحفر بنقوش خاصة، قطعة من الفخاريات، آنية

خزفية للطهو بألوان وأشكال مختلفة تُبدي الامتنان للتربة التي جُبلت منها.

لم يتجاهل ماكس فوائد المجتمع العصري والوفرة التي استمتع بها، ولكنه يعتقد *حقاً* أنها لم تتحقق من دون ثمن، وهذا الثمن هو التضحية بعناصر أساسية تجعل المرء بشرياً بَحتاً. وشعر أن الإنسان العصري يتطور ليصبح كائناً مستهلكاً غدت حاجاته الحقيقية ثانوية، وحلّت الأمور الاقتصادية والتكنولوجية الضرورية للعالم العصري مكان الحاجات البشرية الحقيقية. ولا يمكن للفرد أن يحظى بمنزلة رفيعة، ويصبح ذا نفوذ، ويحافظ على سلامته السيكولوجية، إلا من خلال تلبية متطلبات المستهلك.

كان ثمن هذه السلامة السيكولوجية باهظاً، تطوّر المرء ليصبح كائناً غير بشري، وفقاً لماكس.

ولدى طرح هذه النظريات التشاؤمية، شعر ماكس أنه يغدو أيضاً كائناً غير بشري، ولم يكن سعيداً بشعوره بالعجز. لقد ارتاب بإجراءات "العمل" و"التملّك" التي بدت كما لو أنها تهيمن على حياته.

فتساءل عما كان في الإمكان أن تكون عليه حياته لو بقي في تروجيلو مع ماريا. لقد وجّه إليها رسائل كما وعد، وبلغه أنها تزوّجت، كما توقّع. كانت حاملاً بطفلها الأول.

وبقي على ثقة أنه وماريا كانا معاً في حياة أخرى، ولكن من غير المقدَّر لهما أن يكونا معاً في *هذه* الحياة.

في أثناء دراسته في هارفرد، استمر ماكس في تلقي دعوات لإجراء أبحاث واستطلاع مواقع لصالح أفلام وثائقية أجنبية تتطلب السفر إلى بلدان في مختلف أنحاء العالم. كان يوافق على الاضطلاع بهذه المهام كلما أمكنه ذلك بسبب سعادته بفرصة استكشاف مزيد من

الحضارات، واعتُبر الرجل المناسب من قِبل العديد من شركات إنتاج الأفلام في هوليود. كان هناك عدد قليل من الأشخاص الذين يمكنهم تولّي مهمة التصوير والاهتمام بلوجستيات إنتاج الأفلام الوثائقية.

وبالرغم من ادّعاء والده أن كل ما يقوم به ماكس هو مجرد هراء، وأنه يُفترض به الانتقال إلى كلية الأعمال في هارفرد حيث يمكنه أن يتعلم أموراً عملية، قرر ماكس مرة أخرى المساعدة على إتمام تصوير فيلم وثائقي بعنوان: *البحث عن الفادي التاريخي*.

لقد شعر بالسرور عندما علم أن راس أرنولد، المصوّر في *البحث عن ألغاز قديمة*، مشارك في المشروع، وكان يتطلّع إلى اكتساب خبرة جيدة أخرى في إعداد الأفلام... حتى التقى بالمنتج.

* * *

كانت أماندا هاردينغ مديرة يصعب التعامل معها، جميلة، وقد بدأت مهنتها كعارضة أزياء وأصبحت ممثلة بعد ذلك. لم تتفوّق في أي من المهنتَين، ولكنها تمكنت بطريقة من الطرائق من الارتقاء إلى مستوى المنتج، ربما بسبب مثابرتها... أو بوسائل أخرى.

كانت طاغية ولا أحد يحترمها، ومع ذلك فقد كانت المسؤولة، نظرياً على الأقل.

لم يكن أي شيء يُسرّ أماندا، فتقلق حيال *كل* شيء، لا سيما كيف تبدو، وماذا تأكل، ومدى نظافة ملابسها، واهتمامات أخرى لا علاقة لها بمشروع الفيلم الذي يتطلب اجتياز خمس قارات واثني عشر بلداً في ثمانية أسابيع.

لم تكن تأكل سوى الطون المعلّب بالماء، فيتعيّن شحن علب الطون لها كلما نفدت الكمية المتوافرة لديها مهما كان الأمر مكلفاً وغير ملائم. لقد جُنّ جنون ماكس بسبب تضييع الوقت على أمور لا

علاقة لها بالعمل، وحاول التركيز على التفاصيل الضرورية لإنجاز المشروع.

شمل عمل ماكس لإنتاج الفيلم إجراء مقابلات مُسبَقة مع كل قائد روحي وديني رئيس على الكرة الأرضية. وتضمّنت هذه اللائحة الدالاي لاما، والمعلمين الدينيين الهندوس الرئيسين في ريشيكيش، ورئيس دير مار سابا للروم الأرثوذكس القائم خارج مدينة القدس، وحاخام القدس، ورئيس كنيسة إنكلترا، وعدداً من الرهبان في اليابان، ورجال دين مسلمين في دمشق، وعدداً لا يحصى ولا يُعَدّ من القادة الدينيين والروحيين الأقل شهرة.

وأجرى مقابلات أيضاً مع الأفراد الأكثر تميّزاً على الأرض، بدءاً بعلماء الفيزياء وانتهاءً بعباقرة يتمتعون بمواهب استثنائية.

لم تترك المقابلات التي أجراها مع هؤلاء الأشخاص أثراً كبيراً في نفسه. لقد بدا معظمهم متعطشين للسلطة وأكثر اهتماماً بالمحافظة على تقاليدهم وقواعدهم الشعبية التي توفر لهم النفوذ أكثر مما توفر نقل المعرفة الروحية الحقة.

فإحدى المقابلات التي تركت أثراً في نفسه هي تلك التي أجراها مع الدالاي لاما في منزله في دارامسالا، في الهند. فالدالاي لاما ذو شخصية محبَّبة حقيقية ويتحدث بصراحة عن الوضع العالمي وعيوبه الخاصة.

"لا أحمّل الصينيين بالإجمال مسؤولية المحنة التي يمر بها شعبي التيبتي"، قال شارحاً، "كان المجتمع التيبتي فاسداً وطاغية. كان لدينا فلاحون مستعبَدون ومجتمع غير منصف. لقد رتّب الصينيون الأمور، ولكنهم ذهبوا بعيداً بذلك. إنهم يدمرون الحضارة التيبتية، ونحن بحاجة إلى العمل معهم للعثور على حل أفضل لمصير شعبي.

"أنا موجود لمنفعة شعبي"، أضاف شارحاً، "أنا لست قائدهم الروحي فحسب، بل قائدهم السياسي أيضاً. قد أكون آخر دالاي لاما، قد لا تكون هناك حاجة إلى دالاي لاما آخر في المستقبل. فإذا تمكنت التيبت من الاندماج في المجتمع الصيني والمحافظة على حكمها الذاتي، أكون قد حققت غايتي. يُفترض السماح بازدهار البوذية.

لقد استمتع ماكس كثيراً بهذه المقابلة، ولكن بقية الرحلة كانت مُثقلة بالمواقف المزعجة والمخيّبة للآمال بسبب اضطراره إلى التعاطي مع متطلبات أماندا المنطوية على اضطراب عصبي، ومع قادة روحيين مغرورين وتواقين إلى السلطة تعيّن عليه إجراء مقابلات معهم.

ومن جهة أخرى، لاحظ أن الطاقة السلبية التي تجسدها أماندا تبدو متجانسة مع العديد من أولئك المشاركين في المشروع. فلم يتمكن من الامتناع عن التساؤل عما إذا كان ذلك دليلاً إضافياً على التزامن ومدى ارتباط الطاقات السلبية والإيجابية بمستواها الخاص من الطاقة الفكرية.

غالباً ما كان ماكس يفكر في الاثني عشر وفي بحثه الروحي الخاص. لماذا اختير للقاء كل هؤلاء المعلمين الروحيين والدينيين؟ فأيّ منهم لا يبدو على صلة بأسمائه الاثني عشر. حتى إن أيّاً منهم - باستثناء الدالاي لاما - لا يجيد إجراء محادثة مشوّقة. فغالباً ما يكون أفراد مثيرون للجدل محط ثقة أشخاص في الشؤون الدينية.

* * *

بلغ الأمر ذروته في البلدة الهندية الصغيرة قاديان التي ازدهرت في الصحراء.

وسافر ماكس إلى لاهور حيث أجرى مقابلة.

لقد قيل له إن قرية قاديان الصغيرة، الموجودة بالقرب من أمريتسار، أساسية للمشروع، فتشجع للذهاب إلى هناك، والتقاء الأكبر سنّاً.

وهكذا، طار ماكس إلى أمريتسار، وعندما هبطت الطائرة، طُلب منه انتظار نزول الركاب الآخرين من الطائرة. وعندما حان دوره لمغادرة الطائرة، وجد أن الدرج مكسوّ بسجادة حمراء تمتد مسافة ثلاثين قدماً على المدرج، ويقف إلى جانبَي السجادة رجال ذوو بشرة داكنة يحملون أكاليل ضخمة من الزهور.

وعندما نزل الدرج ووطئت قدماه الأرض، غُمر بأكاليل الزهور هذه، فبلغ بعضها ركبتَيه. وفي نهاية السجادة، كانت هناك طاولة عليها شاي وكعك مُحلّى، وقد دُعي ماكس للتمتّع بها.

بعد تعريفه إلى مضيفيه، رئيس بلدية البلدة وقادة دينيين متنوعين، شرب ماكس كوبَي الشاي الذي يُفترض به تناولهما إضافةً إلى كعكتَين، وتمت مواكبته إلى سيارة رولس - رويس بيضاء قديمة مركونة في مكان قريب.

لقد طُلب منه الجلوس في المقعد الخلفي مع ثلاثة من مضيفيه، يرتدي كل منهم بذلة بيضاء، وحلّة رسمية، ويعتمر قبّعة مستطيلة الشكل، أي في الزيّ التقليدي.

وحتى في الرولس - رويس، كاد المقعد الخلفي لا يتسع لأربعة أشخاص، وأُنهك ماكس برائحة أجساد مضيفيه الذين اشتبه أنهم لا يستحمون يومياً في بلدتهم الصحراوية.

وبعد ذلك، وعندما سلكت الرولس - رويس طريقاً ترابياً، أصبحت الجولة في السيارة أقل متعة. وبالرغم من متانة السيارة، فقد تسببت الأخاديد الموجودة في الطريق بقفزات كبيرة، وبذل ماكس جهده حتّى لا يتقيّأ. وبعد أربعين دقيقة، أبطأت السيارة عند حدّ فاصل في الطريق يوجد أمامه شاب على دراجة نارية.

لدى رؤية الرولس - رويس، سلك سائق الدراجة النارية الطريق الداخلي باتجاه وسط البلدة مباشَرةً، وسلكت السيارة طريقاً دائرياً يمر بجانب مقبرة في الضواحي.

وتطلــب الأمر عشر دقائق لتصل السيارة إلى وسط البلدة، وسمح الــوقت الإضــافي باســتعداد القرية لاستقبال "ضيفهم بالغ الأهمية". وتوقفت السيارة مترنّحة، وعزفت فرقة موسيقية على المنصة، ورُفعت راية ضخمة تحمل حروفاً حمراء كبيرة بالإنكليزية:

أهلاً وسهلاً بهوليود!

فخــرج مــاكس من السيارة، وألقى رئيس بلدية البلدة خُطبة، وذكّــر الأمــر ماكس بالترحيب الذي لقيته دوروثي من رئيس بلدية مانشكين عندما قَتَلَ منــزلُها ساحرة الغرب الشريرة.

واســتمرت الفرقة الموسيقية في العزف، وبعد ذلك، تمّت مواكبة ماكس إلى الشارع الرئيس للبلدة حيث تجمّع كل السكان على جانبَي الطــريق بحسب الأقدمية الروحية لتلقّي بَركة ماكس. فلمس كل فرد مــاكس وحاول معانقته. وبلغ ماكس أن هناك ألفَي شخص، ووجد الاختبار مُرهقاً.

بعــد إلقاء التحية على كل البلدة، تم اصطحابه إلى منــزل مميّز للضيوف حيث أُعدّت مأدبة تحتوي على الأطباق الأكثر أهمية وإمتاعاً الــتي يمكــن لأهل البلدة تقديمها له. كان هناك بَلَح، بَرش جوز هند طازج، أشربة غير كحولية، ومقبّلات خاصة، وتلت ذلك مجموعة من الأطباق الرئيسة التي تحتوي على العديد من أطباق الخضار الغريبة إضافةً إلى اللحم، والسمك، والطيور الداجنة.

كانت وجبة وافرة ومنوّعة أشبه بمأدبة ذكرى الشكر، يبدو أن لا نهاية لها.

* * *

بعــد ســاعتين من قَيلولة ضرورية جداً، استعدّ ماكس للجولة. عندها فقط، اكتشف سبب هذا الترحيب المَلكي الذي حظي به.

لقــد تحقق التوقع الثاني عشر الذي توقّعه مؤسس البلدة في القرن التاسع عشر.

فالتوقعات الإحدى عشرة الأولى تتضمن ادعاءات مثل:

ستزهر الصحراء.

ستــصبح مجموعة العائلات الاثنتَي عشرة المؤسِّسة أكثر من اثني عشر مليون.

سيتم بناء معبد ضخم يتّسع لأكثر من مئة ألف متعبّد.

لقد تحققت هذه التوقّعات إضافةً إلى توقعات أخرى واهية، ولكن مــع وصــول مــاكس؛ ممثلاً فريق تصوير من هوليود؛ اكتمل التوقع الأخير.

سيقصدنا العالم.

بعــد اتــضاح ذلك اللغز، شرع ماكس بتفحص المواقع المبجلة الموجودة في البلدة.

وأدرك بسرعة أن لا وجود لأي شيء مشوّق يمكنه إغناء الفيلم، ولا حاجــة إلى إضافة أي من تفاصيل معتقدات أهل البلدة. وهكذا، اقتــصر عملهم في نهاية المطاف على عدد كبير من التوقعات والخبرات الذاتية للمعتقدين بها... أو للذين اختاروا عدم الاعتقاد بها.

الفصل الثالث عشر

لويس

1977-1976

بينما كان ماكس يتنقل في أنحاء العالم، كان لويس ينهي عام التخرج من كلية الحقوق في جامعة ديوك، كارولاينا الشمالية. كان في المرتبة الأخيرة في صفه في ديوك، ليس بسبب عدم قدرته على الدراسة، بل بسبب عدم رغبته في ذلك. كان يشعر أن والده يدين له بتوفير سُبُل العيش، لا سيما وأنه يكرهه أكثر مما يكره ماكس.

كان لويس قد أسرّ لماكس أن السبب الوحيد الذي حمله على ارتياد كلية الحقوق يتمثل بكون برنامج التخرج فيها هو الأطول والأكثر تكلفة بين الجامعات الأخرى. كان يعلم أن والدتهما ستُجبر هربرت على دفع تكاليف كلية الحقوق لأن الدراسة هي أولى الأولويات بالنسبة إليها.

في الصيف التالي لتخرج لويس، أمّن له هربرت عملاً في شركة محاماة في مدينة نيويورك. وفي الوقت نفسه، بدأ لويس بالاستعداد لإجراء امتحان يخوّله مزاولة مهنة المحاماة، وهو الاختبار نفسه الموجود في دليل الاستعداد للاختبار الأولي الذي قامت شركة النشر التابعة لوالده بنشره.

ومن المثير للسخرية أنه رسب في الامتحان في المحاولتين الأوليين، ولم ينجح إلا في المحاولة الثالثة. لقد تطلبه ذلك أكثر من عام، وشغل في

هذه الأثناء منصب موظف متدنّي الرتبة في شركة غوتليب هاريس ذات المكانة الرفيعة.

فغوتليب محامٍ في محكمة الجنايات، وكان وكيل بعض أبرز رؤساء المافيا في مدينة نيويورك. لقد التقى هربرت غوتليب في حفلة خيرية لمنظمة الدفاع عن اليهود، وأصبحا صديقَين بشكل غير منتظم. وأوضح هربرت للويس أنه يؤدي له خدمة جُلّى بتأمين عمل له في شركة محاماة مماثلة. من جهته، شعر لويس أنه يؤدي لوالده صنيعاً كبيراً من خلال شغل منصب لا يعود عليه بأي مبلغ من المال.

كان لويس يكره العمل لصالح غوتليب الذي يعتبره غشاشاً على غرار موكّليه، ويشكو إلى والدته قائلاً إنه لا بد من أن يكون هربرت مجرماً أيضاً بسبب اتخاذه غوتليب صديقاً له. ففي أثناء وجوده في الكلّية، كان لويس قد اعتبر نفسه شخصاً أخلاقياً ذا أفكار متصلّبة حيال السلوك الأخلاقي واللاأخلاقي، فيقول إنه يشعر أن أي سلوك ناجم عن "الكَسب السهل" لا بد من أن يكون غير أخلاقي.

ولدى مواجهته بواقع أنه اعتمد على والده مالياً طوال حياته، كان يجيب بصوت عالٍ قائلاً إنه لا يعتبر ذلك "كَسباً سهلاً"، إنها ظروف مختلفة كونه الابن البِكر.

وفي أثناء مناسبة من مناسبات الشكر، انفجر لويس أخيراً غضباً وحقداً وإحباطاً في وجه والده. كان ماكس خارج الوطن، وهكذا، فقد كانوا هم الثلاثة فقط في غرينويتش. وسلّم لويس هربرت رسالة من مصلحة الضرائب تهدد باتخاذ إجراءات ضده بسبب عدم تسديد ضريبة الدخل، هو أمر آخر اعتبره لويس غير منصف، نظراً إلى الدخل الضئيل الذي يكسبه في شركة غوتليب هاريس.

"من غير المنصف أن يكون عليّ دفع ضرائب"، قال لويس بغضب، "لديك الكثير من المال، ويُفترض بك تسديد ضرائبي".

فضحك هربرت في أثناء إعادة الرسالة إلى لويس.

"إنه أمر مثير للسخرية. الجميع يدفعون ضرائب، وهذا الأمر يشملك أيضاً".

"حسناً، في هذه الحال، سأبدأ بإرسال فواتير إليك وإلى والدتي بسبب الوقت الذي أمضيه هنا. سيكون سعري الخاص لكما 50 دولاراً في الساعة، ولكن مضى على وجودي هنا أكثر من أربع وعشرين ساعة، لذلك أنتما تُدينان لي بأكثر من ألف دولار".

فضحك هربرت بصوت أعلى، ولكن كانت هناك خشونة في ضحكته. ونهض وغادر المائدة، واتجه إلى غرفة الحديقة حيث يجلس على كرسيّه المفضل بين النبتات بالقرب من المدفأة، ويبدأ بقراءة الصحيفة.

كان هربرت قد تعرّض منذ مدة غير طويلة لنوبة قلبية ثانية، ويعلم أنه يُفترض به تجنّب مواجهة انفعالية مع ابنه البكر.

فتبع لويس هربرت وواصل الجدال قائلاً إنه يُفترض بوالده الدفع لقاء "خدماته القانونية". وعندما أوضح والده أنه لن يسدد أي فاتورة من فواتير لويس - أو ضرائبه - وأنه يتوقع منه الحصول على وظيفة حقيقية بعد أن ينجح في امتحان مزاولة مهنة المحاماة، شرع لويس بالصياح، ناعتاً والده بالمخادع والغشاش.

أخيراً، نهض هربرت وهمّ بصفع لويس، الأمر الذي لم يفعله مذ كان ابنه في الثانية عشرة.

إنه الاستفزاز الذي لطالما انتظره لويس. فأمسك بعُنُق هربرت، وأوقعه على الأرض الرخامية الصلبة، وبدأ بضرب رأسه بالرخام.

ووجّه إلى والده مزيداً من الألفاظ البذيئة، مُطلقاً كرهه الدفين الذي تراكم طوال سنوات حياته.

"أيها الأخرق، لم تُردني أبداً! لم تحبّني أبداً!".

وحمل الضجيج جاين على الإسراع إلى غرفة الحديقة وفصْلِهما عن بعضهما، ولكنها لم تكن قوية بما يكفي لإبعاد لويس.

فهرعت إلى الهاتف واتصلت بالشرطة التي وصلت في غضون دقائق.

فوجد رجال الشرطة هربرت على الأرض الرخامية فاقد الوعي جزئياً ومغطى بالدماء، وتضع جاين المضطربة منشفة على رأسه.

سحب الشرطيان سلاحَيهما وبحثا بحذر في أرجاء المنزل. ولم يدُم الأمر طويلاً حتى حاصرا لويس في المرأب حيث كان يوجّه ضربات إلى سيارة الرولس-رويس الخاصة بهربرت بواسطة فأس.

وبعد إخضاعه، ساقاه إلى السجن في أثناء وصول سيارة الإسعاف لنقل هربرت إلى المستشفى.

* * *

أصيب هربرت بارتجاج في الدماغ، ولم يتمكن من مغادرة المستشفى قبل عدة أيام، ولكنه لم يُصَب بضرر دائم كما يبدو.

لقد اختبر للمرة الأولى، وبشكل مباشَر، الغضب الذي كان يصبّه لويس على ماكس، وأدرك أن لويس لم يكن كسولاً وبغيضاً فحسب، بل خطراً أيضاً.

بالرغم من ذلك، وعندما حان وقت محاكمة لويس، لم يتمكن هربرت من الامتناع عن الإدلاء بشهادته ضد ابنه. وتم التوصل إلى اتفاق مع النائب العام يقضي بتمضية لويس ثلاثين يوماً في مصحة للأمراض العقلية بدلاً من إيداعه السجن. وإذا شعر الأطباء بعد مرور هذا الوقت أنه أهل للاهتمام بنفسه، يُطلق سراحه.

ووُضع شرط إضافي ينص على إبقاء لويس تحت المراقبة في حال إطلاق سراحه، ويغطي نطاق المراقبة أنحاء بلدة غرينويتش كافة، كونكتيكت، حيث يقيم هربرت وجاين. وبما أن لويس لم يرتكب أي عمل عنفي من قَبل إلا بحقّ ماكس، لم يكن هناك ما يدعوهم للاعتقاد أنه سيسبّب الأذى للآخرين.

وما دامت الصلة مقطوعة بينهما وبين لويس، أملت جاين وهربرت أن يجد طريقه في الحياة.

* * *

كان لويس مريضاً نموذجياً في أثناء حجزه في مصحة للأمراض العقلية، وهو أمر فاجأ الجميع، وأُطلق سراحه بعد نهاية الثلاثين يوماً.

لقد اتضح لجاين أنه لن يجد أبداً عملاً تقليدياً، ناهيك عن الإفادة من إجازته الجامعية في الحقوق. وشعرت بذَنب كبير بسبب حالته العقلية. وبالرغم من سلوك ابنها الوحشي، أصرّت على هربرت فتح حساب مصرفي صغير للويس ليتمكن من إعالة نفسه. وأملت جاين أن يزيل هذا الأمر بعض الضغط المالي الذي يتعرض له ابنها، مما قد يسمح له ربما بالعثور على مهنة متواضعة تُبقيه بعيداً عن العائلة والمشاكل.

* * *

عندما عاد ماكس من أسفاره وعلم بما جرى من أحداث، شعر بارتياح كبير. أخيراً، لقد فهم والده ووالدته طبيعة لويس العنيفة وقاما بعمل ما لحماية العائلة.

لقد شعر بالأسف حيال لويس. كان يحبه في الواقع وأراد مساعدته، ولكنه لم يشأ في الوقت نفسه إجراء أي اتصال به.

كان ماكس لا يزال خائفاً من استمرار تصرف لويس معه بعنف.

خيبة أمل

1978

عاد ماكس إلى هارفرد مرتاحاً، ظنّاً منه أن قيامه باستخدام الأنثروبولوجيا في أثناء إعداد أفلام وثائقية سيكون محط إعجاب أساتذته وزملائه.

ولكنه شعر بإحباط كبير لدى معرفته أن مهنته الجانبية لم تلقَ الاستحسان من قِبل زملائه في الجامعة. فهذا التبسيط للمعرفة لم يكن ثقافة جدّية برأيهم. لقد شعروا أن التقدير الذي ناله ماكس غير لائق تقريباً وغير ملائم لطالب متخرّج.

وبتحرر أساتذة ماكس من نظرتهم الواهمة إلى ماكس، تحرر ماكس أيضاً من نظرته الواهمة إلى هارفرد.

لقد شعر بالملل وأراد البحث عن تحديات أكبر.

* * *

لم يمر وقت طويل حتى واجه ماكس تحديات جديدة. لقد اتصل به والده وأسرّ إليه أن دار النشر بحاجة إليه. كان هربرت قد تراجع عن الاتفاق المتمثل ببيع مؤسسته برفكت فيلم، ورفض كل العروض مذاك الحين. ووعد هربرت بشراء كامل حصة شريكه وتسليم الشركة إلى ماكس إذا وافق هذا الأخير على الانتقال إلى نيويورك وإدارة شؤون قسم التحرير.

كان هربرت مصرّاً على اكتساب ماكس مزيداً من الخبرة في مكتب نيويورك قبل تسليمه شؤون الشركة.

فوافق ماكس وانتقل إلى نيويورك، ولكنه سرعان ما تحرر من نظرته الواهمة. فبالرغم من مغامرته الرومانسية الجديدة التي اتخذت طابعاً جدّياً بسرعة، لم يستمتع بالحياة في المدينة و لم يجد التحدّي المنشود في المنصب.

وبعد أقل من عام في عمله مع قسم التحرير، تلقى ماكس دعوة هاتفية إلى القيام بجولة حول العالم لتصوير فيلم وثائقي آخر. وبلغت مدة التصوير اثني عشر أسبوعاً، وكان في استطاعته وضع شروطه الخاصة.

ونظراً إلى مدة التعاقد الطويلة، تدبّر ماكس أمر الحصول على إجازة.

لا مشكلة في ذلك، قال ماكس في نفسه. *سيكون كل شيء في مكانه عندما أعود.*

* * *

تعرّض هربرت دوف لنوبة قلبية ثالثة يوم مغادرة ماكس إلى الهند وإلى أماكن غير معروفة من دون أن يكون ماكس على علم بما جرى لوالده. كانت نوبة قلبية أكثر خطورة من النوبتَين السابقتَين، وشعر هربرت أنه مُرغَم على حماية عائلته وبيع الشركة بأفضل سعر. وعندما عاد ماكس، كانت الصفقة قد تمّت.

وللمرة الأولى في حياته، تمكن ماكس من اختيار مصيره. لقد تحرّر من القيود.

فمزّق العقد البالغة مدته ثلاث سنوات والذي كان والده قد تفاوض معه بشأنه، وانتقل إلى هوليود للعمل كمنتج مساعد في فيلم وثائقي كبير. وبعد أسبوعين، أدرك أنه ارتكب خطأً آخر.

لقد كره هذا العمل.

فكونه منتجاً مساعداً، يتعيّن عليه المحافظة على إنتاجية وراحة الفريق الإبداعي وإبقائه منتجاً وسعيداً. هذا يعني أنه إذا أراد أعضاء فريقه أي شيء، يُفترض بماكس تأمينه لهم.

واستقال ماكس على الفور.

وعاد إلى نيويورك من دون عمل أو تصوّر لعمل مستقبلي.

ففكر ملياً في خياراته، وقرر أنّ لعب الورق في مشرب رديء السمعة في سوهو في أثناء أمسيات السبت هو أفضل بديل متوافر له. كان لويس قد علّم ماكس كيفية لعب الورق في صغرهما، وكسب ماكس خبرة إضافية فيه خلال أسفاره مع فرقاء عمل متنوعين لتصوير أفلام. كان ماكس يتمتع أيضاً بموهبة تخيُّل أي ورقة يريد. فبطريقة من الطرائق، يحصل فوراً على الورقة التي يكون بحاجة إليها.

وسواء أكان ذلك ضرباً من ضروب الحظ أو شيئاً إضافياً آخر، كان ماكس منجذباً إلى الأرقام على الدوام. فهي حيّة فيه منذ طفولته من دون أن يكون قادراً على البوح بالأمر. إنها زميلة الطفولة في اللعب... وكانت بمثابة صديق له.

وهكذا، فإن لعب الورق أمر طبيعي بالنسبة إليه.

* * *

كان يحضر قُرابة منتصف ليل السبت للمشاركة في لعبة نهاية الأسبوع من دون أن تكون الرهانات مرتفعة بصفة خاصة، ولكن كان هناك باستمرار مشاركون من سكان الضواحي يسهل التغلب عليهم بسبب إفراطهم في تناول المشروبات.

إنهم يشاركون في لعب الورق بهدف التسلية ليس إلا.

أما ماكس فيشارك لجني المال.

ويمكن اعتبار عدد قليل جداً من المواظبين لاعبين شرعيين. فكثيراً ما كانوا يأتلفون ضمن فريق أو يمارسون الغش من دون افتضاح أمرهم. وهكذا، لم يكن ماكس يرغب في التورط مع المواظبين.

كان هناك عدد كافٍ من السيّاح ليتمكن ماكس من جني 200 أو 300 دولار كل ليلة سبت، وهو كل ما يحتاج إليه كل أسبوع لدفع الإيجار، ورسوم القاعة الرياضية، وفواتير الطعام.

ولكن أيّاً من هذه الأمور لم يكن مُرضياً، ولم تكن هذه هي المهنة التي يريد مزاولتها.

فوجد ماكس نفسه على مفترَق طرقات.

لقد تخلى عن هارفرد وعن شركة النشر التابعة لوالده، لا بل عن هوليود أيضاً، وشهدت علاقة رومانسية أخرى نهاية سيّئة.

* * *

كان قد خطب تينا قبل الشروع بمشروع تصوير الفيلم الذي دام اثني عشر أسبوعاً. وفي أثناء وجوده في الخارج، اشترى لها خاتم خطبة جميلاً من دمشق وأقمشة حريرية غير عادية لتتمكن من ابتكار ثوب زفاف.

لم يكن هناك موعد محدد أو إعلان رسمي، ولكن تينا وماكس اتفقا على إطلاع عائلتيهما بعد عودته.

ولسوء حظ ماكس أن تينا بدّلت رأيها بشأن الزواج عندما عاد من المشروع. كانت قد بدأت بمقابلة معالج للتحقق من مسائل متعلقة بصدمات عاطفية ماضية حدثت لها بسبب تحرّش تعرّضت له في المراحل الأولى من طفولتها.

كان الأمر مفاجئاً جداً لماكس.

وفي أثناء المعالجة، اقترح المعالج امتناع تينا عن ممارسة الحبّ إلى أن تتمكن من فك عقدة مشاعرها الدفينة. وجدت تينا الفكرة جيدة، وأعلمت ماكس أنه لا معنى لخطوبتهما، أو حتى لاستمرار علاقتهما.

لم يستطع ماكس فهم ما يجري. كانا يبدوان سعيدَين جداً معاً. لقد ابتعدت خطيبته فجأةً وتغيّرت.

وغابت الإثارة عن حياة ماكس، ولم يكن واثقاً من كيفية استعادتها.

ودخل مرة أخرى في حالة من الكآبة العميقة. فتوقف عن تناول الطعام، والحلاقة، لا بل الاستحمام أيضاً، وكان ينام طوال أيام. لقد بات مستنفَد القوى ولا يعرف ماذا يريد أن يفعل في حياته.

وظهر في عينَيه احتمال عدم تمكّنه أبداً من تحقيق الطموحات التي كان يتوق إلى تحقيقها في طفولته. لقد اعتبر أنه خيبة أمل لوالده... ولنفسه.

في خضمّ هذا الذُّعر، قرر كتابة رواية تعكس وضعه الحالي، وعنْوَنها *أكثر من انتحار*. وصاغ السطر الافتتاحي:

الاثنا عشر

استيقظ السير ونستون على صوت صيحات مكتومة... صيحاته.

لقد وثّقت الرواية نضال ماكس اليومي مع أفكاره الانتحارية. وبدأ يكتب عن مشاعره بانفعالات منحرفة على آلة كاتبة قديمة كان والده قد أعطاه إياها.

لقد بلغتُ الحافة المظلمة لليأس... لا أعرف من أكون، أو ماذا أريد، أو ما الذي يمكنني القيام به، أو ما ستكون عليه حالي... لقد سئمت نفسي... لا أمل... يجب أن أموت في هذه الحياة... أريد التخلّي عن هذه الحياة.

كـــان يعلم أن الموت بحدّ ذاته لم يكن يخيفه، ويتوق إلى العودة إلى الـــنور الأبيض والبرَكة اللذَين خبرهما في عيادة الطبيب غراي عام 1965.

في الوقت نفسه، كان ماكس لا يزال يعتقد بشدة بارتباطه بقدَر محدد يقتضي بقاءه حيًّا. فقرر تسليم مصيره إلى قوة أعلى وكتب: *لتكن مشيئتك*.

وواصل الكتابة ومكافحة ميوله الانتحارية.

ويـــوم أنهى ماكس روايته، تُوفّي فجأةً أحد جيرانه. كان ماكس قـــد تأمّل الموت عدة مرات طوال أسابيع، وصعقه الواقع وتساءل عما إذا كانت روايته تشير إلى مصيره أو إلى مصير شخص آخر.

* * *

عاد لويس مجدداً إلى حياة ماكس.

وعندما ظهر عند بابه الأمامي، لم يعرفه ماكس تماماً. كان كريه الرائحة، قذراً، غير حليق الذّقن، ومفرط الوزن مع بطن ضخم.

كان غريب المظهر.

فتمـــتم لـــويس بشكل غير منطقي عن كيفية قيام الجميع بخرق القانون، ولا سيما والده والمحامون في غوتليب هاريس.

"لا فكرة لديك عن مدى فسادهم الخُلُقي... وليسوا الوحيدين. *الجمـــيع* يخرقون القانون... *كل* القوانين. حتى إنهم بدأوا بخرق قوانين الجاذبية، وعندما يحدث ذلك، تعرف أننا سنذهب بأجمعنا إلى الجحيم". قال لويس، متوقعاً من ماكس تأييد مكامن القلق لديه.

ولكـــن ماكس ابتسم بسبب مزيج الذكاء والجنون لدى شقيقه، ممـــا جعلـــه يرتعد ويدرك أن ما آلت إليه حاله ليست أفضل من حال شقيقه.

فاشترى ماكس وجبة لذيذة للويس، قد تكون الأولى له منذ مدة طـــويلة. وأمـــل طـــوال الوقت ألا ينفجر جنون لويس غضباً، وشعر بالارتياح لأنه لم يقم بذلك.

وبعـــد ذلك، عانق شقيقه واقترح عليه العثور على مكان هادئ خـــارج مدينة نيويورك، حيث يقوم عدد قليل من الناس بخرق قوانين الجاذبية ويكون في أمان.

وغادر لويس، وتساءل ماكس عما قد يلي ذلك.

كاليفورنيا

1979-1982

انتهت فجأةً أيام ممارسة ماكس لعب الورق. لقد بدأ الأمر بأسوأ ألم للأسنان شعر به يوماً.

كان الألم مبرحاً، فحاول قدر المستطاع تجنّب القيام بأمر ما حيال ألمه من دون أن يتمكن من ذلك. وفي أثناء دخوله عيادة طبيب الأسنان، التقى مصادَفةً بزميل الصف السابق في المدرسة الثانوية بيتر بور الذي كان يغادر العيادة.

"تسعدني رؤيتك، يا ماكس! كيف هي الخُدَع؟". سأل بيتر، ممسكاً بيد ماكس. "أما زلت تعمل لصالح رجلك المسنّ؟".

"لا عمل لديّ الآن". أجاب ماكس بألم: "باع والدي شركته منذ أشهر قليلة. لست واثقاً مما سأقوم به كخطوة تالية، ولكني لطالما احترمتك في هاكلي. أعطني بطاقتك ولنتصل ببعضنا قريباً". قال ماكس، مقطّباً حاجبيه.

بالفعل، لقد ارتاد بيتر كلّية هاكلي مع ماكس، ولكنه تخرّج قبله بعام واحد. كان مسؤولاً في الفصل الأول عن قاعة الدرس التي يلجأ إليها ماكس، ورئيساً لصفه، ومُلقياً لخُطب الوداع، وأحد أبرز اللاعبين الرياضيين في المدرسة.

"بكل تأكيد، إليك بطاقتي". قال بيتر بحماسة: "لقد اضطلعتُ مؤخراً بشؤون قسم الأعمال في مؤسسة سي أر أم فيلمز. اتصل بي، يُفترض بنا تناول الغداء معاً ومواصلة الاتصال ببعضنا بعضاً".

* * *

اتصل ماكس ببيتر، وقبل مرور أسبوعين، التقيا في مطعم فاخر في تريبيكا. وأخبر ماكس بيتر عن الأفلام التي شارك في إعدادها، وقبل إنهاء الطعام، عرض عليه بيتر منصب منتج مساعد مسؤول عن مكاتب الشاطئ الغربي لسي أر أم فيلمز.

"والدي هو المدير التنفيذي الأول، ونبحث عن شخص ذي فطرة في أعمال المقاولة ويعرف مداخل ومخارج الأفلام الوثائقية"، قال شارحاً. "قد يتحول اجتماعنا إلى فرصة سانحة لكلينا علماً أنه كان أمراً غير مرجّح الحدوث".

"حسناً، لديّ اطلاع واسع على الأفلام الوثائقية"، أقرّ ماكس، "وهذا ما أطمح إلى القيام به، موافق".

* * *

بعد إنجاز بعض الأمور، أقام ماكس في دل مار، كاليفورنيا، واستمتع بالطقس الأمثل وبالحكم الذاتي التام في إدارة قسمه في سي أر أم فيلمز. فدل مار هي بلدة صغيرة شمال سان دييغو ومقرّ حلَبة سباق اكتسب شهرته من مشاركة مشاهير من أمثال بينغ كروسبي. وفي كل عام، يتضاعف حجم البلدة في موسم السباق.

والمنازل هناك مرتفعة التكلفة، ولكن ماكس كان يتلقى أجراً جيداً.

والأهم من ذلك استمتاعه بمنصبه الجديد وشعوره بأنه منتج للمرة الأولى منذ مدة طويلة. كان يتشاطر المكتب مع مدير مبيعات، وتقوم

سكرتيرة تنفيذية بتنظيم أعمالهما. ففي كل صباح، يكون في انتظاره عشرون أو ثلاثون مشروع فيلم جديد، ولا يتطلبه الأمر أكثر من ساعة للاطلاع عليها، ويختار بعد ذلك الأفلام العشر أو الاثني عشر التي يعتقد أنها ذات طاقة إبداعية أو تجارية.

بعد ذلك، يحمل ماكس المشاريع التي اختارها، ويعبر الرَّدهة إلى مكتب مدير المبيعات. كان هناك جوٌّ من الاسترخاء التام في سي أر أم فيلمز؛ فاجتماعاهم لا تتبع جدول أعمال محدداً، وكل الاجتماعات متشابهة في بداياتها.

"هل لديك دقيقة، يا فرانك؟".

ويبدأ ماكس بشرح كل مشروع اختاره، ثمّ يطرح أسئلة أساسية.

"إذا كان هذا أفضل فيلم ممكن لمعالجة هذا الموضوع، فما عدد النسخات التي يمكنك تأمينها في الإصدار الأول؟". فبالرغم من قيامهما بعمل إبداعي، كانت المبيعات لا تزال الاعتبار الرئيس.

في معظم الحالات، يكون الجواب: "غير كاف"، أو "ليس كبيراً"، أو "لا شيء" أحياناً، ولا يعاد النظر في هذه المشاريع مجدداً.

ويكون الجواب مختلفاً أحياناً؛ كمرةٍ واحدة أو مرتين في الأسبوع.

"يمكننا تأمين عشرة آلاف نسخة أو أكثر إذا توافرت لدينا المهارات المطلوبة".

في تلك الحالة، إذا تم توزيع الأدوار واختيار فريق العمل على النحو الصحيح، يحصل ماكس على الحقوق.

وغالباً ما تدوم العملية حتى منتصف بعد الظهر بالأكثر، ويقوم ماكس بعد ذلك باستكشاف الشواطئ، والحمّامات الساخنة، ومفاتن كاليفورنيا الجنوبية.

لقد اعتمد هذا النمط، ولم يمضِ وقت طويل حتى التقى بامرأة سلبت لبّه تماماً. ومرّت الأسابيع والأشهر، وسعى وراءها بلا كلل أو ملل حتى وافقت على الزواج به، وحصل ماكس على كل ما يتمناه في حياته.

كان فعالاً وناجحاً، وبدأ يلفت انتباه الصحافة حتى كُتب عنه في *سان دييغو تريبيون* و*سان دييغو ماغازين* حيث نُشرت صورته على صفحتين.

"منتج شاب لامع يأتي إلى سان دييغو"، هذا ما جاء في العنوان الرئيس. وتُعتبر سان دييغو مدينة هامدة بقواعدها العسكرية وبعض النشاطات الزراعية، مما يحمل المقيمين فيها على الشعور بالامتعاض من المدينة المجاورة الأكبر حجماً القائمة إلى شمالها، ويغتنمون أي فرصة ملائمة للبروز. وكانت شهرة ماكس مكلفة.

فلم يمضِ وقت طويل حتى شعر نظراؤه بالغيرة من الاهتمام الذي يحظى به.

* * *

كانت سي أر أم فيلمز تحتوي على أقسام عدة، وكان رئيس قسم المصلحة العامة، بيل باتلي، رجلاً منافساً. لقد استمال ماكس عن غير قصد أحد خبرائه الأكفّاء لإنتاج فيلم عن أوبك وأزمة النفط، مما ألحق ضرراً بباتلي.

كان باتلي يأمل شغل منصب المدير التنفيذي الأعلى عندما يتقاعد بور المسنّ، والد بيتر. ولكن ماكس حظي بتغطية صحفية كبيرة وكان يتناول العشاء مع "الرئيس"، وهو لقب بور الأكبر.

وظهرت قصة في الصحافة لعالِم الاقتصاد الشهير ميلتون فريدمان، أعادت إلى ماكس، وبشكل خاطئ، الفضل في حمل سي أر أم فيلمز

على تحقيق أكبر قدر من الأرباح من خلال فيلم *حرّ في الاختيار*. كان المراسل يأمل أن يلقى استحسان ماكس، في حين أن السبب الوحيد لقيام سي أر أم فيلمز بإنتاج الفيلم يتمثل بالعلاقة الشخصية بين بور المسنّ والدكتور فريدمان.

واغتنم باتلي الفرصة وأرسل المقالة إلى الرئيس، إضافةً إلى أربع أو خمس مقالات أخرى عن ماكس، مُرفَقة بملاحظة بسيطة.

قد ترغب في إلقاء نظرة على هذه المقالات.

فطُرد ماكس، وطلب ويليام بور من ابنه بيتر إجراء اتصال بماكس وتوجيه رسالة خاصة:

لو كنا نعيش في الزمن الغابر، لرميناك عن الجسر. ولكن بما أننا نحيا حياة مدنية، يمكننا نزع شاراتك فقط. سندفع لك في نهاية العام، ولكن اجمع أغراضك وغادر المؤسسة في نهاية يوم العمل.

فصُدم ماكس.

لم يخطئ بشيء، وكان قد وقّع على أكثر من ثلاثين مشروعاً في الأشهر الثمانية عشر السابقة التي عمل خلالها في الشركة.

لقد قدّم إليه بعض الزملاء في ميدان صناعة الأفلام النُّصح بمقاضاة سي أر أم فيلمز بسبب طرده غير المُحق من العمل، ولكنه لم يكن أسلوب ماكس.

في انعطافة غير مألوفة للأحداث، وفي اليوم السابق لطرده، أنهت خطيبة ماكس علاقتهما، ووجد ماكس نفسه محطَّماً على الجبهات كافة. لقد شعر بصدمة كبيرة بسبب الإنهاء الفجائي لخِطبته مما حال دون تمكنه من تحليل معنى الطرد بالنسبة إليه.

وعندما فكر في الأمر في الأيام القليلة التالية، أدرك أنه لا يريد العمل في الواقع لصالح أي مؤسسة.

أراد أن يحيا حياته بشروطه الخاصة.

لقد وجد نفسه حراً مرة أخرى في رسم طريقه الخاص.

* * *

لم يكن ماكس يملك المال، لذلك كان عليه الانطلاق بإمكانيات محدودة.

فتدبّر أمر استخدام تجهيزات محطة التلفاز الكابلية المحلية لإنتاج فيلم فيديو "تعلّم الطرائق" وفقاً لأسلوب أفلام الفيديو الاختبارية لجاين فوندا التي لاقت رواجاً كبيراً، وهكذا وُلدت شركة ماكسيموم بروداكشنز. وكوّن فريقاً مع مبتكر *دل مار وورك أوت* في القاعة الرياضية المحلية، معتبراً أنه اسم سهل التذكر واختبار جيد، مثالي لسوق جاين فوندا.

وتمثلت مشكلته الكبرى بعدم تعاقد جاين فوندا - أو أي شهير آخر - مع دل مار وورك أوت. لذلك، وعندما عرض عمله على الموزع، قيل له إن في إمكانهم أخذ خمسمئة نسخة فقط لاختبارها، ولكنهم أعربوا عن تشاؤمهم.

كان ماكس بحاجة إلى بيع خمسة آلاف نسخة على الأقل لتغطية النفقات. وببيع خمسمئة نسخة فقط، يكون قد خسر دولارَين بكل نسخة إضافةً إلى فقدان رأس المال لسدّ العَجز. لقد بدا الأمر كما لو أن ماكسيموم بروداكشنز لن تتمكن أبداً من النهوض من كبوتها.

وبينما كان يفكر مليّاً في خياراته، تلقى ماكس اتصالاً هاتفياً من جاره أندي كاي الذي اقترح عليه فكرة مثيرة للاهتمام.

"يا ماكس، أتذكّر قولك في أثناء إحدى وجبات العشاء التي تناولناها معاً، إنك تعرف مذ كنتَ تعمل في شركة النشر التابعة لوالدك كيفية التدرب استعداداً للاختبارات".

لم يعرف ماكس ما الذي يحاول أندي إيضاحه، ولكنه بدا مهتماً.

"أجل، هذا صحيح. ما الذي ترمي إليه؟".

"يقضي مشروعي المدلّل هنا في نونلينيار سيستمز بتطوير آلة أدعوها "كمبيوتر؛ مدرّس خصوصي" مصمَّمة لمساعدة الطلاب على تحسين مفرداتهم اللغوية. كنت على الدوام من المعجَبين بعمل جونسون أوكونورز، وأعتقد بشدة أن تحسين المفردات اللغوية هو الهدف التربوي الأكثر أهمية بالنسبة إلى كل شخص. هلاّ فكرتَ مليّاً في مساعدتي على إتمام هذا المشروع فتشغل منصب مستشار خارجي بدوام جزئي؟". سأل أندي بلهفة.

"بكل تأكيد". أجاب ماكس، وأضاف: "يمكنني البدء على الفور". مرةً أخرى، لقد وفّر له التزامن فرصة مثالية عندما يكون بأمسّ الحاجة إلى العمل.

فشغل منصب مدير مشروع ومدير مبيعات مقابل الحصول على نسبة مئوية من المبيعات المستقبلية. وانكبّا على العمل على الفور وحققا تقدماً سريعاً.

بعد شهرين من عمله في مشروع "كمبيوتر؛ مدرّس خصوصي"، طوّر أحد مهندسي أندي ما بات يُعرف بكمبيوتر كاي برو؛ الكمبيوتر المحمول الأكثر رواجاً في العالم بعد أوسبورن، وكاد يفوق هذا الأخير بنسبة مبيعاته.

استمر العمل على "الكمبيوتر؛ المدرّس الخصوصي"، ولكنه لم يعد الأولوية. لقد حقق كاي برو رواجاً منقطع النظير، وارتفعت المبيعات السنوية لشركة أندي الصغيرة من مليونَي دولار إلى 250 مليون دولار.

فجأةً، انضم إلى الفريق عشرات التقنيين وعشرات مستشاري الكمبيوتر. وعندما علم هؤلاء بخلفية ماكس وصِلاته، طلبوا منه مساعدتهم على إنتاج أفلام تدريبية "لتعلّم الطرائق".

وبين ليلة وضحاها، تحوّلت ماكسيموم بروداكشنز إلى شركة ناجحة منتجة لأفلام التدريب، وتتمتع بإحدى أفضل المهارات التقنية في العالم. لقد أثارت التطورات التكنولوجية والعالم القائم على التكنولوجيا المتقدمة اهتمام ماكس. لم يكن ذا توجّه تكنولوجي، ولكنه سرعان ما اكتشف كيفية معرفة الأفلام التي قد تحقق رواجاً كبيراً. واعتُبر ماكس معلّماً تكنولوجياً في عالم لا يميّز بين نظام دوس وسي أم بي، أو بين لوتس وورد برفكت.

وغابت طموحاته لإنتاج *أفلام واقعية* أو القيام بأي شيء باستثناء لعب الغولف، ومواعدة النساء الجميلات، والاستمتاع بشكل عام بأسلوب الحياة الكاليفورني.

* * *

مرت السنوات من دون أن يصادف ماكس أيّاً من الأسماء الاثني عشر المتبقية. لقد بدا الأمر تقريباً كما لو أن ماريا، ويوسكي، وبي. أن. شارما، ويوكو، جزء من حلُم.

وبوجود اسم واحد مستبعَد – الدب الراكض – كان من السهل الشك في أن الأمر مجرد وهم ناجم عن الصدمة المتأتية من حالة النورانية.

ولكنه صادف حاملي الأسماء واحداً واحداً بحيث إنه لم يعد في إمكانه الاستخفاف بواقعيّتها أو تفسير ما يجري.

وماذا عن... *الدب الراكض*؟

لا بد من وجود تفسير لذلك بالرغم من عدم موافقة الاسم للعقل والمنطق.

كان يتلقى مكالمة هاتفية كل بضعة أشهر – من والدَيه عادةً – يُعلمانه بحادثة أدت إلى اصطحاب لويس إلى مصحة للأمراض العقلية بهدف مراقبته، ولا يُطلَق سراحه إلا بعد ثلاثين يوماً.

كان يعرف الروتين: يتناول شقيقه الدواء في أثناء احتجازه، ويتوقف عن تناوله بعد إطلاق سراحه.

وذات مرة، وبعد حادثة أدت إلى احتجازه لمدة قصيرة من الزمن للمعالجة، ظهر لويس في كاليفورنيا. كان لا يزال كريه الرائحة، قذراً، ويتكلم بصوت عالٍ وبشكل غير منطقي تماماً. فشعر ماكس بالأسف لحاله وتدبّر أمر بقائه في فندق ماريوت حيث يبقى نظيفاً، ويحظى براحة جيدة في أثناء الليل.

والتقيا في اليوم التالي على مائدة الغداء، وعرض ماكس على لويس دفع أجر بقائه في الفندق لليلة أخرى.

"آه، لا، الفندق مرتفع التكلفة كثيراً"، قال لويس معترضاً، "لن أبقى هناك. يمكنني النوم في سيارتي في الموقف وادّخار كل ذلك المال".

فرُوِّع ماكس.

"ولكنه مالي"، أجاب، "ولا مانع لديّ في دفعه". ولكن لويس قاطعه قبل التمكن من مواصلة كلامه.

"لا! أحب ادّخار أموالي. سأبقى في السيارة". وهكذا افترقا، واتفقا على الالتقاء على مائدة العشاء في اليوم التالي.

في صباح اليوم التالي، ذهب ماكس إلى موقف سيارات فندق ماريوت بحثاً عن لويس، ولكنه لم يتمكن من العثور عليه. ولم يكن في أي من غرف الفندق.

وبعد عدة ساعات، وعندما التقيا على العشاء، سأل ماكس لويس عن المكان الذي نام فيه.

"رأيت موتيل 6 في مكان قريب، فركنتُ سيارتي هناك ونمت. إن تكلفة فندق ماريوت أكثر ارتفاعاً".

"ولكن موقف السيارات في الماريوت مجّاني أيضاً"، أكد له ماكس، "ليس هناك أي فَرق".

"لا تفهم أي شيء عن المال". وأصرّ لويس على ذلك، وتكلّم بنبرة لم تُعجب ماكس: "الماريوت أكثر تكلفة، ويمكننا تحمّل تكلفة عشاء جيد بالمال المدّخَر".

لم يُجب ماكس، واستمتعا بوجبة هادئة.

وبالرغم مما تعرّض له من ضرب في صباه من قِبل شقيقه، لم يتمالك نفسه عن الشعور بالأسف لحاله. وفي أثناء تناولهما الطعام، تبادر إلى ذهن ماكس ما أمل أن يكون الحل، واقترح على لويس أن يقوم طبيب نفسيّ بمعالجته. وعرض صفقة تقضي بتأمين راتب شهري إضافةً إلى ما يتلقاه لويس من والدَيه، شريطة تأكيد الطبيب أسبوعياً أنه يتناول دواءه.

فوافق لويس، وبدأت العلاجات. في الوقت نفسه، أصبح لاعباً شرِهاً ومنتظماً في حلَبة سباق دل مار. كان يجيد اللعب هناك أيضاً ويفوز بانتظام لدرجة أنه لم يعُد بحاجة إلى أخذ المال الإضافي من ماكس.

وبعد شهرين، توقف لويس عن رؤية الطبيب النفسي وأقلع عن تناول دوائه. وعلى غرار أفراد عائلة دوف كافة، كان الطعام إحدى مُتعه الرئيسة، متذرّعاً أن الدواء يُفسد معدته، ويتعارض مع مذاق الطعام، ويحمله على الشعور بالتوعك.

وحذّره ماكس من قطع المعونات المالية عنه إذا لم يستأنف تناول دوائه، ولكن التهديد لم يكن ذا أثر كبير بسبب دخله الجديد.

وتمثّل رد فعل لويس بتوجيه رسالة طويلة يتهم فيها ماكس بالقيام بنشاطات غير قانونية. وقال إنه سيرفع تقريراً بحق ماكس إلى مصلحة الضرائب والأف بي آي.

وبعد ذلك بقليل، توارى عن الأنظار وفقد ماكس كل أثر لمكان إقامته. وبعد تحريات سرّية، سمع شائعات بأن لويس اتخذ أسلوب حياة بدوية؛ يعيش في سيارته، يمضي فصل الصيف في ميشيغان وفصل الشتاء في تنيسي وفلوريدا.

وقد يلجأ لويس إلى استئجار غرفة عندما يشعر بالحاجة إلى سرير وإلى استحمام، ولكنه سيلجأ في الغالب إلى مواقع التخييم، ومواقف سيارات موتيل 6، ويتابع سباقات الخيل.

* * *

بعد وقت قصير من إعادة اتصاله بلويس، أظهر تشخيص طبي أن والدة ماكس، جاين، مصابة بداء السرطان في الجهة اليسرى من الدماغ حيث تسبب حادث السيارة بالضرر الأكبر.

وخضعت جاين لعلاجات بالأشعة وعلاجات كيميائية لقرابة عامَين، ولكن عندما فقدت قدرتها على الكلام والتحرك، سلّمت ماكس، الذي عاد إلى غرينويتش في زيارة أخيرة، ملاحظة قصيرة.

أنا مستعدة لدخول النور.

وأسلمت الروح بعد يومين.

فساعد ماكس والده على تنظيم مأتم جاين. لم توجَّه دعوة إلى لويس ولكنه لم يُمنع من المشاركة في المأتم، علماً أن هربرت اعترف في الواقع أن جاين كانت تعتقد سرّاً أن السلوك المنحرف لابنها الذي تسبب بنوبات قلبية مستمرة لوالده سرّع أيضاً في إصابتها بالمرض.

على كل حال، لم يكن ماكس أو هربرت يجد سبيلاً للاتصال بلويس، لذلك لم يتمكنا من دعوته إلى المشاركة في المأتم، وحتى لو أرادا ذلك لما كان في استطاعتهما إبلاغه بوفاة والدته.

غرايس

1984-1979

في حين كانت مهنة ماكس في صناعة الأفلام بمثابة رحلة حقيقية علـى سكة حديد الملاهي، ثبت في النهاية أن حياته العاطفية مأساوية على نحو مماثل... ولا يمكن توقعها.

فغـرايس برادلي هي المرأة الأولى التي التقاها ماكس بعد الانتقال إلى سـان ديـيغو. لقـد التقـى بها مصادَفةً في بركة سباحة "خاصة بالسكان" في مجمّعـات سي بوينت فيلدج السكنية في دل مار حيث كـان يقـيم. كانت تقوم بجولات في السباحة، وعندما خرجت من البركة علم ماكس أنه مغرَم. كانت شقراء ولديها أجمل ساقَين رآهما يوماً. إنها المثال الأعلى للجمال بنظره.

وتبعها إلى الحمّام الساخن.

كانـت عيـناها تضحكان كما لو أن شيئاً لا يقلقها في العالم، وكان صوتها عذباً بقدر عذوبة أي موسيقى سمعها يوماً.

"حـسناً، أتُراك السابح الأكثر خداعاً الذي رأيته يوماً!". قالت غرايس، ضاحكة: "أم تحاول تعمّد الالتقاء بـي؟"

"هناك أمر ما يحثني على ذلك كما أظن"، أجاب ماكس، وابتسم لهـا. "أنا سعيد للغاية لأنني التقيت بك صدفةً. أنت أجمل امرأة عرفتها يوماً على الأرجح".

وحملها ذلك على إطلاق ابتسامة واسعة وفاتنة.

"لا أرى خاتمـاً في إصـبعك". قـال: "آمل أن يعني ذلك أنك عزباء".

"أنا عزباء، ولكن لا تذهب بعيداً في أفكارك. أنا خارجة للتوّ من عملية طلاق، ووعدت نفسي بألا أبدأ بالمواعدة مجدداً طوال ستة أشهر على الأقل". أجابت غرايس، وعيناها تتلألآن تحت أشعة الشمس.

"حسناً، لسنا بحاجة إلى المواعدة، ولكن آمل أن نصبح صديقَين". قـال مـاكس: "لقد انتقلت إلى هذا المكان يوم أمس وأكاد لا أعرف أحداً في سي بوينت".

"لـديّ الكـثير مـن الأصدقاء، ويسرّني أن أكون ضمن اللجنة الترحيبية غير الرسمية". قالت، مبتهجة. "لقد نشأت في كنف والدتي في آيـوا وكنت في دَوري الناشئين. وبالرغم من أن الجميع في كاليفورنيا يـبدون شـديدي الاسـترخاء، فأنا لا أزال أعتقد باحترام الواجبات الاجتماعية.

"سـأعرّفك إلى الأشخاص المقيمين هنا، وستدرك بعد أسبوع واحـد أو أسـبوعين أنـني إحدى الجميلات العديدات هنا في سي بوينت".

كان ماكس في الثالثة والثلاثين من عمره ويستمتع بحرية العازب في سان دييغو، في حين أن معظم النساء اللواتي لم يبلغن سنّ الثلاثين لا يفكرن في إقامة علاقة حميمة في الموعد الأول. لذلك، وبانتظار غرايس، يمكنه إقامة كل العلاقات الحميمة التي يرغب فيها مع العديد من النساء الجـذابات اللواتي يلتقيهنّ في مهرجانات الأفلام، أو يتعرّف إليهنّ من خلال أصدقائه الجدد في كاليفورنيا.

* * *

لكن غرايس كانت مخطئة. فبعد ستة أشهر، لم تبقَ إحدى أولئك الجميلات العديدات، بل هي التي قُدِّر لها الزواج به.

* * *

بعد تسعة أشهر من المواعدة، طلب ماكس يد غرايس للزواج ووافقت.

كانت لا تزال امرأة أحلامه، فيشعر بسعادة غامرة عندما يكون برفقتها، ويقرص نفسه للتيقّن من أن الأمر حقيقة وليس خيالاً، وأنه سيحظى قريباً بزوجة مثالية.

كانت تبدي اهتماماً كبيراً بغت *ريل*، وهي طريقة في التأمل خاصة *بالعصر الجديد* استهلّها شخص يدعى هارولد هندرسن في كاليفورنيا. لقد بدا الأمر غريباً بالنسبة إلى ماكس، ولكنه لم يعلّق أهمية على الأمر بما أنه يُسعد غرايس.

لقد أُعجب ماكس بالنجاح الذي حققه هارولد، علماً أن ما يقوم به لا يعني له الكثير، ولكنه تمكن من اجتذاب جماعة من المعجَبين من خلال تلقين كيفية التأمل.

فالناس يدفعون مبالغ كبيرة من المال لحضور صفوف التأمل، كما أن هارولد يحظى بقدر ما يشاء من النساء. وبالرغم من كونه في العقد السادس من عمره، فقد نشر شائعات تفيد أن عمره يتخطى المئة، وأن تقنيات التأمل منحته شباباً أبدياً. وللمحافظة على شبابه، ادّعى أنه بحاجة إلى إقامة علاقات مع نساء أصغر سنّاً.

وتعتقد غالبية هؤلاء التابعات الشابات أن اختيارهنّ للمحافظة على شبابه هو أمر مشرّف لهنّ.

وغرايس محافظة كونها من آيوا. فبالرغم من ممارسة التأمل، لم تُقم علاقة أبداً مع هارولد وادّعت أنها لم تعتزم أبداً القيام بذلك. هي تعتقد

بالجنس بعد الزواج فقط، قالت بصراحة، ولكنها تعتقد أيضاً بتأملات *غِت ريل*.

من الواضح أن غرايس كانت مفتونة بهارولد.

وعندما علم هارولد أن غرايس مخطوبة لماكس، اقترح عليها الانضمام إلى صف أحد ممارسي التأمل الأكثر إلماماً.

فعرّف غرايس إلى ستيفن الذي كان طالباً في "المستوى الثالث". كانت غرايس قد مارست التأمل طوال تسع سنوات وارتقت إلى "المستوى الرابع". وشرح لها هارولد الأمر قائلاً إن لديها الكثير مما يمكنها تلقينه لستيفن، وإنها سترتقي إلى مستويات أعلى إذا قامت بذلك.

وبالإضافة إلى كونه في "المستوى الثالث"، يعمل ستيفن في ميدان العقارات ويملك الملايين من الدولارات، في حين أن ماكس كان يحصل آنذاك على راتب منتج مساعد يبلغ 40,000 دولار في السنة، ولا يمكنه الدخول في أي منافسة.

فأعادت غرايس الخاتم إلى ماكس، وبعد ثلاثة أشهر، ارتبطت بستيفن. لم يكن في استطاعة ماكس القيام بأي شيء.

لقد أُصيب بصدمة.

* * *

في اليوم التالي لقيام غرايس بفسخ خطبتها بماكس، طُرد ماكس من "سي أر أم فيلمز".

لقد شعر بحزن عميق بسبب فقدان غرايس، ورفض التخلي عن أمل العودة إليها لمدة طويلة من الزمن بالرغم من عدم اتخاذ الوضع هذا المنحى.

كانت ماكسيموم برودكشنز قد تأسست منذ مدة طويلة، فصرف اهتمامه إلى العمل. كانت نعمة مموّهة، عبارة عن انسجام

فكري وعاطفي في العمل، ولكنه لم يدرك ذلك بالرغم من كونه وسط المأساة.

في الواقـــع، ستمرّ عشر سنوات قبل أن تتضح الصورة كاملة في ذهنه.

العودة إلى غرايس

1994

تلقـــى ماكس اتصالاً هاتفياً من مِغ بركينـــز، إحدى صديقات غرايس الأكثر تقرّباً منها.

كـــان قد قطع الاتصال بغرايس أو بأيٍّ من مجموعات غِت *ريل*، ولكن، مرّ وقت كافٍ ليوافق على التقاء مِغ التي كانت ممثلة.

لقـــد قادت سيارتها من لوس أنجلوس لتطلب النُّصح من ماكس بـــشأن الأفـــلام، ولتطرح عليه فكرة عامة تريد تطويرها. فشرح لها بـــتهذيب قائلاً إن الفكرة التي تطرحها جيدة ولكنها ليست من النوع الذي يقوم بمعالجته.

ومن ثم، صعقته فكرة لاحقة.

"بالمناسبة، ماذا حل بغرايس؟". سأل بلامبالاة، بالرغم من إدراكه أن الجروح القديمة لم تندمل تماماً بعد. "سمعتُ أنها انتقلت. هل لا تزال مع ستيفن؟".

"آه، لا"، أجابت مِغ، هازّةً رأسها بقوة، "دام ذلك الزواج ثلاث سنوات فقط. انتقلت غرايس إلى بولندا وهي تبيع العقارات. في الواقع، هـــي قادمة في الأسبوع المقبل لأجل مؤتمر أعمال. أنا على ثقة تامة أنها ستحب أن تراك إذا كنت تملك الوقت".

لم يكن ماكس واثقاً من شعوره حيال دعوة مغ، ولكن الفضول تغلّب على الفطرة السليمة، وقال إنه يرغب في رؤيتها. فوافقت مغ على تدبّر أمر لقائهما.

* * *

بعد يومين، كان ماكس جالساً إلى مكتبه وهو ينظر إلى المحيط من غرفته الواقعة في الطابق الثاني من مبنى ماكسيموم. كان قد اشترى المبنى بسبب المنظر المُطلّ، ويُمضي معظم اليوم على الهاتف، مشاهداً راكبي الأمواج، والدلافين، والحيتان المهاجرة، ومفاتن أخرى على الشاطئ.

وأيقظه من شروده الذهني حضور أنثوي وراءه ويدان توضعان على عينَيه.

إنها غرايس. كان في استطاعته معرفة ذلك من دون سماع صوتها.

لقد شعر بحيويّتها، وسمع ضحكتها عندما رفعت يدَيها. وعندما استدار لينظر إليها، ذُهل برؤية امرأة في الأربعين من عمرها تقريباً لم تكبر يوماً واحداً منذ عشر سنوات.

ربما أثمرت ممارسات غتِ ريل التأملية أخيراً، قال في نفسه، ولكنه لم يقل ذلك بصوت عالٍ.

وتبادلا أطراف الحديث لقليل من الوقت، وشعر ماكس أنه يختبر حالة نورانية. هو يعلم أنه يشارك في الحديث، ولكن الأمر كان أشبه بمراقبة نفسه عن بُعد. فطلب منها الخروج لتناول الغداء.

* * *

بعد ثلاثة أشهر، ارتبط غرايس وماكس مجدداً استعداداً للزواج.

فدعا مئة شخص من أصدقائه المقرَّبين إلى أروبا، في البحر الكاريبي، واحتفلا بزفاف دام ثلاثة أيام وتضمّن رحلات استجمام

إلى ملاعب الغولف، وعلى متن مركب، وإعداد ولائم تقليدية حيث يرتدي الضيوف سترات السهرة ويرقصون على موسيقى فرقة موسيقية كبيرة في فندق بريكل باي الذي تم استئجاره لهذه المناسبة فقط.

لقد أدّت غرايس قسطها من الاستعدادات للزفاف، وضمّنته العديد من العناصر التقليدية المتوافرة على الجزيرة؛ كانت ذات ذوق جماليٍّ رائع. ولبّت حفلة الزفاف كل التوقعات... باستثناء توقّع واحد، بالرغم من قيام ماكس برصد ميزانية غير محدودة.

* * *

قبل الاحتفال، شعر ماكس أنه يرتكب خطأً. لقد قرر في الواقع استشارة العديد من الأصدقاء والوسطاء الروحيين، إضافةً إلى رجل الدين الذي سيقوم بمراسم تزويجهما، وأجمعوا على أنه من الخطأ الزواج بها. ولكن ماكس سمح لقلبه مرة أخرى بالحلول مكان عقله.

"إذا لم ينجح الأمر، يمكننا الحصول على الطلاق". قال بثقة. كان مأخوذاً برومانسية المناسبة وبجمال هذه المرأة التي سكنت قلبه طوال عشر سنوات وستغدو زوجته. لقد اعتبرها شريكاً روحياً لمدى الحياة، وحالة تلبي طموحات الجنس البشري والرغبة في إقامة وحدة بين المعلمين الروحيين الرائدين وطرائق التفكير العصرية.

كان ماكس على ثقة أنه الزواج الذي سيجد فيه الغاية من حياته.

التيبت

1996

بعد صيفين من الزواج، بدأ النعيم الذي شعر به ماكس بعد عقد قرانه يتلاشى.

فمنذ عودهما إلى كاليفورنيا، أوضحت غرايس أنه ليس المكان الذي تريد الإقامة فيه. هي تحلم بمنزل في فيرجينيا، كما شرحت، واستمرت في حثّه على الانتقال. ولكن ماكسيموم بروداكشنز موجودة في كاليفورنيا، وهي المؤسسة التي توفر لغرايس أسلوب الحياة الذي اعتادت عليه.

وبالرغم من مواصلة نشاطاهما كمدرّسة للتأمل، كانت غرايس الشخص الأكثر انهماكاً في شؤونها الذاتية الذي قابله يوماً. لم تكن تهتم بمهنته وبالأمور التي تثير اهتمامه.

كانت تُبدي بعض الاهتمام عندما يحاول إخبارها عن الاثني عشر، ولكن سرعان ما تتظاهر بالحاجة إلى القيام بأمر أكثر أهمية. وإذا ذكر الأمر لاحقاً، تكون قد نسيت ما أخبرها به من قبل.

قررت الذهاب إلى جاكسون هول، وايومينغ، للاختلاء في صومعة الراهبة التيبتية الوحيدة في العالم بعينيها الزرقاوين. فالراهبة تدعى أغاتا وينرايت، وقد قصدت التيبت في سنّ التاسعة عشرة

ورُسمت كاهنة. وبعد سنوات قليلة، أدركت أن حياة الترهّب ليست لها، وبحثت عن شريك روحي ملائم، وتزوّجا، ورُزقا بأربعة أطفال رائعين، محافظةً على ممارساهما البوذية التيبتية.

لقد جمعت في النهاية ما يكفي من المال لشراء قطعة أرض واسعة خارج جاكسون هول تبلغ مساحتها أربعمئة فدّان، وأنشأت معتزل ماندالا للطلاب الروحيين. لقد أعلنت أغاتا عن قيام راهب تيبتي شهير بإحياء صف خاص في نهاية آب/أغسطس، ويبلغ طول هذا الراهب ستّ أقدام وبوصتين، أطول من التيبتي العادي بقدم واحدة. وأُشيع أنه يمتلك قدرات خارقة ويمكن ليديه أن تخترقا الجلاميد.

إنه نوع المعلمين الروحيين الذين تاقت غرايس إلى لقائهم، لذلك تسجلت على الفور. وشجعت ماكس على الاشتراك أيضاً، ولكنه قاوم الأمر.

فقالت له إنها لا تريد الضغط عليه لحضور الصف، وأعطته كتاباً أزرق صغيراً بعنوان *تأملات الكمال العظيم*. ففتحه ماكس وقرأ الجملة الأولى.

هدف التأمل ليس التأمل.

"حسناً، إنه تبدل جيد". قال بسخرية: "قد أقرأ هذا الكتاب في الواقع".

ولكن غرايس لم ترتدع.

"أظن أنك ستكوّن فكرة مختلفة عن التأمل إذا انضممت إليّ في المعتزل". قالت.

فلم يقتنع ماكس، ولكنه أراد أن يُسعد زوجته ويُظهر لها أنه منفتح العقل - إن لم يكن توّاقاً - لتعلّم أسلوب جديد لضبط النفس.

وهكذا، دفع رسم التسجيل، وتوجّه بعد مدة قصيرة إلى جاكسون هول مع غرايس لتعلّم هذا التأمل الذي سيقوده إلى عدم التأمل. وحاولت أن تشرح له أن عدم التأمل هو جوهر التأمل الدائم في كل لحظة من الوعي واللاوعي؛ ما يدعوه البوذيون حالة من السرور البالغ.

في النهاية، تخلّت عن الأمر، ولكنها بقيت في حالة من السرور البالغ.

"أنا سعيدة جداً لأنك قررتَ القدوم". قالت بتودّد: "ستحبّ هذا المعتزَل".

بعد هبوط طائرتهما في وايومينغ، استقلا سيارة مستأجَرة من المطار وتوجها إلى مركز الاختلاء. كان الطقس حاراً ومغبّراً، والأميال الثلاثة الأخيرة من الطريق غير معبّدة، مليئة بالحُفر، وتطرح تحديات حتى بالنسبة إلى سيارتهما الفخمة.

لم يعلّق ماكس أهمية كبيرة على وسائل الراحة والتسلية التي اعتبر أنها ستكون ريفية في ذلك المكان. وعندما وصلا، شاهد لافتات تشير إلى مكان وجود مواقع التخييم.

لم يكن ماكس من النوع الذي يحب التخييم، لم يسبق له أن نصب خيمة في حياته. كان قد حل المساء تقريباً وخيّم الظلام عندما وصلا. وباستثناء المصباح المحمول الذي اصطحبته غرايس معها، لم يكن هناك أي ضوء.

لم يكن هناك كهرباء في كل الموقع كما يبدو.

فحافظت غرايس على شجاعتها في أثناء اختيار موقع للتخييم، ووجّهت ماكس بالطريقة الملائمة لنصب خيمة.

* * *

بعد ساعة من الزمن، شعر ماكس وغرايس بالإحباط وبسرعة انفعالهما، فانضما إلى بقية المجموعة في المبنى الرئيس حيث تُعقَد صفوف التأمل. كان يتم الإعداد للشروع بمرحلة تهيئة للتأمل، وأُعطيت وسادتان لماكس وغرايس وطُلب منهما المتابعة بانتباه.

لحسن حظ ماكس، كانت مرحلة التهيئة نموذجاً قصيراً دام خمس عشرة دقيقة، وكل من في الغرفة يمارسون التأمل منذ خمس سنوات أو أكثر. وبعد الجلسة، طُلب من كل شخص التعريف عن نفسه والإفصاح عن الأهداف التي حملته على المشاركة في الخلوة.

لقد أمِل معظم المتأملين رفع ممارساتهم التأملية إلى المستوى التالي. وشعر العديدون أنهم على وشك بلوغ مرحلة النيرفانا، أو على الأقل مرحلة يقطعون فيها صلتهم بأجسادهم أو حواسّهم أو أي أفكار متعلقة بالنشاط البشري العادي، ما دعوه "صَمَدي".

كان ماكس آخر من يتعيّن عليه التكلم، وعندما حان دوره للكشف عن أهدافه، تحدّث بصراحة.

"أنا موجود هنا في الواقع لمرافقة زوجتي، غرايس"، قال معترفاً، "لا أعرف شيئاً عن التأمل، ولكنها تمارس التأمل منذ عشرين عاماً، والأمر هام بالنسبة إليها. لذلك، أنا هنا".

لم يتقبّل زملاء الصف الجدد حقيقة أمره بارتياح، وتبيّن له أن الاختلاء هو للطلاب الذين بلغوا مراحل متقدمة في التأمل. وشعر العديد منهم أن ماكس تسلل إلى المعتزَل كونه زوج طالبة متمرّسة؛ نادراً ما تقوم ممارسة في مرحلة متقدمة بالزواج بشخص ليس من مستواها أو لا يملك حافزاً قوياً لممارسة التأمل.

فاستاء ماكس من الحكم الصادر بحقه على هذا النحو. لقد رآه في وجوه الأشخاص المحيطين به؛ وجوه هؤلاء المدعوّين طلاباً في

مراحل متقدمة. لقد ذكّره الأمر بالقادة الروحيين الذين التقى بهم في أسفاره والذين رفضوا تقبّل أولئك المختلفين عنهم.

ولاحظ أنه يتعيّن عليه الموافقة على ما يمارسونه وإلا انتُقصت قيمته كفرد. كان يكره الرياء، وقد أدرك أنه السبب الكامن وراء عدم اعتناقه أي معتقدات دينية محددة. كان ماكس على طريقه الاستكشافي الخاص، ولم يشأ أن يحيد عن حقيقة أمره وعن سعيه إلى اكتشاف الغاية الحقيقية من وجوده.

وتحدثت أغاتا، منظمة ومؤسسة مركز الاختلاء، من بعده. فرمقت الموجودين واحداً تلو الآخر بنظرات هادئة اكتسبتها طوال ثلاثين عاماً من التأمل، وشرعت بالكلام.

"سيكون هناك تبديل في المعلّمين هذا الأسبوع"، أقرّت، "أعرف أن معظمكم جاؤوا للقاء التولكو (الكاهن عالي الرتبة) هانكا بصفة خاصة وممارسة التأمل معه. لسوء الحظ، رفضت الحكومة الصينية منحه تأشيرة السفر التي تسمح له بمغادرة الصين، ولن يتمكن من الانضمام إلينا".

فحدثت همهمة بين الحشد، وانتظرت خمودها، وأضافت.

"سيحل مكانه التولكو الريبونش شيبا، مؤسس دير توركواز في النيبال. كان التولكو شيبا قادماً، على كل حال، لإجراء احتفالات تكريس المزار البوذي الجديد الذي سينتهي العمل على بنائه هذا الأسبوع. التولكو شيبا هو المرجع الأعلى في العالم للاحتفالات المرتبطة بالمزارات البوذية".

وفي حين فهم ماكس معنى عبارة "دير توركواز"، لم يتمكن من فهم مدى الأهمية التي أولاها الحشد للشخصين اللذَين ذُكر اسماهما. ولم يُبالِ بالأمر بما أنه لا يوجد أي فرق بين رجال الدين.

"إنه معلّم رائع"، أضافت أغاتا، "لذلك آمل أن تستفيدوا من الخلوة كما لو أن التولكو هانكا هو الذي يدير جلسات التأمل فيها".

لقد جمع ماكس بعض المعلومات عن احتفالات المزارات البوذية عندما كان يعمل على فيلم *البحث عن الفادي التاريخي*. فالمزار البوذي هو بناء مستدير الشكل، مليء بأغراض مبجلة لبوذا وذخائر من صُنع الرهبان، ويقوم بوذيون مكرَّسون بالتطواف في المكان في أثناء تلاوة أدعيتهم.

ويُعتقد أن المزار البوذي يمثّل وجود بوذا على الأرض، ويستمدّ الطاقة من بوذا ويمرّرها إلى أولئك الذين يموّلون بناء المزار، ويشيدونه، ويحافظون عليه، ويكرّمونه، إضافةً إلى أولئك الذين يتلون أدعيتهم.

بالرغم من تبريرات أغاتا، لم يتلقَّ طلاب التولكو هانكا بشكل جيد نبأ عدم تمكنه من الحضور. إنهم قادمون من مختلف أنحاء البلد، وقد دفعوا مبلغاً طائلاً من المال للقاء التولكو هانكا ذي القامة الطويلة.

ولم يكن التولكو شيبا مثل التولكو هانكا.

وكانت غرايس الأكثر تعبيراً عن خيبة أملها.

"إنه أمر غير منصف"، قالت بصوت عالٍ، "من أسباب مجيئي إجراء مقابلة مع التولكو هانكا سأضمّنها كتابي الذي أعتزم وضعه. كان يُفترض بك إعلامنا قبل وصولنا".

"سنبقى"، أضافت، "ولكن الأمر يتخطى كونه مخيّباً للآمال".

ودمدم الحشد موافقاً، ولكن قبل أن تتمكن أغاتا من الإجابة، دخل زوجها إلى غرفة الاختلاء ولفت انتباه أحدهم.

"من يملك سيارة رقم لوحتها 4 جي 18 في أر؟". سأل وسط الضجيج. "هي متوقفة في موقع التخييم، ويجب ركن كل السيارات في

الموقف المخصص لها فقط. إنها أرض مبجلة وحساسة من الناحية البيئية. يجب علينا أن نحترمها بأجمعنا، لذلك، أيّاً يكن مالك تلك السيارة، أرجو أن يقوم بنقلها على الفور".

إنها سيارة غرايس وماكس، فخرجا، وتمكنت من التدخين في طريق عودتها إلى موقع التخييم، ومن موقع التخييم مروراً بموقف السيارات ووصولاً إلى الخيمة.

كانت الساعة قد تخطت منتصف الليل بإحدى عشرة دقيقة عندما عادا، و لم تتمكن من استئناف تذمّراتها، و لم يتبقَّ لهما سوى الخلود إلى النوم.

* * *

في صباح اليوم التالي، وصل الريبونش، أي المعلّم كما دُعي طوال فترة الاختلاء، إلى المخيّم. كان مفتول العضلات، ويمتاز بصفات تيبتية حادة، ويرتدي لباساً أرجوانياً.

لم يكن الريبونش يتكلم سوى اللغة التيبتية – لم يكن يجيد الإنكليزية أبداً – لذلك اصطحب معه مترجمه الخاص.

لم تُعقد الجلسات في الوقت المحدد، ولكن عندما اعتاد ماكس على التأخير، أصبحت الصفوف كأي صفوف في الكلّية تقريباً. ووجد الأمر مثيراً للاهتمام، الأجواء مماثلة تقريباً لأجواء هارفرد ويال، وكانت المرة الأولى التي يحفّزه أستاذ على التطرق إلى شؤون فلسفية بعد حرمانه في يال من حضور صفوف في الفلسفة.

ولكن الريبونش أفضل من أساتذة يال. لم يكن يطرح أسئلة فحسب مثل: ما شكل الكون؟ أو ما لون الكون؟ بل كان يُعطي إجابات عنها أيضاً. وبدلاً من التعبير عن آرائه ببساطة، كان يبدو شديد الفضول لسماع آراء أفراد المجموعة الحاضرة.

لم يكن معظم الحاضرين يتطوعون للإجابة، ولكن ماكس اعتاد المشاركة... وإعطاء إجابات صحيحة. ولسبب ما، قال إن الكون أزرق.

وعندما أعطى هذا الجواب، قيل له إنه مخطئ ويُفترض به الخروج إلى الغابة المحيطة والتأمل للعثور على الجواب الصحيح. وقيل له إن الريبونش سيستدعيه عندما يمر وقت كاف على وجوده في الخارج.

وانتهى الأمر بماكس مُمضياً مزيداً من الوقت في الغابة أكثر من إجمالي المدة التي أمضاها المتأمّلون بأجمعهم.

لقد تخيّل الكون مجدداً على صورة لولب مزدوج، ولكنه مخطئ وفقاً للريبونش.

وكان عليه الخروج إلى الغابة مجدداً.

وبدأ يشعر كما لو أن الذهاب إلى الغابة أشبه باعتمار قلنسوة مغفّلٍ في الصف الثاني يجلس في الزاوية على كرسيّ من دون ظهر في أثناء حصة الآنسة مونتالدو الدراسية، ويسخر منه الطلاب.

ولكن هؤلاء المتأملين لم يكونوا يسخرون منه بالرغم من أن بعضهم لم يتمالكوا أنفسهم عن الابتسام بسبب كثرة خروجه إلى الغابة.

بالرغم من ذلك، كان الأمر جديّاً بالنسبة إلى المشاركين، وبدا أنهم ينظرون إلى انصياع ماكس بكل تقدير. و لم تُرسَل غرايس إلى الغابة أبداً لأنها لم تتطوّع للإجابة عن أي سؤال من أسئلة الريبونش، كما هي حال معظم أفراد المجموعة. لم تكن طبيعة التعليم تتطلب وجوب الإجابة عن الأسئلة المطروحة، و لم تكن توضع علامات، باستثناء العلامة التي قد يضعها كل مشارك لنفسه، تحديداً لمدى اقترابه من مرحلة التنوّر.

* * *

لاحظ ماكس العديد من الأمور بما في ذلك حس الفكاهة الرائع الذي يتمتع به معلّمهم.

ففي سنّ الثالثة، اعتُبر المعلّم مكمّلاً لسلالة الرهبان في دير عظيم في التيبت. وفي سنّ السادسة، كُرِّس تولكو في دير مجاور. إنه أمر غير عادي تماماً بما أن هذه التعيينات تعني أنه متقمّص من تولكو سابق، وهو أمر مماثل لعملية اختيار الدالاي لاما. ومن النادر في الواقع أن يتم اختيار الشخص نفسه مرتين، مما يعني أنه متقمّص من روحين متنوّرتين مختلفتين، ولكن من الواضح أن التعاليم البوذية تسمح بحدوث هذه الأمور الاستثنائية.

ومن وجهة نظر الريبونش، من النادر جداً أن تكون السلالتان اللتان يمثّلهما قد تمتعتا بأكثر من خمسمئة عام من الحكم الذاتي المتواصل الذي انهار في أثناء عهده.

كان في الخامسة عشرة من عمره فقط عندما قام الصينيون - الذين احتاحوا التيبت - بسجن كل الدالاي لاما ووضعهم في سجون ذات حراسة مشدّدة، وفي معسكرات للأعمال الشاقة في مناطق حرجية نائية حيث يُجبَر السجناء على قطع الأخشاب طوال اليوم ويتعرضون للتعذيب في الليل. والسجناء الآخرون الموجودون في المعسكرات هم المجرمون وأولئك الذين حُكم عليهم بالموت.

ويدخل الحراس في منتصف الليل ويختارون لاما أو مجرماً، ولا يظهر ذلك الفرد مجدداً في غالب الأحيان. وعندما يظهرون مجدداً - ولا يحدث ذلك إلا في حالات نادرة - يكونون قد تعرّضوا للضرب بشكل وحشي. ولن يطول الأمر حتى يؤخذ أولئك السجناء الذين تعرضوا للتعذيب للاستجواب، ولا يعودون أبداً بعد الاستجواب الثاني.

"في الواقع، كنت ممتنّاً لقيام الصينيين بسجني"، شرح الريبونش بواسطة مترجمه، "الأمر أشبه بالتواجد في جامعة اللاما الأكثر تثقيفاً في العالم. لقد جمع الصينيون اللاما الأكثر حكمة من أنحاء التيبت كافة، وتعلمت منهم جميعاً. كنت شاباً وقوياً وأحد أفضل العمال. لذلك، بقيت في المراتب الأخيرة على لائحة أولئك الذين يجب تعذيبهم وإعدامهم. ولكن شيئاً لم يكن أكيداً بالطبع"، أضاف، "وعندما أقوم بالتأمل، كنت قادراً على التأمل بطبيعة الزوال بطريقة لم يكن في إمكاني اختبارها من دون إدراكي الحقيقي أنني قد أتعرض للقتل في أي لحظة".

بعد أربعة عشر عاماً من العمل الشاق، قال الريبونش، إنه قد أُطلق سراحه ولجأ إلى النيبال حيث أنشأ ديراً للراهبات. معظمهنّ لاجئات من التيبت، والعديد منهنّ تعرضنَ للضرب والاغتصاب من قبل المحتلين الصينيين. وهناك التقى أغاتا، ودُعي إلى أداء الشعائر المبجلة لتكريس المزار البوذي.

إنه من سلالة بوذيّي دزوكن الذين جمعوا بين تعاليم شعب البون - قبيلة كهنتوية مقيمة في الجبال - وتعاليم بادماسامبهافا، وهو المعلّم البوذي التيبتي الأعظم ومؤسس الديانة البوذية. كان شعب البون موجوداً قبل قرون من بوذا، ويُعتقد أنهم يتمتعون بقدرات غريبة. ويتمثل الهدف من التأمل وفقاً لدزوكن بالتمكن من اكتساب "الجسد القوس قُزَحي". وهو تعبير يشير إلى اكتساب الروح المعرفةَ المطلَقة وتمكنها من اتخاذ أي شكل في أي وقت.

فالأمر أشبه ببلوغ حالة النيرفانا، إضافةً إلى تمكن هذا الشخص من التقمص متى يشاء على صورة كيان أو مادة يمكن أن يختارها، فيصبح عصفوراً، أو جبلاً، أو جدول ماء، أو حجراً، أو حيواناً، أو إنساناً آخر، أو قوس القُزح نفسه.

* * *

في اليوم الخامس من الصفوف، حان موعد تدشين المزار البوذي. فطلب المترجم من الجميع التحلّق، وأخبر الطلاب أنه في أثناء مشاركة الجميع بالترانيم سيكون الريبونش بحاجة إلى من يساعده على إتمام الاحتفالات، وهو أمر مشرّف جداً.

فماكس هو الشخص الوحيد الذي لم يكن من المنتظَر اختياره لأنه حديث العهد. وسواء أكان الريبونش يعرف ذلك أم لا، فقد انتهى به الأمر باختيار ماكس.

لم يكن ماكس يشعر أن الريبونش متنوّر، ولكنه أُعجب به وكنّ له كل احترام. كانت لديه مناقبية وتنظيم في العمل يحملانه على الاستيقاظ عند الرابعة صباحاً، وتقديم استشارات خاصة، ومن ثم التعليم بدءاً من الثامنة صباحاً وحتى السادسة مساءً. ويؤدي في معظم الأمسيات طقوس التأمل في الأكواخ، وتحت السّقيفات، وفي المنازل الريفية البسيطة المنتشرة على امتداد مركز الاختلاء التي تبلغ مساحته أربعمئة أكر.

وأُعجب ماكس أيضاً بواقع أن الريبونش يتناول اللحوم. كانت تحتوي كل وجبة يتناولها على لحم غنم مع أرزّ بالكاري عادةً وخضار، بكميات كبيرة. لقد عزز هذا الأمر ثقة ماكس بمفاهيمه بما أن غرايس ومعظم زملائها النباتيّين يعتقدون أن أكلة اللحوم يُحكم عليهم بقدر كبير من العذاب في الجحيم.

وطوال يومين كاملين، عمل ماكس كمبتدئ. كان يحمل الصينية التي يوضع عليها الأرزّ المُبجّل، ويسلّم أغراضاً مبجّلة إلى الريبونش الذي يلقيها بين الطلاب المتجمعين بعد تكريسها لأسياد وسيّدات مُبجّلين مختلفين.

عندما حان وقت التلاوة المطوّلة لطقوس محددة، قام ماكس بقلب صفحات لفافات أوراق قديمة. ويتألف طقس واحد أحياناً من عشرين

صفحة أو أكثر، وتتطلب تلاوته ساعة واحدة أو أكثر.

وبعد كل استراحة، كان ماكس يفترض أن دوره قد انتهى، ولكن الريبونش يستعين به مجدداً، لقد بدا له أن الزمن لا يمضي في أثناء هذه الطقوس. وتشكلت سُحُب غريبة في السماء.

كان الحاضرون مقتنعين أن السُّحُب تحمل شكل بوذا، وهي دلالة على حضوره. لم يكن ماكس واثقاً من ذلك، ولكن مساعَدة الريبونش حملته على الشعور بالمودّة وأن السُّحُب هي بمثابة التزام لمدى الحياة.

كان لا يزال غير قادر على التأمل لأكثر من عشرين دقيقة من دون الإصابة بملل جدّي.

* * *

عندما انتهت الاحتفالات، أُعدّت للحاضرين وليمة رائعة قُدّمت فيها أنواع الطعام كافة - الحلو منه والحامض - إلى جانب المشروبات على اختلاف أنواعها. كان موضوع الوليمة "مذاقاً واحداً"، وهو يعكس المفهوم الذي يشير إلى أن الأطعمة كافة متساوية ولا يُفترض بالمشاركين تفضيل نوع من الطعام على آخر.

لم يكن يُفترض بهم النظر إلى الطعام الموجود في الطبق الذي يبقيه الخدم مليئاً. ولم تكن هناك أدوات للطعام، لذلك يقوم كل شخص بالتقاط أول ما تلمسه يده ببساطة. وفي إحدى المرات، وجد ماكس في يده كعكة محلاّة مع مزيج من الطعام اللذيذ. كانت مغامرة إلى حدٍّ ما، وقد استمتع بكل دقيقة منها.

وقُبيل نهاية الوليمة، دنت أغاتا وينرايت من ماكس وسألته عما إذا كان جدول أعماله يشمل الحصول على استشارة خاصة من الريبونش. وتفاجأت عندما أجابها بالنفي.

"لا؟ حسناً، يُفترض بك ذلك حقاً"، قالت مُطلقةً ابتسامة عريضة، "لقد حصل الآخرون على استشاراتهم الخاصة. كنتَ مساعداً ممتازاً، ولا أريدك أن تُهمل الأمر".

* * *

عند الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، تجمّع الجميع في القاعة الكبرى لعقد الجلسة النهائية. وبدأت الترانيم قبل التأمل، وسأل المترجم بالنيابة عن الريبونش إذا كان يوجد في الغرفة من لم "يتخذ ملاذاً له" بعد. ويشير هذا التعبير إلى اتخاذ اسم تيبتي خاص يسمح للمتلقّي بالانفتاح على بادماسامهافا في أثناء التأمل، ويمنحه فرصة التنوّر واكتساب الجسد القوس قُزَحي، أيّاً تكن هذه الفرصة بالغة الصِّغر.

كان كل من في الغرفة قد اتخذ "ملاذاً آمناً" له باستثناء ماكس، لذلك تم استدعاؤه للوقوف أمام الجميع في الجهة الأمامية من الغرفة. ومُنح ملاذاً آمناً في احتفال سريع دام خمس عشرة دقيقة، ومرّر له الريبونش خِفيةً قصاصة ورق كُتب عليها اسمه التيبتي الجديد.

وفقد ماكس الورقة على الفور، ولم يتعلّم أبداً لفظ اسمه التيبتي. وقيل له إنه يعني "ماسة"، أي أنه يعني مفكّراً طاهراً قوياً وبارعاً.

بعد ذلك، كان هناك ترتيب إضافي قبل الشروع بالتأمل: لقد أحضر الريبونش معه من التيبت عشبة سوداء مرّرها على الجميع في الغرفة. وأخبر مترجمه الحاضرين أن العشبة زرعها اللاما التيبتيُّون القدماء في حدائق اعتنى بها الرهبان طوال قرون من الزمن. فالطاقة والبرَكة اللتان وضعهما الرهبان واللاما في العشبة تعزز الرحلات الروحية لكل من يتناول العشبة.

وتناول كل فرد جزءاً صغيراً من العشبة التي لا يزيد وزنها عن غرام واحد، ومضغه أو ابتلعه. وبما أن الجميع وجدوا هذا الأمر اعتيادياً، حذا ماكس حذوهم وابتلع العشبة.

لم يلاحظ حدوث أي أمر غريب على نحو استثنائي، ولكنه تفاجأ لدى اكتشافه أنها المرة الأولى التي يتمكن فيها من تحمّل ساعتين من التأمل من دون الشعور بملل تام، أو الانشغال بموضوعات عملية أخرى.

وبعد انتهاء التأمل، وإلقاء الجميع تحيات الوداع، توجّه ماكس إلى موقع التخييم الخاص بالريبونش للحصول على استشارته الخاصة. كان المعلّم ومترجمه في الانتظار.

وبدأ المترجم الجلسة.

"يريد الريبونش أن يعرف ما الذي تسعى وراءه، وما إذا كان في استطاعته مساعدتك"، قال.

"لا أسعى وراء أي شيء في الواقع"، أجاب ماكس بصدق، "ولكنني أتساءل عن سبب امتلاء العالم بهذا الكمّ من العنف والكره، وسبب معاناة الكثير من الناس".

وعندما تُرجم تعليقه، فكر الريبونش للحظات وأجاب.

"أحبّ الجميع كما لو أنهم أبناؤك"، قال المترجم، "بهذه الطريقة، ستبدأ بفهم أن ما تعتبره عنفاً وكرهاً يؤذي الأطفال ببساطة. فهذا النوع من السلوك لن يدوم".

بعد ذلك، أعطى الريبونش ماكس صورة له وبطاقة عمل كي يتمكن ماكس من مراسلته إذا كانت لديه أسئلة في المستقبل. وشكر ماكس بسبب المساعدة التي قدّمها إليه، وعاد إلى خيمته لحزم أمتعته والرحيل.

في طريق عودته إلى موقع التخييم الخاص به، لاحظ ماكس ازدياد حالة الوعي لديه. وبدأ يشعر بأن الأشجار والنباتات حيّة أكثر من أي وقـــت مضى. وانتابه بعد ذلك شعور بمشاركة الصخور، لا بل أيضاً الأرض التي يسير عليها.

بـــدا كل ذلك غريباً إنما ممتع. كما لو أن كل الحدود بين ماكس والأشياء الأخرى تزول.

هل يمكن أن يكون ذلك بفعل الصمَدي، تساءل.

وعندما وصل، وجد غرايس تفكك الخيمة.

"وضّـبت كـــل شيء، وأنا مستعدة للذهاب"، قالت، "كل ما علـــيك القيام به هو إحضار السيارة. يتطلبنا الأمر خمساً وأربعين دقيقة للوصـــول إلى المطـــار. إذاً، لننطلق". وقاطعت توجيهاتها الجازمة حالة الوعي الحاد الذي يشعر به ماكس، وامتثل لطلبها.

و لم ينظر ماكس إلى بطاقة الريبونش التعريفية إلا عندما جلس في الطائـــرة المـــتوجهة من وايومينغ إلى كاليفورنيا. كانت هناك في أعلى البطاقة حروف مكتوبة بشكل أنيق.

دير توركواز زان نيبال

وكان تحتها اسم

الريبونش غيواتما شيبا

لم ينتبه ماكس كثيراً في الليلة الأولى من وجوده في المعتزَل عندما أعلنت أغاتا أن التولكو شيبا سيحل مكان التولكو هاتكا.

ولكـــنه علـــم بوضوح مفاجئ أن الريبونش هو أحد الاثني عشر عندما نظر إلى الاسم "غيواتما شيبا".

فأسند ظهره إلى مقعده وغرق فيه. أخيراً، التفت إلى زوجته وقال: "يا الله، يا غرايس...". تمتم. "الريبونش هو أحد الاثني عشر".

"الاثنا عشر؟"، أجابت، "الاثنا عشر؟ ما الذي تتكلم عنه؟".

"الأسمـــاء الاثـــنا عشر التي رأيتها في أثناء اختباري حالة النورانية عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري". قال ماكس، وشعر بالإثارة تملأ كيانه.

"آه، تلك القصة القديمة"، أجابت مستنكرة، "ظننت أنك تخلّيت عـــنها في تلك السنوات الماضية. قلتَ إن الأمر لن يؤدي إلى أي مكان بعـــد لقائـــك بالأشخاص الأربعة الذين يحملون أولى الأسماء، وإن لا منطق أو رابط بين الأربعة الذين التقيت هم".

"هـــذا صـــحيح، ولكن ما حدث يبدّل كل شيء، الريبونش هو أحـــد الاثني عشر!"، قال ذلك وقد حلت الحماسة مكان الإثارة، "ربما تخليتُ عن البحث باكراً جداً".

فـــشعرت غرايس بالاغتمام، سوّت غرايس الطوق الخاص الذي تضعه حول عُنُقها والوسادات التي تصطحبها معها في كل رحلة جوية.

"حـــسناً، هذا جيد، يا ماكس"، قالت، "لم أحظَ بكثير من النوم لـــيلة أمس، وأنا بحاجة إلى قيلولة. يمكنك أن تطلعني على الأمر عندما نصل إلى المنـــزل".

فحـــدّق إلـــيها مـــاكس، ومن ثم تخلى عن الأمر وحاول قراءة الصحيفة.

ولكنه لم يتمكن من التوقف عن التفكير في الريبونش والعودة غير المـــرغوب فـــيها للاثني عشر إلى حياته. وعاد إلى الحالة التي خبرها في وقت مبكّر من اليوم من دون أن يصرف أي شيء انتباهه.

لقـــد بدا الأمر كما لو أن حواسّه اكتسبت مزيداً من القدرة، ورأى الـــروابط بين كل ما يحيط به سواء أكان متحركاً أم غير متحرك. لقد بدا كل شيء حيّاً وذا وعي، حتى الحبر الموجود في الصحيفة التي يقرأها.

وتلاشت المشاعر السلبية التي سبق له أن اختبرها، وكل ما شعر به هو الحب والتعاطف. كانت هناك قصة في الصحيفة عن فتاة تعرضت للاغتصاب، ولم يُلهب هذا الأمر فقط مشاعره بل وكون الحبر واقعاً إلى الأبد في شرك قصة الاغتصاب تلك.

بالنسبة إليه، لقد بدا الأمر كما لو أن الحبر يختبر الرُّعب الموجود في الكلمات التي يشكل خطوطها، وأن وعي الحبر لن يتحرر أبداً من ذلك الرُّعب حتى زوال الصحيفة.

في هذه الحالة بالذات، أدرك ماكس الغاية من حياته. من المقدَّر له السعي وراء الاثني عشر. لم يكن يعرف السبب، ولم يكن يعرف كيفية تحقيق ذلك. لم يكن يملك أي فكرة عن كيفية ترابط الاثني عشر في الواقع.

ولكنه يدرك أنه يتعيّن عليه إيجادهم.

الفصل التاسع عشر

صن الصيني

2001-1996

استمرت ماكسيموم بروداكشنز في الازدهار لدرجة أن ماكس لم يعد بحاجة إلى أن يكون موجوداً على الدوام لاتخاذ كل القرارات. وهكذا، وجد نفسه مقيماً خارج شارلوتفيل، فيرجينيا، في عقار كما كانت تحلم غرايس.

لقد بُني ساميت فارمز عام 1908 من قِبل عائلة دوبون التي اشترت في الوقت نفسه وجددت مونبيليه الذي وُلد فيه جيمس ماديسون. كان ساميت أكبر حجماً من مونبيليه، وقد بُني وفقاً للأسلوب الجنوبي التقليدي مع أعمدة ضخمة يرتكز عليها مدخل المنزل الفخم المؤلف من ثلاثة طوابق والبالغة مساحته اثني عشر ألف قدم مربعة.

كان من المنازل الأكثر جمالاً في الولايات المتحدة عندما شُيّد، والأكثر تحصّناً بالتأكيد. تبلغ سماكة جدرانه ثلاث أقدام، وقد بنيت لتدوم طويلاً. وهناك مكتبة من طابقين بمساحة ثلاثة آلاف قدم حوّلها ماكس إلى مكتب له. ولغرايس جناحها الخاص أيضاً، إضافة إلى خمس غرف نوم للضيوف ومسكن للخدم في الطابق الثالث.

وفي الطابق السفلي غرفة للبلياردو، وقبو للشراب، وغرفة لغسل الملابس، ومطبخ قديم يعود تاريخه إلى زمن استخدام مصعد صغير ونظام بكَرة لنقل الطعام إلى الغرف في الطوابق العلوية.

وهناك قاعة للرقص على ارتفاع الطوابق الثلاثة تتسع لنحو مئتَي زوج من دون حدوث أي ازدحام، وفيها شرفات مبنيّة فوق ساحة الرقص للموسيقيين.

لقد أعجب المنزل ماكس، ولكن غرايس أحبته. ولضمان مستقبلها هناك، سجّل الملكية باسمها، وقد كرّست نفسها للاستمتاع بالاعتناء بملكيتها هذه.

وقصدت المزادات العلنية في سوثبايز وكريستيز وحصلت على ثُريات تعود إلى زمن بناء المنزل، إضافةً إلى تحف أثرية، وسجاد، وموائد للطعام، وتحف صغيرة الحجم، وتماثيل، اعتبرت أنها ستزيد من الجمال الطبيعي للمنزل.

وعلّق أصدقاء ماكس قائلين إن المنزل يبدو واسعاً جداً لشخصين فقط، ولكن ماكس أوضح أنه يحب استضافة أشخاص وتكريمهم، وأن المنزل يمنح غرايس متنفّساً لإبداعها الجمالي. لقد تمثلت خطتها بتحويل المزرعة المخصّصة لتدريب الجياد البالغة مساحتها مئتَي أكر إلى مصنع للشراب، وتحويل المبنى الأصلي للمركبات إلى مكاتب، وتحصين الجسر الذي يعبر الخليج الصغير على امتداد ميل ويؤدي إلى المنزل الرئيس، وتجديد بعض الأهراءات ومبانٍ خارجية أخرى، وإضافة حلبة داخلية حديثة لتدريب الجياد، واستحداث بحيرة بمساحة ثلاثة أكرات مكان حقل الذرة القائم بين الغابات الخلفية والمنزل الرئيس.

"سيكون فنغ شوي جيداً"، قالت لماكس.

لم يكن لديه ما يقوم به تقريباً باستثناء تسديد الفواتير. واستخدمت غرايس مدبّرات منازل، ومديري مزرعة، ومديري مبنى. وكان المنزل يعجّ بالناس على الدوام كما لو أنه سيرك، فينسحب ماكس إلى مكتبته ويركز على فرص العمل المتوافرة.

كان ينسلّ من حين إلى آخر إلى كزويك المجاور للعب جولة أو جولتين من الغولف. فكزويك هو نادٍ خاص وفريد يحتوي على فندق فخم وعلى أغلى مطعم للذوّاقة في شارلوتفيل. لم يكن ماكس يحب طابع الأناقة والتميّز والخدمة البطيئة في المطعم، ولكن المشرب وقسم الشواء في نادي الغولف يوفّران الطعام نفسه من دون أي اهتمام زائد بتوافه الأمور.

لقد اعتاد ماكس القيام بالأمور بسرعة، ولذلك كان كزويك مثالياً بالنسبة إليه. كان هناك عدد قليل من الأعضاء نسبياً، لذلك يكون في استطاعته القيام بجولة غولف على امتداد ساعتين أو أقل عندما يغادر العمل بعد الظهر ويصل متأخراً.

وبقدر استمتاعه بالغولف، كان يجد نفسه يمقت اهتمام زوجته بالشؤون المادية، وتساءل عما إذا كان واقع انتسابه إلى عضوية نادٍ حصري للغولف يغذّي رغباتها المادية أكثر مما يغذّي رغباته.

لم يدرك تقريباً الحال التي أصبح عليها.

ومرة أخرى، بدأ يتساءل عن الغاية من حياته. هل هذه هي الغاية؟ هل وُجد ليجمع ثروة ويوفر لغرايس أسلوب حياة مُسرِف فحسب؟

وتاق أكثر فأكثر إلى الحصول على إجابات، وكان يبحث دائماً عن تحديات جديدة.

* * *

جاء التحدي على صورة فرصة عمل بعد إحالته إلى مايك غالاواي.

فغالاواي هو الذي ابتكر جهاز *الكتاب سهل القراءة* عام 1999. أول كتاب قراءة إلكتروني يمكنه أن يتسع لعشرات الروايات، والصحف، والمجلات، ويسمح للقراء باصطحاب المواد التي يرغبون في الاطلاع عليها أينما ذهبوا. لقد أُطلقت دعاية مضلّلة أن هذا الجهاز قد يغيّر طبيعة نشر الكتب ويعود على أوائل المستثمرين ببلايين الدولارات.

نتيجةً لذلك، أصبح ماكس من أول المستثمرين وطوّر صداقة مع مايك الذي كان نابغة في التكنولوجيا ويتمتع بالعديد من الهوايات المثيرة، بما في ذلك الاشتراك في سباق السيارات فائقة السرعة.

وبدأ ماكس بالسفر إلى بالو ألتو، كاليفورنيا، للمشاركة في سباق السيارات مع مايك. في إحدى هذه الرحلات، تقرّب منه مستثمر صيني شاب يدعى سيمباك أتى من فانكوفر، كندا، للقائهما بصفة خاصة. وانضم إليهما في أثناء توجههما إلى حلبة السباق، وشرح قائلاً إن شركته تطلق مشاريع جديدة في النشر وصناعة الأفلام في الصين، وتريد ضمان الحقوق لإنتاج جهاز *الكتاب سهل القراءة* هناك.

فالتفت مايك وسأل ماكس عن رأيه.

"الصين سوق كبيرة". قال ماكس بصراحة: "يُفترض بنا استكشافها".

* * *

وانطلقا إلى بكين.

كانت شركة سيمباك – كينوت – تستضيف مؤتمراً كبيراً حول مستقبل النشر، ودُعي الرجلان إلى إلقاء كلمة. مايك، لأنه النابغة

التكنولوجي وراء جهاز *الكتاب سهل القراءة*، وماكس، لمناقشة تطبيقات الجهاز في ميدان الأعمال. كانت الحكومة الصينية شريكة كينوت، وتقوم المحطة التلفازية، والإذاعة، والصحف الرئيسة بتغطية الحدث.

شرح مايك وماكس قائلين إن الجهاز يسمح بتخزين كل النصوص الصينية في أداة إلكترونية بسيطة، متجنّبين قطع ملايين الأشجار ومدّخرين بلايين الدولارات التي تُنفَق على إنتاج، وتخزين، وشحن كتب ورقية. لقد أحدث عرضهما جَلَبة، وأُقيمت مأدبة بعد ذلك أعلن فيها مؤسس كينوت أن الرجلين سيكونان مستشارَين للمبادرة الإلكترونية الجديدة.

في أثناء المأدبة، جلس ماكس إلى جانب المدير التكنولوجي الأول في كينوت الذي قُدِّم إلى ماكس باسم صن ببساطة. كان في أوائل العقد الخامس من عمره، طويل القامة، مثقفاً، متحفظاً، دقيقاً، يضع نظارة كبيرة، ويرتدي بذلة مع ربطة عُنق ذهبية اللون.

يتكلم صن الإنكليزية بطلاقة، ولكنه يفكر مليّاً قبل التكلم. وفي أثناء الوجبة، علم ماكس أنه يملك تاريخاً غير عادي.

كان في سنّ المراهقة في أثناء الثورة الثقافية لماو تسي تونغ، وقد أظهر موهبة استثنائية كممارس لرياضة الهوكي على الجليد، ومثّل الصين في الألعاب الأولمبية الشتوية عام 1980 وكان نجم الفريق.

تلقّى صن منحة دراسية كاملة لدراسة طب الأعصاب في كلّية الطب الرائدة في الصين. ومع بدء الصين بالانفتاح على الرأسمالية، تم اختياره ليكون الناطق الرسمي إضافةً إلى انتمائه إلى العديد من مؤسسات العناية الطبية. وبازدياد شهرته، أُرسل إلى كلّية وارتون بزنيس في الولايات المتحدة، وحصل على شهادة ماجستير في إدارة

الأعمال. لديه منازل في فانكوفر، وشيكاغو، وبكين. وبالرغم من أن العمل يشغل كثيراً من وقته، قام بممارسة التمارين الرياضية للمحافظة على لياقته البدنية، ودرس طب الأعصاب كهواية.

كان عمله مع كينوت هاماً، ولكن الوقت الذي يمضيه في عمله يمثّل 20 بالمئة فقط من الوقت المخصص لأعماله الأخرى نظراً إلى أدواره الهامة في شركات صينية عديدة رائدة، وسعى وراءه رأسماليون أميركيون رئيسيون مهتمون باستكشاف فرص استثمارية في السوق المحلية الصينية المتنامية.

ولكن ماكس لم يكن مهتماً بأيٍّ من هذه الأمور بقدر اهتمامه بمعلومة محورية، الاسم الكامل لصن. إنه الدكتور شو صن باك، وعرف ماكس أنه أحد الاثني عشر عندما لُفظ اسمه.

إنه الاسم السادس لمزيد من التحديد.

بطريقة ما، إن لقاء جرى بالصُّدفة في بالو ألتو، كاليفورنيا، حمل ماكس إلى بكين على بُعد آلاف الأميال، وهي المصادَفة الأخيرة في سلسلة من المصادفات المستحيلة.

وحافظ ماكس على هدوئه بالرغم من ذلك الشعور المألوف لدى تعرّفه الفجائي إلى أحد الاثني عشر.

"يا صن، لنتناول الغداء غداً"، اقترح ماكس بحِرص، "أريد معرفة المزيد عن كينوت، وأعتقد أن هناك فرصاً أخرى يمكننا مناقشتها أيضاً".

* * *

في اليوم التالي، وفي أثناء تناول غداء لذيذ في أحد مطاعم صن المفضّلة، خرج ماكس شيئاً فشيئاً من محور حديثهما الذي يتناول الأعمال، مراقباً ردود فعل صن بعناية. وعندما اتضح أن الرجل منفتح

على الأفكار الجديدة والغامضة، وصف لصن اختباره لحالة النورانية وللّغز الناجم عن الأسماء الاثني عشر.

لقد أصغى صن بصبر. وكونه رجل عِلم، كان متشككاً – وفضولياً في آن – حيال قصة ماكس.

"انطلاقاً مما قلته، لا يوجد أي دليل على حالتك تلك"، قال متحدثاً كما لو أنه يحلل نموذج عمل، "ربما كنتَ تهذي. عندما ينقطع الأوكسجين عن الدماغ، يمكن للعقل القيام بأمور غريبة".

فقدّر ماكس صراحته حق قدرها، ولكنه لم يرتدع كالعادة.

"ربما كان ذلك صحيحاً في بداية الأمر"، قال مجادلاً، "ولكن إذا افترضنا أن الأمر هو كذلك، كيف حدث أنني التقيتُ بستة من الأشخاص الاثني عشر حتى الآن؟ كيف تفسر طريقة تصرفهم أيضاً؟".

وفكّر صن في سؤاله ملياً وبجدّية قبل أن يجيب.

"إنه لغز حقيقي. لقد قرأتُ أن الفيزياء الحديثة تفترض أن الزمان والمكان يتواجدان في نقطة محددة حيث تتواجد كل مادة وطاقة، وكل الأحداث. قد تكون هذه النظرية صحيحة إلى حدٍّ ما، فدخلتَ ذلك الحيِّز الزمني في أثناء اختبارك حالة خروجك من الجسد".

"عندها"، أضاف، "صادفتَ اسمي ربما، أو أن شيئاً ما من ذلك الحدث بقي معك وحملك على الظن أن اسمي هو اسم سبق لك أن رأيتَه". وهز رأسه. "على كل حال، يجب علينا البقاء على اتصال، ليس لمتابعة مصالحنا العملية فحسب، بل للتحقق مما إذا كان في إمكاننا معرفة المزيد عن هذه الأسماء الاثني عشر اللغزية".

وغادرا، وبقي مزيد من الأسئلة من دون إجابات.

* * *

في العامين التاليين، كوّن صن وماكس صداقة وطيدة، وفي أثناء مناقشاتهما الفلسفية العديدة، توغّل صن أكثر فأكثر في لغز الأسماء الاثني عشر من خلال دراسة معاني الأعداد. ولاحظ صن أن عدد حروف اسمه واسم ماريا هو "تسعة"، ولكن أيّاً من الأسماء الأخرى لا تنطبق عليه هذه الميزة، لذلك بدا أن ذلك التحليل يؤدي إلى طريق مسدود أيضاً.

وثبت أن السوق الصينية لأجهزة *الكتاب سهل القراءة* مخيبة للآمال أيضاً. فقد كانت صعوبة اختراق هذه السوق أكبر مما كان متوقعاً، وأُقفلت كينوت بعد استثمار الرأسماليين عشرات الملايين من الدولارات، وكفّت عن كونها فكرة جيدة سابقة لزمنها.

وبالرغم من كون الأمر خيبة أمل مالية بالنسبة إلى ماكس، فقد شعر أن الصداقة التي تربطه بصن فاقت الإخفاق المالي أهمية.

ولكن وجهة النظر هذه تبدلت بعد فترة قصيرة.

الفصل العشرون

انهيار مالي

2004-2000

شعر ماكس أن وضعه المالي على المحك.

وبحلول العام 2000، كان قد ساهم في عدد من مواقع الإنترنت.

وفي العام 2001، بات في إمكانه الاطلاع على أعمال هذه الشركات، وتفاجأ بانخفاض قيمة أسهمه البالغة 30 مليون دولار إلى 30,000 دولار.

لم يكن المبلغ يغطي نفقات شهر واحد في ساميت فارمز، ولم تُسَرّ غرايس عندما أعلمها ماكس أنه لن يكون هناك أي مطعم، أو كرم عنب، أو منشأة لتدريب الجياد، وأنه سيكون عليهم بيع المنزل، والعودة إلى كاليفورنيا، والبدء من جديد.

"لن يحدث ذلك أبداً"، قالت بهدوء، ولكن بقسوة، "الزلزال الكبير قادم، ومن غير الآمن العيش في كاليفورنيا. لن أنتقل من هنا، ولن نبيع ساميت فارمز".

"لقد سجّلتَ المنزل باسمي"، أضافت، "ولن أبيعه".

فحاول ماكس التكلم معها بشكل منطقي.

"تعلمين أنني سجّلتُ المنزل باسمك لحمايتك في حال حدوث أي مكروه لي"، قال ذلك محاولاً إخماد الذُعر الذي ينتابه، "يجب علينا بيعه وفي الحال. أنا بحاجة إلى مساعدتك". قال بجدّية.

"لا"، قالــت ذلك، وأدارت له ظهرها، "لقد تأخرت على درس القيادة، جِد حلاً لذلك. إنها ليست مشكلتي".

وخرجت من الباب.

* * *

ذهب ماكس لمقابلة محاميه الذي أكد أنه ليس في استطاعة ماكس بــيع المنــــزل لأنه مسجَّل باسم غرايس. ومع ذلك، فقد اقترح على ماكس التوقف عن تسديد أقساط رَهن الملكية.

"ألن يؤثر ذلك في سمعتي ويعرِّض المنــزل للحجز؟".

"ربما، ولكن من المحتمَل أن يحمل غرايس على بيعه أو اتخاذ إجراء ما على الأقل".

وهكــذا، عمل ماكس بنصيحة محاميه، وعاد إلى المنــزل الريفي الذي يحتفظ به في دانا بوينت، شمال سان دييغو.

وتطلّــب الأمر عدة أشهر لتدرك غرايس أن أقساط الرَّهن لا يتم تــسديدها. وكــان رد فعلها سريعاً ونهائياً. فطالبت بالطلاق وبنفقة شهرية تبلغ 75,000 دولار.

وتــلا ذلك طلاق تشوبه فوضى عارمة كلّف ماكس في النهاية مــئات الآلاف مــن الدولارات على صورة رسوم قانونية. ووجدت غرايس طريقة لبيع ساميت فارمز والاحتفاظ بكامل المبلغ.

وبــات ماكس نحيل الجسم، وركز على إيجاد طرائق جديدة لجني مزيد من المال من خلال ماكسيموم بروداكشنــز، ولم يدرك ما الذي تقوم به غرايس إلا بعد فوات الأوان.

ولكن ماكسيموم واجهت مصاعب. فبعد هجمات 9/11، تراجع الطلــب علــى أفلام التدريب التقني، وتسببت الانقلابات المالية بألم حقيقي لماكس استقرّ في ظهره.

* * *

كان ماكس يعمل مع جيف شارنو، مؤسس شركة ريلاكسايشن. وهــو ناشر صغير للمنشورات السمعية متخصص في الموسيقى الأجنبية والكتب السمعية الناطقة. وحضرا لقاءات اتحاد ناشري الكتب والأفلام في لــوس أنجلوس، ولاحظ جيف أن ماكس يبدو غير مرتاح إلى حدٍّ كبير.

"لا أظــن أنــني أطلعتك على الأمر من قبل"، قال جيف في أثناء العــشاء، "ولكــن، قبل أن أنشئ شركة ريلاكسايشن، كنت مدلّكاً. يبدو لي كما لو أن ظهرك غير مستقيم، وإذا رغبتَ، يمكنني أن أوصي بزميل سابق في الصف في دانا بوينت يُفترض بك مقابلته برأيي. سيقوّم لك ظهرك بفترة قصيرة". قال جيف لماكس: "سأرسل إليك عبر البريد الإلكتروني معلومات عنه".

وهكذا، وعندما عاد ماكس إلى مكتبه، وجد رسالة إلكترونية في انــتظاره. ولــدى فتحها، تفاجأ بكون عنوان صديق جيف على بُعد مجمّعَين سكنيَّين فقط من مكتبه.

وأُجفل ماكس عندما قرأ اسم صديق جيف.

الطبيب آلن تايلر.

كــان مــاكس كثير الانشغال بالطلاق ويحاول تعويض الخسائر الــناجمة عن انخفاض سعر أسهم استثماراته في مواقع الإنترنت، لدرجة أنه نسي أي أمر آخر. ولكن يبدو أن قدره لم ينسَه.

فالطبيب آلن تايلر هو أحد الاثني عشر.

طلب ماكس موعداً لمقابلة الطبيب تايلر قبل التطرّق إلى موضوع الأسماء الاثني عشر.

بعد أسبوع، دخل مكتباً مطلياً باللون الفيروزي، والتقى بالطبيب الذي يتخطى طول قامته ست أقدام. كان شعره مجعّداً كثّاً وبنّياً بلون

الـرمال، كـان يتمتّع بابتسامة ودّية، ومِزاج جيد، وطبع معتدل. والطبيب تايلر شديد الصبر ونادراً ما ينفعل. كان يُظهر جانباً فكرياً وتحليلياً، ويبدو متشككاً في معظم الناس والأفكار.

فبالـرغم من مزاولته مهنة الطب في كاليفورنيا الجنوبية، لم يكن يـثق بالعـصر الجديـد غير المفهوم وبصرعاته، وهو أمر فاجأ ماكس وسَرّه.

وشرح آلن طريقة عمله، وطلب من ماكس ملء بعض الأوراق، وفي غـضون خمـس دقائق، كان ماكس مستلقياً على طاولة المعالَجة ويقوم الطبيب بتدليك أوصاله.

"بقليل من المعالجة، يجب أن يُولّي ألم ظهرك"، قال له آلن مطَمئناً إيّاه.

وثبـتت صحة الأمر مما أدهش ماكس. فآلن يعتمد تقنية فريدة؛ بعد استلقاء ماكس على طاولة المعالجة، تستغرق جلسة تقويم الظهر أقل من دقيقتين ويشعر بتحسن كبير.

* * *

بعـد اثني عشر أسبوعاً من المعالجة، قرر ماكس مشاطرة الطبيب قصة الاثني عشر.

"أيهـا الطبيب تايلر، هل تعتقد باختبار حالات نورانية؟"، سأل ماكس ذات يوم بعد جلسة المعالجة.

"ادعُـني الطبيب آلن، الجميع يدعونني على هذا النحو"، أجابَ الطبيب، "وإجابةً عن سؤالك، في الواقع لا. لقد أطلعني مرضى آخرون علـى هذه الأنواع من الخبرات، ولكنني واثق من وجود شرح منطقي؛ إن حالة النورانية لا معنى لها. لماذا تسأل؟".

فقرر ماكس المتابعة.

"لأنـني مررت بهذا الاختبار عندما كنت في الخامسة عشرة من عمـري، وكان اسمك من بين اثني عشر اسماً رأيتها في حالة النورانية"، قال شارحاً.

فكّر الطبيب آلن في الأمر للحظات، وعندما تكلم لم تكن هناك أي دلالة على الاستعلاء في صوته.

"يـبدو الأمـر غير قابل للتصديق بالنسبة إليّ، ولكن، انطلاقاً مما أعرفه عنك، أنت شخص عمليّ جداً. لذلك، أخبرني بالمزيد".

دخـل مـاكس في وصف تفصيلي لما رآه وشعر به، وأصبح لغز الاثـني عشر موضوع النقاش في كل زيارة تالية، علماً أن أيّاً منهما لم يتمكن من تذكّر صلة سابقة جمعته بالآخر، ولم تكن لآلن أي صلة بأي من الأسماء الأخرى. وبشعوره بالحماسة حيال قصة الاثني عشر، عرض علـى ماكس مساعدته في العثور على الخمسة الآخرين إذا قرر متابعة بحثه بشكل جدّي.

"شـكراً"، أجـاب ماكس، "قد أستعين بك. لنرَ كيف تتطور الأمور".

وبذلك، انتهى استقصاؤهما عن الاثني عشر، أقلّه في ذلك الوقت، وتـناول نقاشـهما موضوعات الغولف والنساء، وركوب الأمواج، وتقويم ظهر ماكس وعموده الفقري.

* * *

بالرغم من زوال الألم الجسدي لماكس، لم تخمد حالة الاضطراب المـالي. فالاسـتقرار الزوجي الذي كان يعيش في ظله كان يقوم على الـدخل المـرتفع الـذي تمتع به قبل الطلاق. ولكن النفقة التي أعطى غـرايس إياها هي أكبر من دخله، وأتت التسوية التي توصّل إليها على ممتلكات ماكس ومدّخراته أيضاً.

فكل ما تبقّى له شركة صناعة الأفلام، ماكسيموم بروداكشنز.

كان في استطاعته إيقاف النزف المالي في شركته، ولكن النفقة الكبيرة منعته من المحافظة على الحياة الخالية من الهموم التي كان يستمتع بها ذات يوم. والغريب في الأمر أن ماكس لم يكترث كثيراً لخسائره المالية.

وبهذه القدرة الفريدة على التكيّف، بدأ بالتركيز على أفلام الأعمال وأسلوب الحياة بدلاً من الأفلام التكنولوجية، وأخذ يستعين بشخصيات ملهمة خارج ميدان صناعة الأفلام التكنولوجية.

من بين هؤلاء الشخصيات الطبيب إيفان فارن، وهو أول بحّاثة يلتقي به ماكس ويناقش معه تفاصيل فلسفة وايتهيد. كان مسروراً لأن إيفان يقدّر على غراره ما ورائيات وايتهيد المعقدة.

ومع الوقت، أصبحا أكثر من مجرد زميلَين؛ لقد باتا صديقين حقيقيّين.

كان إيفان أكبر سنّاً من ماكس بنحو عشرين عاماً، لذلك اتسمت العلاقة بينهما بمشاعر الوالد حيال ابنه. لقد توفّي هربرت دوف بعد بدء ماكسيموم بروداكشنز بتحقيق نجاح باهر، وشعر ماكس بالارتياح لأن والده عاش ليرى نجاحه وليس انقلاباته المالية الأخيرة.

لقد افتقد إلى حدٍّ كبير إلى الاتصالات الهاتفية المتكررة التي كان يجريها مع والده الذي كان يبدو مسروراً ومنذهلاً على الدوام بالنجاحات العديدة التي تحققها أفلام التدريب. وتشاطر مع إيفان حماسته للفن، والموسيقى، والفلسفة، بدلاً من مسائل الأعمال، وأصبح إيفان أكثر فأكثر الشخص الذي يتصل به ماكس عندما يحدث أمر رائع في حياته.

وإيفان فارن هو مؤسس *نادي الأماني المستحيلة*، وهو مؤسسة استشارية خيرية مخصصة لجمع شمل البشرية في حضارة كوكبية واحدة متماسكة، وقد طلب من ماكس الانضمام إلى مجلس الأُمناء بصفته الممثل الأميركي في النادي. فوافق ماكس، وبدأ بحضور لقاءات محفّزة في مختلف أنحاء أوروبا إلى جانب علماء ذائعي الصيت ورؤساء حكومات ورؤساء دول.

وبالرغم مما يسعون إلى تحقيقه، لم يحصلوا على التمويل الكافي لتنفيذ خططهم الجريئة، ولكن، كان للمجموعة وَقع كبير على الكوكب وإن بشكل غير متعمَّد.

فكل ما تبقّى له شركة صناعة الأفلام، ماكسيموم بروداكشنز.
كان في استطاعته إيقاف النزف المالي في شركته، ولكن النفقة الكبيرة منعته من المحافظة على الحياة الخالية من الهموم التي كان يستمتع بها ذات يوم. والغريب في الأمر أن ماكس لم يكترث كثيراً لخسائره المالية.

وبهذه القدرة الفريدة على التكيّف، بدأ بالتركيز على أفلام الأعمال وأسلوب الحياة بدلاً من الأفلام التكنولوجية، وأخذ يستعين بشخصيات ملهِمة خارج ميدان صناعة الأفلام التكنولوجية.

من بين هؤلاء الشخصيات الطبيب إيفان فارن، وهو أول بحّاثة يلتقي به ماكس ويناقش معه تفاصيل فلسفة وايتهيد. كان مسروراً لأن إيفان يقدّر على غراره ما ورائيات وايتهيد المعقدة.

ومع الوقت، أصبحا أكثر من مجرد زميلَين؛ لقد باتا صديقين حقيقيَّين.

كان إيفان أكبر سنّاً من ماكس بنحو عشرين عاماً، لذلك اتسمت العلاقة بينهما بمشاعر الوالد حيال ابنه. لقد توفّي هربرت دوف بعد بدء ماكسيموم بروداكشنز بتحقيق نجاح باهر، وشعر ماكس بالارتياح لأن والده عاش ليرى نجاحه وليس انقلاباته المالية الأخيرة.

لقد افتقد إلى حدٍّ كبير إلى الاتصالات الهاتفية المتكررة التي كان يجريها مع والده الذي كان يبدو مسروراً ومنذهلاً على الدوام بالنجاحات العديدة التي تحققها أفلام التدريب. وتشاطر مع إيفان حماسته للفن، والموسيقى، والفلسفة، بدلاً من مسائل الأعمال، وأصبح إيفان أكثر فأكثر الشخص الذي يتصل به ماكس عندما يحدث أمر رائع في حياته.

وإيفان فارن هو مؤسس *نادي الأماني المستحيلة*، وهو مؤسسة استشارية خيرية مخصصة لجمع شمل البشرية في حضارة كوكبية واحدة متماسكة، وقد طلب من ماكس الانضمام إلى مجلس الأُمناء بصفته الممثل الأميركي في النادي. فوافق ماكس، وبدأ بحضور لقاءات محفِّزة في مختلف أنحاء أوروبا إلى جانب علماء ذائعي الصيت ورؤساء حكومات ورؤساء دول.

وبالرغم مما يسعون إلى تحقيقه، لم يحصلوا على التمويل الكافي لتنفيذ خططهم الجريئة، ولكن، كان للمجموعة وَقع كبير على الكوكب وإن بشكل غير متعمَّد.

اسطنبول، مدينة الأمل

2004

لدى محاولة *نادي الأماني المستحيلة* توسيع نشاطاته، سعى إلى إقامة تحالف مع رجل يدعى إيرول ريزو يقيم في اسطنبول.

كان إيرول الاسم الثامن من بين الأسماء الاثني عشر، كان قصير القامة وبديناً، وذا عينين ذكيّتين قاتمتي اللون، وحس فكاهة مشوّه، ومزاج سعيد بصورة عامة. وهو رجل لا يستطيع البقاء مكتوف اليدين، إنه مدمن على عقد صفقات.

بالرغم من نجاحاته، كان إدمانه الاستثنائي على العمل وقدرته العجيبة على جني المال محطّ إعجاب الآخرين. كان يستمتع بالتعاطي مع عدة صفقات كبيرة في آن معاً، ويرفض تقبّل الهزيمة. وكلما كان التحدي أكبر ازداد سروره بالخروج منه منتصراً.

والدته ووالده من ديانتين مختلفتين. وُلد في اسطنبول، وهو الأصغر بين أشقائه الخمسة. لقد عمل والده كبائع فاكهة في السوق، وبدأ إيرول ببيع الليمون في سنّ السادسة.

برز على الفور كشخص شديد البراعة.

إنه يتمتع بالذكاء والدينامية، وقد اختير من بين أشقائه الخمسة لارتياد المدرسة حيث تفوّق، وحصل على منحة دراسية لارتياد الجامعة، وقرر الحصول على مهنة في الحكومة.

إثر تخرّجه، اختار العمل كمساعد لعضو في البرلمان، وانتُخب مستخدمه رئيساً للوزراء بعد عامين. كان إيرول آنذاك في الثالثة والعشرين من عمره فقط، واعتُبر شخصاً ذا نفوذ.

وبدأ رئيسه يُعدّه ليكون وزيراً مستقبلياً، بل ربما رئيساً للوزراء. واستمرّ التدريب ست سنوات، وتقدّم رئيس الوزراء إليه باقتراح.

"انسَ أمر غدوّك رئيساً للوزراء، أو تسلّم أي منصب مماثل"، قال بجدّية، "سيكون هدراً رهيباً لموهبتك. لديّ عمل أكثر أهمية لك؛ أريد منك إدارة شؤون استيراد وتصدير النفط للحكومة".

فوافق إيرول، وثبت بسرعة أن خيار رئيس الوزراء حكيم. لقد نجح في منصبه الجديد، وحقق ثروة طائلة للحكومة. ولكن بعد ثلاث سنوات، خسر حزبه السياسي في الانتخابات، وأُبعد إيرول عن منصبه.

وشاءت الصُّدف أن يجد إيرول على الفور من خلال معارفه ووعيه دعماً مالياً مكّنه من إنشاء شركة استيراد وتصدير للنفط، وأصبح بعد ثلاث سنوات من أثرى أثرياء تركيا.

وحماسة إيرول في كل ما يقوم به مُعدية، وهو شخص كريمٌ، ولديه رغبة صادقة في مساعدة الآخرين. لقد أصبح أحد المحسنين الرئيسين الداعمين لمسيرة إبراهيم.

وفي أثناء لقائهم في اسطنبول، استضاف إيرول بشكل جيد مدراء *نادي الأماني المستحيلة* واستمتعوا بمدة إقامتهم هناك. فملأ كل دقيقة شاغرة من وقتهم برحلات إلى المتاحف والعجائب الهندسية، وبرحلات على متن المراكب في بحر مرمرة، والقرن الذهبي، والبحر الأسود، والبوسفور. وعرّف الجميع إلى المطبخ التركي الرائع، وكانت هناك باستمرار حفلات ترفيهية وتناول مشروبات لرفع المعنويات.

فعندما رأى ماكس مدى انفتاح إيرول على كل شيء في الحياة، قــرر ائــتمانه على سرّه. لذلك، وقُبيل نهاية مساء اليوم الثاني، شاطر إيرول عملية اختباره لحالة النورانية ورؤيته للأسماء الاثني عشر.

ولشدة سروره، لم يتقبّل إيرول ما قاله ماكس فحسب، بل فعل ذلك بحماسته المعتادة.

"أنــا واثق من أن الأمر هام"، قال لماكس، "ومع ذلك، أتوقع أننا لــن نتمكن من حل هذا اللغز حتى يتم التعرف إلى الأسماء الاثني عشر والعثور على أصحابها".

"صــحيح جــداً"، قال ماكس ذلك موافقاً إيّاه الرأي، "وكل ما يمكنني القيام به هو انتظار ظهورهم. حتى ذلك الحين، إن الاسم الوحيد المتوافــر لــديّ هو الدب الراكض، وإذا لم أكتشف معناه فقد لا تعني الأسماء الأخرى شيئاً".

"إنهــا أُحجــية، وسأبذل قُصارى جهدي لمساعدتك على جمع أجزائها"، أضاف إيرول، "إذا احتجت إلى أي شيء، ليس عليك سوى طلب ذلك مني".

"لمــاذا تعتــبر هــذا الأمر هاماً؟"، سأل ماكس، "لماذا تقبّلتَ ما أخبرتك به من دون تردد بالرغم من غرابته؟".

كان إيرول واضحاً في جوابه.

"لقــد علمــتُ منذ ولادتي أن مصيري يفترض بــي التصرف بطرائق محددة. لم أشكك أبداً في الفرص التي أُتيحت لي، ولن أشكك الآن".

"ولكن يمكنني أن أؤكد لك أن مصيرَينا مرتبطان بحل هذا اللغز".

الفصل الثاني والعشرون

حادث اصطدام

أيار/مايو 2012

كراش!

كان صوت المعدن على المعدن جليّاً.

كــان ماكس يتحدث عبر هاتفه الخلوي لإنهاء صفقة حول فيلم، ولم يكن منتبهاً إلى ما يجري. لقد توقف في الواقع عند إشارة مرور أمام تقاطع جادتَي لا بريا وسيتروس في لوس أنجلوس، منتظراً الانعطاف إلى اليسار، لذلك لم يكن المتسبّب بالحادث تقنياً.

كانــت السيارة المتوقفة أمامه قد انطلقت للانعطاف إلى اليسار. وعــندما أدركت السائقة أنها عالقة وسط الطريق بسبب تبدّل إشارة المــرور، عادت بسيارتها إلى الوراء من دون أن تدرك أن ماكس انطلق بسيارته إلى الأمام وصولاً إلى التقاطع.

أنهــى ماكس الصفقة عبر الهاتف، وخرج من سيارته البــي أم دبليو لــتفحّص الضرر. كانت هناك بعض الخدوش على المصدّ الأمامي، وكان المصباح الأمامي محطماً، ولكنه شعر بالارتياح لأن الأمر لم يكن أسوأ.

لم يظهر على السيارة رباعية الدفع التي اصطدمت به أي خدش. فخــرجت السائقة لتقييم الأضرار، وتحققت من أن سيارتها لم تتضرّر. والتفتت إلى ماكس الذي لوّح لها.

"لا يبدو الضرر بالغاً، ومن غير الضروري تكبّد عناء رفع تقرير إلى شركة التأمين"، قال بودّ، "تبدو سيارتك سليمة، لذلك، برأيي، فلننسَ الأمر".

ومدركةً أنها تحررت من الحادث، قفزت المرأة إلى داخل سيارتها من دون تردد، وانطلقت. وتمكّن ماكس من إجراء مقابلته التالية، ولم يلاحظ وجود انبعاج كبير في الجهة الأمامية من سيارته إلا عندما عاد إلى دانا بوينت، وهو يحاول رفع غطاء المحرك.

لم يكن الحادث الأول الذي يتعرض له مِصَدّ سيارته. كان قد تعرّف إلى شركة تدعى دنتس أر أس، وتقوم بإرسال شاحنة مزوّدة بالتجهيزات كافة لإصلاح سيارته على الفور. فأجرى ماكس الاتصال، وحُدّد موعد لإصلاح السيارة في اليوم التالي الذي صودف أنه يوم سبت.

وقُرابة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، سحبت شاحنة التصليح التابعة لدنتس أر أس سيارة ماكس. وقيّم السائق المدعو خوان الضرر، وحدد مبلغ 800 دولار لجعل السيارة تبدو جديدة، وشرع بالعمل بعد موافقة ماكس. وفي الثانية من بعد الظهر، رنّ خوان الجرس، وسلّم ماكس سيارته التي تمّ إصلاحها تماماً.

فتبادلا أطراف الحديث في أثناء قيام ماكس بتفحص عمله اليدوي. وبما أن خوان مكسيكي ويتكلم الإسبانية، تمكنا من التحاور بشكل عادي. وشرح له ماكس أن السيولة النقدية غير متوافرة معه وأن المصرف مقفل، لذلك عليه تسديد المبلغ من خلال شيك باسم الشركة. فقال خوان إنه يتعيّن عليه الحصول على إذن لقبول شيك، ولكنه لا يستطيع المراجعة بالأمر حتى يوم الاثنين.

"لا مشكلة في الأمر"، قال خوان، وسلّم ماكس بطاقته.

على تلك البطاقة، وتحت شعار دنتس أر أس، كان يوجد اسمه.

خوان غونزالو أكوستا

نظر ماكس إلى الرجل النحيل ذي الشعر قاتم اللون الواقف أمامه، وأدرك أن خوان يرتدي قميصاً أزرق داكناً. إنه اللون الذي رآه ماكس حول اسم خوان في أثناء اختباره حالة النورانية. وبعد ثماني سنوات من آخر لقاء له بأحد الأشخاص الاثني عشر – مدة بدت لامتناهية – عثر ماكس أخيراً على صاحب الاسم التاسع.

فدعا خوان على الفور إلى دخول المنزل، وتناول شراب الشعير. وسأله عن مكان ولادته، وما إذا كان متزوجاً، وعن سبب وجوده في الولايات المتحدة، وعشرات الأسئلة الأخرى.

كان خوان مسروراً بتناول شراب الشعير، وبعد لحظات قليلة من الاضطراب الذي أحدثته كل تلك الأسئلة، بدا مرتاحاً ولكن فضولياً بسبب الاهتمام المفاجئ الذي أبداه ماكس به.

فخوان من بلدة صغيرة تدعى إيزابا جنوب المكسيك، على ساحل الخليج، وعلى بُعد ثمانين كيلومتراً من الحدود مع غواتيمالا. إنه الأصغر بين سبعة أشقاء وشقيقات، ويملك والده مزرعة صغيرة ويعمل كقيّم نهاري (كاهن روحي مُبجَّل وفقاً لتقليد المايا القديم)، متزوج ولديه ابنان.

لقد مضى عامان فقط على وجوده في الولايات المتحدة، ولكنه تمكن من الحصول على بطاقة خضراء، وكان فخوراً بسبب تمكنه من جَني ما يكفي من المال بعد امتهان مهنة إصلاح الانبعاجات، والاهتمام بعائلته المتنامية، وإرسال المال كل شهر لدعم والده وأشقائه. كانت والدته قد توفّيت قبل أشهر قليلة من قدومه إلى الولايات المتحدة، وهو يدرك الصعوبة التي يواجهها والده وأشقاؤه للعمل وجَني المال.

"والدي فقير، ولكنه رجل هام في إيزابا"، شرح خوان، "هو ليس قيّماً نهارياً فحسب، بل هو وصيّ أيضاً على الحديقة في إيزابا التي تُجرى فيها الاحتفالات القديمة. ويُعتقد أن حديقة الاحتفالات هذه هي الأقدم في المكسيك، وهي في حالة تستدعي الإصلاح ولا تزال فيها العديد من التماثيل التي تحمل نقوشاً، ويقوم علماء آثار من مختلف أنحاء العالم بدراستها".

"العديدون يعتقدون أن حديقة الاحتفالات القديمة هذه، هي المكان الذي وُضعت فيه أول روزنامة للمايا".

كان ماكس قد سمع بروزنامة المايا، ولكنه لم يتمعّن فيها بالتفصيل.

"هل روزنامة المايا هي التي تُظهِر أن العالم ينتهي عام 2012؟"، سأل.

"إنه التحريف الشائع"، أقرّ خوان، "نعتقد أن العالم سيتبدل في نهاية الروزنامة، ولكن العالم بحدّ ذاته لن ينتهي".

"سيكون 21 كانون الأول/ديسمبر 2012 نهاية دورة دامت 26 ألف عام. لم يتوقع الأقدمون أنها ستكون نهاية العالم بالضرورة. تتمثل معتقداتنا القديمة أن البشر يتمتعون بإرادة حرة، وأن هناك فرصة للتغيير قد تؤدي إلى عالم أفضل".

"هذه هي التعاليم التي عرفتها من والدي".

فأُثير فضول ماكس. أخيراً، يعكس أحد الاثني عشر معرفة قد تكون مرتبطة بفكرة عامة تؤدي ربما إلى شرح الغاية من وجودهم.

الغاية من وجوده.

لقد بدأت الأمور تتضح. لقد وُلد ماكس في 12 كانون الأول/ديسمبر، أي في 12/12، ووُلد والده في 11 تشرين الثاني/نوفمبر، أي في 11/11.

هل الغاية من حياته مرتبطة بطريقة ما بما يُتوقّع حدوثه في العام 2012؟

وبالاستناد جزئياً إلى ما عرفه من الدكتور شو صن باك، بدأ بتفحص تاريخ ولادة والده، مُبقياً في ذهنه بعض التواريخ التي ذكرها خوان والمتعلقة بروزنامة المايا. لقد قال خوان إنه سمع عما يدعى "التلاقي المتناغم" حدث في 16 و17 آب/أغسطس من العام 1987، مستهلاً الأعوام الخمس والعشرين الأخيرة من روزنامة المايا. وللمرة الأولى بدأ ماكس يُدرك ما يجري.

ومدركاً أن خلفية خوان ستحمله على تصديق ما يعتبره الآخرون شديد الغرابة، كشف ماكس عن اختباره حالة النورانية وأن خوان أحد الأسماء الاثني عشر.

فرفع خوان زجاجة شراب الشعير وأومأ برأسه.

"لا يفاجئني هذا الأمر"، قال، "أخبرني والدي أن لعائلتي دوراً هاماً تلعبه لتحقيق التوقعات القديمة. كان يقول إنّ *العالم واسع وغريب ومليء بالألغاز. لا تشك البتة، وحتى في ظروفنا المتواضعة، في أن لديك دوراً هاماً تلعبه في هذا اللغز المدعوّ حياة*".

مرةً أخرى، تردد صدى عالم جاين دوف في رأس ماكس. لقد أُثير فضوله بهذه الصلة الأخيرة ورغب في لقاء والد خوان.

"أعلمني عندما تعود إلى إيزابا"، قال بجدّية، "أريد لقاء والدك ومعرفة المزيد عن نهايات الأزمنة التي تمّ توقعها".

"بالتأكيد، يا صديقي"، أجاب خوان، "أنا سعيد لأنك صدمتَ سيارتك. كان اللقاء الأكثر مدعاةً للتفاؤل".

عند الغروب

أيار/مايو 2012

وقف ماكس عند الموقع الثامن عشر لكرة الغولف في لاكوستا. كانت الشمس تغرُب عندما ضرب الكرة باتجاه الجانب الأيسر من الممر، ولاحظ في اللحظة الأخيرة وجود لاعب غولف في المنطقة الوعرة اليسرى على بُعد مئتين وثلاثين ياردًا.

لم تكن ضربة ماكس تحمل كرة الغولف إلى أبعد من مئتي يارد في العادة، لذلك لم يكن لاعب الغولف مهدَّداً. ولكنها كانت إحدى أفضل الضربات التي سدّدها ماكس في حياته، لقد قطعت مئتين وعشرين يارداً، وارتطمت بالأرض، وتدحرجت مسافة عشرين ياردًا، متخطيةً لاعب الغولف في المنطقة الوعرة.

"واو"، هتف شريكه في لعبة الغولف، كيم، "لقد مرّت بقربه".

"من الأفضل لنا الاعتذار"، قال ماكس.

وبينما كان ماكس يدنو بعربة الغولف وتعابير الاعتذار على وجهه، التفت إليه رجل أميركي من أصول أفريقية، طويل القامة، ويرتدي بنطالاً زمرّدي اللون، وابتسم.

"حتى إنها لم تقترب مني"، قال، "لا تقلق. شعاري هو *برودة الأعصاب*، وهو اسمي أيضاً. أدعى تشيل كامبيستر".

"حسناً، يا تشيل، شكراً لُلطفك الشديد"، قال ماكس بامتنان، "كان يُفترض بي، في الواقع، الانتباه قبل ضرب الكرة. وإذا لم تكن كثير الانشغال، فاسمح لي بتقديم شراب لك في مقرّ النادي بعد التسديد باتجاه هذه الحفرة".

"اتفقنا. أكمل الشوط".

* * *

في وقت لاحق، وبعد تعريف ماكس نفسه في المشرب، علم أن تشيل كامبيستر أصبح ذائع الصيت لأنه فاز مع زوجته بجائزة *المسابقة المذهلة*، وهو برنامج واقعي تلفازي شعبي. وبحصوله على جائزة بقيمة مليون دولار، قرر التقاعد باكراً والعودة إلى الكلّية لدراسة صناعة الأفلام. وأخبر تشيل ماكس أنه كان ممثلاً في شبابه ولعب دور كاسيوس كلاي في *أنا الأعظم*، وهو الفيلم الوثائقي الذي يتناول حياة محمد علي.

فأُربك ماكس ليس بسبب ما قاله تشيل، بل لأن ماكس أدرك أن تشيل كامبيستر هو الاسم العاشر من الأسماء الاثني عشر.

آياً يكن الأمر الذي يحدث، قال في نفسه، *فهو يحدث بشكل متسارع*.

لقد التقى ماكس في غضون يومين بالاسمين التاسع والعاشر، في حين أن الأمر تطلّبه *سنوات* للقاء الآخرين. لم يكن واثقاً بكيفية التصرف، ولكنه لم يجد الوقت ملائماً للكشف عن قصة الاثني عشر بسبب وجود لاعبي غولف آخرين بالقرب منهما.

لذلك، حافظ على رباطة جأشه.

وعلِم أيضاً أن تشيل ساهم في إعداد مسوّدة فيلم يتناول ما خبره مع زوجته لدى الفوز *بالمسابقة المذهلة*. وعندما كشف ماكس عن

امتلاكه شركة لصناعة الأفلام، وقال إنه على استعداد لمراجعة المشروع، شعر تشيل بالإثارة.

ولكن، كان لماكس حافز مُضمَر. فما إن قرأ المسوّدة حتى شعر بقدرته على إكمال الحديث مع تشيل سرّاً والكشف عن مزيد من الأسرار المحيطة بالاثني عشر.

* * *

أحب ماكس المسوّدة، وشعر أنه سيتمكن من بيعها نظراً إلى اكتساب راشيل وتشيل شعبية كبيرة من خلال البرنامج التلفازي. فهما أول أميركيين من أصول أفريقية يفوزان بالمسابقة، وكانا الأكبر سنّاً عندما شاركا فيها.

وإحدى الميزات التي ظهرت في المسوّدة اعتقادهما القوي بالفادي، فهما لم ينتقدا أبداً الأسلوب المعتمَد من قِبل الفرق الأخرى في أثناء المنافسة المُجهِدة، وأرادا التشديد في فيلمهما على أن الاعتقاد الراسخ هو سلاحهما السري.

وبعد البرنامج، قاما بجولات وأصبحا متحدّثين شعبيّين عن موضوع الاعتقاد الراسخ بالفادي.

كان ماكس يعلم أن كل ما يقومان به سيكون أساساً متيناً لفيلم، أو كتاب، أو منشورات عديدة أخرى قد يرغبان في إصدارها. لذلك أجرى لقاء مع تشيل وراشيل في مكتبه، وتأثر بنظرتهما الإيجابية والمتفائلة للحياة. كانا ينضحان حباً ولطفاً، وقد أخبراه المزيد عن قصتهما، وعلِم ماكس أنهما كانا على وشك الإفلاس عندما فازا *بالمسابقة المذهلة*. لقد تم اختلاس أموال شركة برمجيات أنشأها تشيل منذ سنوات، ولو لم يفوزا بالمسابقة التلفازية لفقدا منزلهما وممتلكاتهما.

شعر ماكس أنه لم يصادف زوجاً أكثر لُطفاً من هذا الزوج، فدعاهما إلى العشاء، وتناولوا الطعام في مطعم شارت هاوس، ونظروا إلى البحر عند المغيب. وكشف لهما ماكس عن قصة الأسماء الاثني عشر، وقال لتشيل إنه الاسم العاشر على لائحته.

"لا فكرة لديّ بعد عما تعنيه الأسماء، ولكن أمراً ما على وشك الاتضاح"، قال، "أعرف أن الأمر قد يبدو شديد الغرابة بالنسبة إليك، ولكن صدّقني، أنا لست مجنوناً. لا بد من وجود سبب لكل ذلك. ليتني أتمكن من معرفته".

فابتسم تشيل.

"كَوني مسيحياً، أنا على ثقة تامة أن الفادي هو الذي جمعنا. أرى عمله في ذلك. إذاً، لماذا قذفتَ كرة الغولف مسافةً طويلة لم يسبق لك أن سجّلتها في حياتك؛ عليّ مباشَرةً؟". وضحكا.

"ولكنني وُلدت يهودياً"، قال ماكس، "لست واثقاً من أنني أعتقد بالفادي". وتحدث عن كل الأشخاص السطحيين الذين التقى بهم في أثناء العمل على فيلم *البحث عن الفادي التاريخي*، وأومأ تشيل وراشيل برأسَيهما.

"الفادي هو مخلّص كل الشعوب". قالت راشيل.

"تماماً"، قال تشيل موافقاً. وأعاد توجيه الحديث ليتخذ منحى تحليلياً: "ولكن، دعونا نركز على ما خبرتَه، وكيف يمكن لهذه الأسماء أن تكون مرتبطة. ربما كان للفادي علاقة بذلك أو لا، ولكن لا وجود لأي مصادفات، إنه جزء من مخطط".

"إذاً، لو كانت هناك لائحة باثني عشر اسماً، كما تقول، ولا سبب لديّ لأشكّك في أقوالك، أريد أن أعرف سبب وجود اسمي على هذه اللائحة".

وواصل تشيل إخبار ماكس أنه إضافةً إلى فوزهما، صدر حكم قضائي لصالحه وراشيل يدين شريكهما السابق الذي اختلس الأموال من شركة البرمجيات.

"نتيجةً لذلك"، قال، "أملك الوقت والوسائل لمساعدتك على حل هذا اللغز. أخبرني فحسب كيف يمكنني أن أخدمك".

لقد شعر ماكس بالارتياح بسبب انفتاح تشيل على تفسير قد لا يكون على علاقة بالفادي. وكان ممتنّاً أيضاً بسبب عرض المساعدة.

"عليّ الذهاب إلى نيويورك لحضور معرض أفلام وثائقية وتدريبية في الأسبوع القادم"، قال، "ولكن عندما أعود، فلنركّز معاً على حل لغز الاثني عشر. ربما تمكنّا من تنظيم رحلة مع خوان إلى إيزابا، المكسيك".

"لا أعرف السبب، ولكنني أعتقد أن إيزابا قد تكون أحد مفاتيح هذا اللغز".

ميلودي الفييتنامية

أيار/مايو 2012

كانت الرحلة الجوية إلى نيويورك سريعة وغير مُجهدة، وفكر ماكس في الساعات الخمس المشحونة بالأعمال. لم يكن يعتقد أن العمل الذي سيُنجزه سيكون عادياً.

لقد التقى بعشرة أشخاص مُدرجة أسماؤهم على لائحة الاثني عشر. وبدا له أن كل اسم يمثّل منطقة جغرافية مختلفة، وديناً مختلفاً.

كان تشيل وراشيل قد أشارا إلى وجود اثني عشر مبعوثاً، واقترحا أنه السبب ربما وراء الإيحاء لماكس باثني عشر اسماً. إنهم ربما المبعوثون الاثنا عشر *الجدد* الذين ينتظرون عودة الفادي.

وشعر ماكس أن هذا التخمين ضرب من الخيال، ولكنه يعلم أن عليه متابعة هذا اللغز بكل طاقته وقدرته على التركيز.

* * *

كان ماكس يلازم نادي يال على الدوام عندما يزور نيويورك بسبب قربه الملائم من غراند سنترال ستايشن وأسعاره المنخفضة نسبياً مقارنةً بغراند هيات والفنادق الأخرى الموجودة وسط المدينة. كانت شركة ماكس تحتفل بسنويّتها الثلاثين، فاستأجر مكتبة يال في الطابق الرابع حيث قدّم الشراب الخفيف وأنواع التحلية الفرنسية احتفالاً بالإنجاز.

قليلة هي شركات الأفلام المستقلة التي استمرت مدةً مماثلة من السنوات، ومن الجيد الاحتفال بالمناسبة. كان مدير الحقوق الخارجية في ماكسيموم بروداكشنز توّاقاً بصفة خاصة إلى دعوة عملاء أجانب على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى الشبكة الدولية.

وطلب عميلهم الفييتنامي إحضار ضيف معه، فافترض ماكس أن الضيف سيكون صديقة أو زوجة. لذلك، وافق على الطلب.

لقد لاقى الاحتفال نجاحاً كبيراً مع وجود أكثر من مئتي ضيف. وقُبيل نهاية الحدث، قام رجل آسيوي قصير القامة برفقة فتاة آسيوية ممشوقة القدّ وطويلة القامة بالتعريف عن نفسه:

"أدعى دو فان من فييتنام، وهذه ابنة شقيقتي، ميلودي جونز، تقيم ميلودي هنا في نيويورك وتدرس لتكون راقصة باليه. أنا ممتنّ جداً لدعوتنا إلى هذا الحدث الرائع".

ولكن ماكس وجد أنه من المستحيل التركيز على ما كان يقوله الرجل لأن شعوراً مألوفاً تملّك أحاسيسه.

فميلودي هو الاسم الحادي عشر على لائحة الاثني عشر.

لقد التقى بحاملي ثلاثة من الأسماء الأربعة النهائية في أقل من أسبوع. ولم يشأ إظهار حماسته بسبب استمرار الاحتفالات في الحدث، لذلك أجاب بهدوء.

"لا، أنا من هو ممتنّ لانضمامكما إلينا". قال ذلك مصافحاً دو فان، "أنا سعيد جداً بعملك الرائع في ما يتعلق بحقوقنا في فييتنام".

والتفت إلى ميلودي، وأضاف:

"أنت جميلة جداً. شكراً لمرافقتك خالَك ولحضورك". وأراد قول المزيد ولكنه امتنع عن ذلك.

كانت ميلودي ترتدي فستاناً برتقالياً وتتنقل برشاقة الراقصة. كانت واثقة بنفسها ومعتادة على المناسبات الاجتماعية.

لم يكن واثقاً من كيفية إخبار ميلودي أنها أحد الاثني عشر. ولكنه كان يعلم أنه يتعيّن عليه إيجاد طريقة لذلك.

"هل ترغبان في الانضمام إليّ إلى مائدة العشاء مساء غد؟"، سأل.

"شكراً لك، ولكن الأمر غير ضروري"، أجاب دو فان.

"من دواعي سروري أن أستضيفكما"، قال ماكس مُصرّاً، "تقوم بعمل رائع لصالح شركتي، لن أقبل رفضك دعوتي".

فوافق دو فان، ولكن ميلودي شرحت قائلةً إنها تخطط للقاء صديقها ولن تتمكن من الحضور.

"هُراء"، قال ماكس بسرعة، "يسعدني انضمامه إلينا أيضاً".

فوافقت، واتفقوا على اللقاء.

* * *

في اليوم التالي، وجد ماكس نفسه قلقاً وغير واثق من حضور ميلودي كما وعدت. فبعد سنوات من اللقاء المتقطع بحاملي الأسماء الاثني عشر، يخطو هذا اللغز خطوات كبيرة وسريعة نحو الأمام.

فميلودي هي جزء محوري للعثور على إجابة بَحَث عنها طويلاً، منذ سنوات، عندما أُشير إليه بالأسماء، لم يكن في استطاعته السماح لأي شيء من ذلك النوع بالحدوث.

عندما وصل إلى المطعم، شعر بالإثارة لدى رؤية ميلودي مع خالها وصديقها، ماثيو جوردان. فماثيو حائز على جائزة في ركوب الأمواج كما يبدو، وكان قد تعاطى الكثير من المخدرات المسببة للهذيان.

وفي أثناء العشاء، تبادل ماكس أطراف الحديث مع دو فان ووجد أنه مهذّب وذكي. كان يبذل جهداً للتركيز على الموضوعات المطروحة.

بعد ذلك، التفت ماكس إلى ميلودي وسألها عن حياتها. فأخبرته أن جدتها ووالدتها – التي كانت في السابعة عشرة من عمرها آنذاك – كانتا لاجئتين فرّتا من فيتنام عام 1971 قُرابة نهاية الحرب الفيتنامية. لقد عوملتا بوحشية من قِبل القراصنة، واغتُصبتا.

وبعد عناء كبير، وصلتا إلى نيويورك وتمكنتا من إعادة بناء حياتهما، علماً أن الأمر تطلب والدة ميلودي عدة سنوات للتعاطي مع الصدمة النفسية التي تعرضت لها. لقد مارست عدة وظائف وعثرت أخيراً على مهنتها المتمثلة بتصميم المسارح.

والتقت بمصمّم رقصات يدعى أنتون جونز، وبعد عام من المواعدة، تزوجا، وميلودي هي الابنة الصغرى والوحيدة التي سعت إلى مواصلة حياة مرتبطة بالرقص والمسرح.

"تشعر جدتي أن عدم قتلهما في البحر هو بمثابة عجيبة"، قالت ميلودي، "لقد أخبرتني عدة مرات بوجود قصة عن قدَر عائلتنا، وتقول إنه السبب الكامن وراء الإبقاء على حياتهما.

"وكلما أُسيءُ التصرف، تقول لي إنني وُلدت لمصير محدد، ويجب عليّ أن أُحسن التصرف وإلا ذهبت عجيبة نجاتهما عبثاً". وابتسمت لدى تذكّر ذلك.

بقي دو فان صامتاً واستمع إلى قصتها. كان يومئ برأسه ببساطة، موافقاً، لكنْ، شاعراً بالأسى.

فاستأذن لإجراء اتصال هاتفي، وقرر ماكس الذي أُخذ بقصة ميلودي والتوقع المقدر للعائلة الكشف عن قصة الاثني عشر.

وبعد سرد تفاصيل اختباره حالة النورانية، عدّد الأسماء الاثني عشر منتهياً بالدب الراكض. لقد توقع ارتياب ميلودي، ولكنه شعر بالارتياح عندما أصغت إليه بانتباه وفضول شديدين.

كان ماثيو جالساً إلى جانبها طوال الوقت، ينظر إلى ميلودي وماكس ومُصغياً بانتباه.

"دوّن الأسماء الاثني عشر، رجاءً"، طلبت من ماكس، "دعني أتحقق مما إذا كان في استطاعتي العثور على رابط بينها".

وبالرغم من تفاجئه بطلبها، دوّن ماكس الأسماء على فوطة المائدة، وقامت ميلودي بتأمّلها لمدة طويلة من الزمن. أخيراً، وبعد عدة دقائق، نظرت إليه قائلةً:

"أخشى أنني لا أعرف أيّاً من هذه الأسماء. لا أستطيع العثور على أي رابط. لذا، لا يمكنني مساعدتك على حلّ أي شيء".

بعد ذلك، طلب ماثيو إلقاء نظرة على اللائحة.

"هذا الاسم الأخير، الدب الراكض"، قال بعد لحظات، "ألم تلتقِ به بعد؟".

"لا"، أقرّ ماكس، "إنه الاسم الأخير على اللائحة. لماذا تسأل؟ هل تعرف شخصاً يحمل هذا الاسم؟".

"لا"، أجاب ماثيو مُحبطاً ماكس، "ولكن والدي، توبي، من السكان الأميركيين الأصليين جزئياً. لا بد من أنه اسم أميركي من السكان الأصليين. إذا كان هناك من يعرف شخصاً يدعى الدب الراكض فهو والدي. إنه يقيم في سان كليمنت وفي مكان غير بعيد عن مكان إقامتك. أعرني هاتفك الخلوي للحظات وسأتحقق من الأمر".

فسلّم ماكس الهاتف إلى ماثيو، وفي غضون دقائق كان توبي على الخط.

لقد أكد أنه يعرف مرشداً سياحياً في سيدونا، أريزونا، يُدعى الدب الراكض.

لم يستطع ماكس تصديق ما سمع. فتحدّث إلى توبي واتفقا على الالتقاء في سيدونا في الأسبوع التالي حيث سيحاولان العثور على الدب الراكض.

كانت يد ماكس ترتجف من شدة التأثر عندما أنهى المكالمة الهاتفية. لقد أدرك أنه قد يلتقي أخيراً بالاسم الأخير من بين الأسماء الاثني عشر في غضون أيام.

ولكن، ماذا بعد ذلك؟

الفصل الخامس والعشرون

الصخور الحمراء

حزيران/يونيو 2012

كان توبي جوردان عَلَماً من أعلام ركوب الأمواج.

لقد فاز في مباريات عدة في صِغره، ولكنه عُرف بصوره الفوتوغرافية الملتقَطة لمشاهد ركوب الأمواج. وأدى به هذا الأمر إلى تنفيذ مشاهد مماثلة لصالح أفلام سينمائية، وأصبح في ما بعد فنّاناً في توليف مشاهد تُستخدم فيها ألواح ركوب أمواج حقيقية، وطلاء، وموادّ أخرى.

بالإضافة إلى ذلك، أسس توبي شركة لتصميم ألواح ركوب الأمواج وبيع مستلزماتها. وبسبب طبعه الفنّي، كان صديقاً للعديد من الفنانين الرئيسين المميَّزين بأعمالهم.

ابنا توبي بطلان أيضاً في ركوب الأمواج، ويُعرف ابنه الأكبر، ماثيو، بقفزاته البهلوانية وبأعمال جريئة مماثلة لم يتصوّر راكبو أمواج آخرون أنه في الإمكان تأديتها.

كان توبي قد عانى في صِغره من مشاكل في الإدمان على الشراب، وهو يلقي الملامة باستمرار على إرثه الأميركي المرتبط بالسكان الأصليين الذين لم يكونوا يملكون أي مقاومة إزاء الشراب. لذلك، قرر في السنوات الأولى من بلوغه سنّ الرشد عدم تناول

الشراب مجدداً. لقد ساهم هذا الأمر، إضافةً إلى ممارسة ركوب الأمواج، في توفير أسلوب حياة سليم له، وأضاف إلى إنجازاته نزهات طويلة سَيراً على القدمين، وقد أمّن له ذلك عالماً جديداً من الصور الفوتوغرافية.

فإحدى مناطقه المفضلة للنزهات الطويلة والتقاط الصور الفوتوغرافية هي سيدونا، أريزونا، وهي مدينة صغيرة في الصحراء الجنوبية الغربية العالية الشهيرة بتشكيلاتها الصخرية الحمراء. كان يقوم برحلة إليها مرة واحدة في السنة على الأقل، لذلك لم يتطلب ماكس كثيراً من الوقت لتملّقه وحمله على مرافقته في رحلة سريعة.

لقد قاما بالرحلة في يوم واحد، وشاطره ماكس قصة الاثني عشر في أثناء ذهابهما وعودهما. وقام توبي بدوره بتزويد ماكس بكل ما يعرفه عن الدب الراكض، وهو أفضل مرشد سياحي في سيدونا كما قال. فالدب الراكض يعرف الكهوف السرية والمواقع الهندية المُبجَّلة كلّها.

"أُطلق عليه اسم جول شيتس عند ولادته"، شرح توبي، "لقد عرفته منذ أكثر من عشرين عاماً عندما بدأت بالتقاط صور فوتوغرافية لمفاتن سيدونا. وعندما أخبرته عن إرثي، أطلعني على اسمه الهندي. فالعديد من الناس لا يعرفونه باسم الدب الراكض، لذلك تفاجأت حقاً عندما اتصل بي ماثيو. لست واثقاً من تمكنك من العثور عليه بطريقة أخرى، ولا حتى من خلال موقع البحث غوغل".

"بالطبع، عندما بدأ كل ذلك، لم يكن موقع البحث غوغل موجوداً"، أشار ماكس، "في الواقع، لم يكن الإنترنت موجوداً بعد".

"كانت رحلة مميَّزة"، أضاف، "علماً أن حاملي الأسماء هم الذين يعثرون عليّ على الدوام. ويعتقد بعض الاثني عشر أننا مرتبطون جميعاً

بعمق، وأميل إلى موافقتهم الرأي. آمل فقط في أن يزوّدنا الدب الراكض ببعض الإلماعات، سيكون من الرهيب أن نكتشف أن كل ما حدث لا يعدو كونه صدفة كبيرة من دون أن يكون وراءه أي هدف أو معنى".

فأومأ توبي برأسه موافقاً.

"إذا كان هناك من يملك جواباً للغزك فهو الدب الراكض"، قال بثقة، "إنه ضالع إلى حدٍّ ما، إضافةً إلى كونه مرشداً سياحياً، وهو عليم بمعتقدات وتقاليد الهوبي القديمة".

وتوقف قليلاً، وأضاف:

"يستخدم الدب الراكض مواد للهلوسة في طقوسه، وهو خبير بشعائر التعرّق".

* * *

وصل توبي وماكس في وقت متأخر، وتحققا من وجود غرف شاغرة في موتيل بست وسترن. فبالرغم من حماسته الشديدة، غرق ماكس بسرعة في نوم عميق، وعندما استيقظ، تفاجأ بنومه نوماً هانئاً.

وانضم إليهما الدب الراكض إلى مائدة الإفطار في مطعم مجاور. كان في العقد الثامن من عمره، طويل القامة، وكان شعره طويلاً مضفوراً وفيه خصلات رمادية اللون، ويرتدي سترة حمراء ويضع مجوهرات فيروزية اللون جميلة.

كان يتمتع بحضور رائع.

واكتشف ماكس أنه يتحدر مباشَرةً من أسرة لاكوتا المقتدرة وضالعي هوبي الهنود. وكونه مرشداً سياحياً للمواقع المبجّلة في سيدونا، فإنه يكنّ حباً حقيقياً للأرض ولإرث الشعوب الأصلية.

من دون تردد، أطلع ماكس الدب الراكض على تفاصيل الأسماء الاثني عشر كافة. فأصغى الدب الراكض بحِرص، وكان يبتسم ببساطة. وعندما فرغ ماكس من روايته، تكلم بصوت عميق:

"كنا نتوقع قدومك".

"كـيف يُحتمل أن يحدث ذلك؟"، سأل ماكس غير مصدِّق، "لقد مضى سبعة وأربعون عاماً على رؤيتي اسمك للمرة الأولى، ولم أكن أعرف طوال الوقت أين يتعيّن عليّ الذهاب ولماذا. كيف عرفتَ ذلك؟".

"لم تكـن أنت من ننتظر بصفة خاصة"، شرح الدب الراكض، "ولكن السكان الأصليين الأميركيين عرفوا بوجود الأسماء الاثني عشر منذ قرون. التحوّل الكبير على وشك الحدوث. لقد تناقلت الأجيال أن هـذه الأزمـنة ستشهد ظهور الناس الحقيقيين مجدداً - أولئك الذين يتمـتّعون بشخـصية قوية ومتكاملة - وسيقودنا مرشدونا الروحيون القـدماء إلى عالم من السلام والتناغم". وبالرغم من ثِقل كلماته، كان الدب الراكض يتكلم بهدوء.

وأجاب ماكس بهدوء أكبر:

"ولكن ماذا عليّ أن أفعل بهذه الأسطورة؟"، سأل ذلك وقد بدا الإربـاك في صـوته، "لا صلة لي البتة بالسكان الأميركيين الأصليين. جدّاي لجهة والدي هنغاريان، وجدّاي لجهة والدتي روسيان".

"لا أعـرف مـا دورك بالتحديد، ولكنك ساهمتَ في جمع شمل الاثني عشر. ويمثّل كل اسم إحدى القبائل الحديثة ملونة البشرة الممثلة على هذه الأرض لنهاية الأزمنة".

ولدى رؤية القلق على وجه ماكس، أضاف:

"أدركـت شـعوبنا القديمـة أنه سيكون من الضروري لنا نحن الأميركـيين الأصـليين أن نعود شعوباً من مختلف الألوان في الأزمنة

الأخيرة. ولن يكون هناك عالم يعادي فيه الحمرُ البيضَ، والسودُ الصفرَ. سـيكون هناك عالم واحد في الأزمنة الجديدة، ولن يظهر على الأرض سـوى أولئك المتمتعين بالأخلاق وبالروح الحقيقية لشفاء الجروح التي تسبب بها جشع وعنف العديدين منذ زمن بعيد. كان يعلم أشقائي أن خيبات أملنا لن تدوم. لذلك، ابتكرنا رقصات الأشباح وشعائر أخرى، كنا نعرف على الدوام أن الشعب الحقيقي لن يزول، بل سيعود ليمثل قبائل البشر الاثنتي عشرة بألوانها الاثني عشر".

وفي أثناء استماعه إلى كلماته، وجد ماكس نفسه يصدّق ما يقوله الدب الراكض... بالرغم من وجود العديد من الأسئلة التي لا تزال من دون إجابات.

"استناداً إلى خبراتي، أعتقد أنه لا بد من أن تكون على حق"، قال محدّقاً خارج النافذة إلى المنظر الطبيعي الصحراوي الشاحب، "أظن أن أسطورتكم القديمة صحيحة بطريقة ما في الواقع".

والتفت للنظر إلى مستضيفه مجدداً.

"حتى ولو كان الأمر كذلك، ماذا يعني كل ذلك؟".

"الإجابـة ليست لديّ بل لدى صاحب كل الإجابات"، أجاب الـدب الـراكض، "يجب علينا القيام ببعض شعائر التعرّق عند شروق شمس صباح غد".

ونهض عن الطاولة، وأشار إلى الجبال إلى يساره.

"هل ترى تلك الصخور الحمراء وراء الطريق هناك؟".

فأومأ ماكس برأسه.

"هـناك درب بطول ثلاثة أميال بين الصدوع الأكثر عمقاً داخل الصخور الحمراء. قلّة هم الأشخاص الذين يعرفون هذا الدرب، وهناك كهف قديم إلى جانبه حيث سأقوم بشعائر التعرّق. لقد رافقني توبـي

مـــن قَـــبل إلى هذا الموقع المبجَّل. سيرشدك إليه في الصباح وأكون قد أعـــددت كـــل شيء. سأذهب هذا المساء وأقدّم القرابين إلى أسلافي، وأُعدّ النار والصخور".

* * *

لم تكـــن الـــشمس قد أشرقت بعد عندما بلغ توبـــي وماكس الـــدرب والكهف. وعندما دخلا البَراح، وجدا الدب الراكض هناك مرتدياً زِيّ الاحتفال الذي يشمل ريشة عقاب مبجَّلة، ويتلو تهويدات هوبـــي قديمة، وهو في حالة تأملية لم يقاطعها وصولهما.

كانت النار قد جعلت الكهف حارّاً إلى حدٍّ كبير، وبدأ توبـــي ومـــاكس بالتعـــرّق خـــارج الكهف. فجلسا بسكون وراقبا الدب الراكض. وبعد عشر دقائق من التهويدات، توقف والتفت إليهما قائلاً:

"كانـــت ليلة جيدة. الأسياد مبتهجون. إنهم توّاقون إلى توجيهنا. تعالا، يجب عليكما تدخين بعض هذا التبغ، ثمّ ندخل بعد ذلك الكهف ونـــبدأ بأدعيتنا". فسلّمهما غليونين، وخامر ماكس شعور بوجود نوع مـــن أنواع المواد الباعثة على الهذيان ممزوجة بالتبغ، ولكنه لم يستوضح الأمر.

وشـــرع الـــدب الراكض بسلسلة من التهويدات باللغتين الهوبية والإنكليـــزية. واستدار نحو الزوايا الأربع للغرفة، طالباً البرَكة. وطلب من توبـــي وماكس تكرار الجمل الإنكليزية، فامتثلا له.

كانـــت الحـــرارة مرتفعة جداً، وشعر ماكس بالرغبة في الخروج بـــسبب تعرّقه لأنه لم يتعرّق من قَبل على هذا النحو. ولكن رغبته في كـــشف الـــنقاب عن مصيره تغلّبت على كل شيء، وبقي بلا حرك، مـــسمَّراً في مكانه، مُصغياً إلى كل كلمة يقولها الدب الراكض ومراقباً كل حركة يقوم بها.

أخيراً، انتهت التهويدات والأدعية، وساد الصمت. لم يحدث أي شـــيء ذي صلة، وتساءل ماكس عما إذا كانت شعائر الدب الراكض فعالة.

وارتـــسمت علـــى وجـــه الضالع نظرة ذهول كما لو أن روحاً استـحوذت عليه. فلم يتحرك، حتى إنه لم يكن يتنفس كما يبدو. ولم يتجرأ ماكس على التحرك.

فأومـــأ توبـــي له برأسه لطمأنته أن لا حاجة إلى القلق، لأنه قام بهذه الشعائر مع الدب الراكض.

وبعـــد مـــا بدا أنها عشرون دقيقة أو أكثر من السكون والجمود الـــتام، بدأ الدب الراكض بالتكلم بصوت عالٍ وهادئ. كانت كلماته باللغة الهوبية القديمة ولم يستطع ماكس فهمها.

ووقف بعد ذلك وخرج من الكهف، وتبعه توبـــي وماكس.

في الخارج، كانت الشمس ساطعة وتعكس الصخور الضوء على صـــورة نـــسيج بـــرّاق باللـــونين الأحمر والأصفر، واللونين البرتقالي والأخضر، كما كانت هناك زجاجات من الماء كان قد وضعها الدب الراكض، فشربوا كلهم، مقدّرين هواء الصباح البارد حق قدره.

وشرب الدب الراكض كل الماء الموجود في الزجاجة، واقترب من ماكس ونظر إلى عينيه مباشَرةً في أثناء التحدث إليه.

"يـــبدأ بحثك اليوم. أطلعني صاحب كل الإجابات على ما يتعيّن علـــيك القـــيام به، وعلى ما تطوّعتَ للقيام به منذ عدة قرون عندما وافقتَ على أخذ دورك على الأرض".

فـــشعر مـــاكس بإثارة كبيرة بالرغم من أنه لم يكن يفهم شيئاً. ولكـــنه كان واثقاً على الأقل من أنه سيعرف الغاية من اختباره حالة النورانية ويفهم صلته بالاثني عشر.

"وما هذا البحث؟"، سأل محاولاً التزام الهدوء، "ما الذي وافقتُ على القيام به؟".

"أنت الشخص الذي يقضي واجبه بجمع الاثني عشر"، كشف له الدب الراكض، "يجب جمع شملهم خارج إيزابا، المكسيك، في 11 آب/أغسطس عند شروق الشمس في عام التوقع هذا.

"إذاً، أمامك شهران فقط لجمع الاثني عشر"، قال محذّراً، "لقد كشف لي صاحب كل الإجابات أن مهمة الاثني عشر لن تتم في ذلك اليوم المبجّل إلا بحضورهم كلهم".

وبدأ ماكس يشعر بارتياب شديد.

"ولكنني لم أتحدث إلى بعض الاثني عشر منذ أكثر من عشرين عاماً"، قال، "ماذا لو لم يأتوا جميعهم؟".

فهزّ الدب الراكض رأسه.

"ما طلبه مني صاحب كل الإجابات هو كل ما أعرف. لا أعرف كيف يتعيّن عليك تحقيق هذا الهدف. فكوني أحد الاثني عشر، سأكون في جبل إيزابا، وسأبذل قُصارى جهدي لمساعدتك على جمع شملنا، ولكن صاحب كل الإجابات قال لي إنها مهمتك، ومهمتك وحدك".

فازدرد ماكس، وانتابته الشكوك.

ماذا لو كان كل ذلك وهماً؟ لقد أخبر الدب الراكض عن خوان وصلة خوان بإيزابا من خلال والده. ماذا لو بنى الدب الراكض قصته على الأمر الذي يرغب ماكس في سماعه؟

بالرغم من كل شيء، لم تكن هناك تفاصيل ملموسة تشرح سبب كون الاثنا عشر هم الاثني عشر أنفسهم، أو سبب كون إيزابا في المكان الذي يتعيّن عليهم الذهاب إليه. كان بحاجة إلى مزيد من المعلومات.

"كيف يمكنك التأكد من أنه يجب علينا التجمع في إيزابا، وفي ذلك الوقت بالتحديد، وفي ذلك اليوم دون سواه؟".

"هذا ما كشفه لي صاحب كل الإجابات".

"وهل تعرف ما الذي سنحققه؟"، سأل ماكس حاثّاً الدب الراكض على الكشف عن مزيد من المعلومات.

فهز الدب الراكض رأسه بصبر قائلاً:

"لم يكشف لي صاحب كل الإجابات المزيد". ولكن ماكس وجد أن الأمر لا يُطاق لدرجة عدم تمكنه من تصديقه.

"ولكن كونك ضالعاً، ألا تملك أفكاراً عن سبب اختيار هذا المكان والزمان"، سأل ماكس بمثابرة، "وما الذي قد يحدث؟".

"لديّ أفكاري الخاصة كفرد، ولكنها ليست هامة"، قال الدب الراكض بهدوء كما لو أنه يخاطب طفلاً، "ما كشف عنه صاحب كل الإجابات فقط هو الجدير بالمناقشة". وهكذا، استدار لسلوك الدرب عبر الصخور الحمراء، وصولاً إلى الطريق.

وتبع ماكس توبي، وواصل التذمّر بصوت يائس، ثم قال:

"ولكن يجب أن تكون لديك إلماعة ما. رجاءً، أخبرني *أمراً* منطقياً، أمراً ممكناً على الأقل يساعد على تفسير طلب صاحب كل الإجابات".

فقال الدب الراكض في أثناء سيرهم:

"11 آب/أغسطس هو يوم مبجّل وفقاً لروزنامة المايا. أنا على ثقة من أن والد خوان، القيّم النهاري، سيكون في إمكانه تزويدك بمزيد من التفاصيل، ولكن استناداً إلى ما أعرف، يمكنني أن أقول لك فقط إنه سيكون اجتماعاً مبجّلاً، وإذا أخفقتَ في جمع الاثني عشر في الوقت المحدد، سيكون هناك مزيد من المعاناة".

ولـزم الدب الراكض الصمت، وواصل السير، وساعدته ساقاه الطويلتان على السير بسرعة، تاركاً ماكس وتوبـي يفكران ملياً في ما سمعاه.

وتُـرك مـاكس يتساءل عن كيفية وسبب اختياره، علماً أنه لم يعتقد بما كشفه صاحب كل الإجابات.

حتى الأموات ينتظرون

حزيران/يونيو 2012

إن أحـد أول الاتـصالات الـتي أجراها ماكس بعد عودته إلى كاليفورنيا كان مع إيرول في اسطنبول، واستخدم جهاز الكمبيوتر كي يتمكنا من عقد اجتماع بُعدي ويشاهدا بعضهما بعضاً.

"الأمر يحدث، يا إيرول". قال.

حتى ولو قال ذلك، فقد وجد أنه يصعب عليه تصديق ما يقول. "لقـد وجدت بقية الاثني عشر. إن الدب الراكض، وهو الاسم الذي أحـتفظ بـه طوال تلك السنوات. هو ضالع من أسرة لاكوتا، وأنت مُحِـق وفقاً لما بلغني منه. هو يدّعي أن قدري يقضي بجمع شمل الاثني عشر واصطحابهم إلى إيزابا، موطن روزنامة المايا القديمة".

"إنـه أمـر مـذهل يا صديقي"، قال إيرول، "لقد علمتُ منذ سنوات أن قدرَينا مترابطان، وهذا الأمر يثبت ذلك. متى سنسافر إلى إيزابا؟".

"يجب أن تكونوا كلكم هناك في 11 آب/أغسطس"، قال ماكس، "هل ستتمكن من الحضور في ذلك التاريخ؟".

"لـن تتمكن من إيقافي"، أجاب إيرول، "وإذا كان هناك من لا يملـك المـال للـسفر، سأغطي نفقاته. لا يُفترض بالمال أن يُعيق هذا

الاجتماع. لقد اعتقدت على الدوام أن لقصتك غاية أعمق، وأن قدري مرتبط بشيء ما أكبر من حبي لاسطنبول ولوطني تركيا".

فسُرّ ماكس وأخبر إيرول أنه قد يكون بحاجة إلى السفر أيضاً إلى بلدان مختلفة للقاء بعض الاثني عشر.

"لا مشكلة في ذلك"، أصرّ إيرول، "أعلمني فقط بالمساعدة المالية التي قد تكون بحاجة إليها للقيام برحلاتك".

"من الجيد أن أعلم أنني أتلقى دعمك عند الحاجة"، أجاب ماكس بارتياح كبير.

وجرت الاتصالات الثلاثة التالية بسهولة. كان الطبيب آلن تايلر وتشيل كامبيستر مسرورين بالالتزام بالموعد، ووجد خوان في الأمر فرصة مناسبة لرؤية والده، لذلك لم تُطرح أي مشكلة.

كانت ميلودي جونز أول من يحتاج إلى مساعدة مالية، ولكن ما إن توافر لها المبلغ المطلوب حتى وافقت على الانضمام إلى الاثني عشر في إيزابا في 11 آب/أغسطس.

واتصل بيوكو عبر الإنترنت، وأعربت عن سرورها بذلك. فآب هو شهر إجازتها، ولم تكن قد حجزت بعد في أي مكان لتمضية عطلتها السنوية.

وكان على شو صن باك تغيير تاريخ رحلة عمل، وتبقى لماكس الاتصال بيوسكي وماريا والريبونش وبي. أن. ماهارز.

لم يكن ماكس قد تحدث إلى الريبونش طوال عشر سنوات تقريباً، وإلى الآخرين طوال أكثر من عشرين سنة. ومع ذلك، فقد تمكن من اقتفاء أثر البوذي، الذي كان يقيم في تورنتو، كندا، في السنوات الثماني عشرة الأخيرة. لقد بات يتكلم الإنكليزية قليلاً ولكن بطريقة ملائمة، وتزوج بابنة أحد طلابه، ورُزقا بابنَين.

وعندما شرح ماكس الوضع، أعرب الريبونش عن سروره بحضور اللقاء بالغ الأهمية.

كان الاتصال بماريا صعباً على نحو مفاجئ. فبالرغم من مرور السنوات، لم يتمكن أبداً من نسيان الأسف الذي شعر به عندما خرجت من المتنزه العام. ولم ينسَ كذلك مدى الحب الذي كنّه أحدهما للآخر.

فأخبر نفسه على الاتصال، واكتشف أنها لا تزال تقيم في تروجيلو، البيرو. وبدت مسرورة بما أخبرها به، وأمضيا الجزء الأول من الاتصال بإخبار أحدهما الآخر بما آلت إليه حال كل منهما. كانت ماريا والدة لأربعة أبناء، وجدة لسبعة أحفاد. لم تأسف أبداً على الاقتران بزوجها المهندس، كما قالت، الذي توفّي قبل عام.

وأعرب ماكس عن أسفه وكانت تعتريه مشاعر متمازجة، ولكنها أعربت له عن سعادتها بعيش حياة هادئة في تروجيلو. وقبلت عرضه، إنها رحلتها الرئيسة الأولى بعد عام الحداد التقليدي. كانت مواردها المالية متواضعة، فشعرت بالامتنان بسبب عرض ماكس تغطية نفقات سفرها إلى إيزابا.

فقالت إنها ستشرع على الفور بوضع خطط.

وأنهيا المكالمة الهاتفية، وأدرك ماكس أنه مُنهَك. كان لا يزال يشعر ببعض ما شعر به عندما التقى بماريا، وبحاجة إلى استراحة قصيرة قبل استئناف اتصالاته.

* * *

واجه ماكس صعوبة في اقتفاء آثار يوسكي بسبب تقاعده من العمل في ميدان الأفلام.

ومع ذلك، فقد استعان بالمعلومات المتوافرة لديه حول خدمة يوسكي العسكرية للعثور عليه. كان يقيم في القدس القديمة ويعمل

كاستراتيجي أمني لصالح الوجهاء رفيعي المقام الذين يزورون المدينة. وعندما تمكن ماكس أخيراً من التحدث إليه عبر الهاتف، بدا الأمر كما لو أن السنوات تلاشت.

"يسعدني كثيراً سماع صوتك، يا بنيّ"، صاح يوسكي، "كيف حالك؟".

"أنا سعيد جداً لعثوري عليك"، أجاب ماكس، "أنا بحاجة إلى مساعدتك".

"اطلب ما تشاء"، قال يوسكي بحماسة، وتساءل ماكس عما إذا كان سيُجنّ جنونه إذا طُلب منه البقاء في مكان واحد. "لا أشعر بكثير من الإثارة في هذه الأيام... إذاً، ماذا هناك؟ فريق تصوير في طريقه إلى القدس؟ الحصول على أُذونات؟ أعلمني بما تريد فحسب"، قال يوسكي، "وما تحتاج إليه تتم تلبيته".

"لست بحاجة إلى شيء من ذلك القبيل"، شرح ماكس، "أنا بحاجة إليك للقدوم ولقائي مع أحد عشر شخصاً آخر في إيزابا، المكسيك، في 11 آب/أغسطس. سنغطّي كل نفقاتك. سأشرح لك التفاصيل عندما أراك، ولكن انضمامك إلينا هو أمر أساسي".

وسادت فترة طويلة من الصمت، وتخيّل ماكس وجه الرجل في أثناء التفكير مليّاً في الطلب الغريب وغير المتوقع بعد سنوات عدة.

وسمع بعد ذلك زفيراً مطوَّلاً، وتكلم يوسكي مجدداً:

"من أكون لأرفض رحلة مجانية إلى أميركا في هذه المرحلة من الحياة"، قال مبتهجاً، "يمكنك الاعتماد عليّ. أرسل إليّ تذكرة السفر والتفاصيل، وسأكون في خدمتك".

وهكذا، تبقّى لماكس الاتصال ببي. أن. ماهارز.

* * *

طلب ماكس رقم هاتف المتحف الوطني في دلهي.

"هل يمكنك أن تصليني ببي. أن. ماهارز، رجاءً؟"، سأل عاملة الهاتف في المتحف.

"لم يعد بي. أن. ماهارز يعمل في المتحف"، قالت، "ولكن دعني أصلك بالقيّم الحالي على القرن الخامس عشر الذي قد يكون باستطاعته أن يُعلمك بمكان وجوده".

فأُجفل ماكس بتقاعد بي. أن. المبكّر نسبياً.

وبعد خمس دقائق، سمع صوتاً ذكورياً عبر الهاتف:

"آسف لإعلامك أن بي. أن. توفّي قبل ثمانية عشر عاماً. كان صديقاً مخلصاً، كنت مساعداً له طوال عشرين عاماً. لا أزال أفتقده. هل أنت صديق للعائلة من الولايات المتحدة؟".

في بادئ الأمر، لزم ماكس الصمت، ولكنه طلب إمهاله لحظات قليلة لاستيعاب ما يجري.

كيف يمكن لذلك أن يحدث؟ تساءل بصمت. *وماذا يحدث عندما لا يكون هناك اثنا عشر شخصاً؟*

وعندما تمكن من التحدث مجدداً، شرح له قائلاً إنه التقى بي. أن. عام 1972 عندما صوّر فيلماً في المتحف.

"لقد ساعدنا على الحصول على إذن للقيام بذلك"، قال ماكس، "وتمكنت من تمضية يوم رائع مع بي. أن. وعائلته".

عائلته، قال ماكس في نفسه، وظهرت ومضة أمل.

"هل تعرف كيف يمكنني الاتصال بهم؟"، سأل، "من المهم جداً أن أتحدث إلى شقيقه أو إلى أحد أنسبائه".

فلزم القيّم الصمت للحظات، ومن ثم قال:

"لا أعلم إذا كان أحد من أشقائه أو أفراد عائلته لا يزالون على

قيد الحياة، ولكن، لبي. أن. ابنتان وعدة أحفاد أعتقد أنهم لا يزالون يقيمون في قريتهم. يمكنني أن أعطيك أرقام هواتفهم إذا رغبت في ذلك".

فدوّن ماكس رقم ابنة بي. أن. وطلبه على الفور. لم يكن يتذكر اسم ابنة بي. أن، ولكنه تذكّر صوت شيلبا اللطيف والضاحك ما إن تكلّمت.

"أه، ما زلنا نتحدث عنك"، قالت ببهجة، "كنت في السادسة من عمري فقط عندما تناولت العشاء معنا في تلك الليلة، وكنتَ أول شخص أبيض بالكامل أراه يوماً. اعتاد والدي التحدث عنك في غالب الأحيان وبشغف، في الواقع، أعطاني شيئاً ما وهو على فراش الموت قال إنك قد تسأل عنه يوماً ما".

فتفاجأ ماكس.

"ماذا ترك لي؟"، سأل بفضول.

"إنه كتاب، ولكنه قال إنه يتعيّن عليك القدوم والحصول عليه شخصياً"، قالت شارحة، "طلب مني أن أُبلغك عندما تتصل عن أسفه بسبب عدم تمكنه من انتظارك حياً. قال لي أموراً كثيرة أخرى أيضاً، وهناك بعض التعقيدات غير المتوقعة تحول دون إعطائك الكتاب. ولكنني سأشرح لك كل شيء، كما طلب، إذا اخترتَ القدوم".

لغز بعد لغز، قال في نفسه. ولكن عليه مواصلة الأمر ما دام الأمل موجوداً.

"بالطبع، سآتي في أسرع وقت ممكن"، قال، "سيكون من الرائع تمضية بعض الوقت معك ومع أفراد عائلتك. هل لا يزال عمك الذي يدرّس في الجامعة على قيد الحياة؟".

"العم غوبتا على قيد الحياة وبحالة جيدة"، أجابت، "إنه في التسعين من عمره تقريباً، ولكنه لا يزال حادّ الذهن كالعادة. كان برفقتي عندما توفّي والدي، وقد تكون لديه بعض المعلومات ليشاطرك إيّاها".

قال: "سأسافر إلى الهند جوّاً في غضون أسبوع وأقصد منزلكم للقائكم. عندها، يمكننا مناقشة التفاصيل المرتبطة بالرسالة التي تركها والدك لي". وودّعها، وأنهى المكالمة الهاتفية.

وبينما كان يضع سمّاعة الهاتف، تساءل ماكس عن كيفية جمع شمل الاثني عشر في حين أن أحد عشر شخصاً فقط كانوا لا يزالون على قيد الحياة.

سي. دي. ماهارز

حزيران/يونيو 2012

وصل ماكس إلى دلهي بعد أربعة أيام فقط.

كان المطار قد بلغ ضعف حجمه بعد زيارته الأخيرة قبل أربعين عاماً، وبالرغم من استمرار ازدحام الطريق بالدراجات الهوائية، والعربات التي يجرّها الناس، والحمير، والأبقار، والمشاة الذين يحملون حُزَماً كبيرة على رؤوسهم، كانت هناك أيضاً سيارات، وشاحنات، وحافلات على امتداد الطريق العام الحديث المؤلف من أربعة مسارب والممتد من المطار إلى دلهي.

أمضى ليلته الأولى في فندق تاج محل الحديث والفخم على غرار كل الفنادق التي ينزل فيها عادةً. وتدبّر أمر الحصول على سيارة أقلّته إلى قرية بي. أن. على بُعد عشرين ميلاً عن المدينة، وحيث سيمضي بقية المدة مع ابنة بي. أن. والعائلة الموسَّعة.

لم يتذكر ماكس الطريق لأنه كان قد سلكها مرة واحدة فقط في الليل قبل عدة سنوات، ومع ذلك، فقد أذهله كيف تبدو عليه حال العودة في الزمن مع كل ميل يقطعه. وعندما وصل إلى البلدة، تمكن من التعرّف إلى الشوارع التي لا تزال مليئة بالباعة والمتاجر الصغيرة حيث يُباع كل شيء بدءاً بالماء، وصولاً إلى

الفاكهة والسكاكر، والقطع المعدنية القديمة والحديثة، والألعاب الإلكترونية.

وهناك فتيانٌ صغار يلعبون لعبة ركل الصفيحة المعدنية، وفتيات يحملن جرار مياه كبيرة على رؤوسهنّ ملأنَها من بئر البلدة، كما يتذكر.

لا تزال أمور كثيرة على حالها.

وعندما دخل ماكس مجمّع مباني أسرة ماهارز، لاحظ أن الجدران طُليت بطبقات جديدة من الطلاء، وتم استبدال بعض الكراسي والمقاعد في غرفة الطعام الخارجية بأخرى.

ومع ذلك، فقد بقي الأثاث على حاله داخل المنزل. المطبخ لم يتبدل، والعديد من الكتب الموجودة على الرفوف – في ما كان يُعرف بمكتب بي. أن. – بقيت مكانها تماماً.

وبينما كان واقفاً ينظر إلى عناوين الكتب، دخلت شيلبا ابنة بي. أن. الغرفة ورحّبت به بحرارة.

"لقد نظّمنا غداء لك"، أعلنت، "سيصل كل الأنسباء بعد قليل. يسعدنا حضورك في هذا اليوم لأنه يوم مناسبة ذات معنى روحي كبير. عمّي على ثقة تامة أن التوقيت ليس مصادَفة".

وبعد قليل، وصلت كل العشيرة، وانتقلوا إلى غرفة الطعام.

أثناء الغداء، لفت ابن شيلبا سي. دي. انتباه ماكس. كان في السابعة عشرة من عمره، وقد وُلد مصاباً بعاهة عقلية مماثلة لمتلازمة داون ولا تتحسن قدرته العقلية أبداً مذ كان في الثالثة من العمر. ففي استطاعته تمييز الوُجهات وإصدار أصوات من دون أن يكون قادراً على تشكيل تعابير أو جُمل كاملة.

وعندما يُصدر أصواتاً، تكون مرتفعة في العادة، لا يتحكم كثيراً بحجم الصوت كما يبدو، ولا يمكنه تحديد الأثر الذي قد تتركه في

نفوس الآخرين محاولته التواصل معهم. كان سي. دي. قويّاً جداً، لذلك أُسندت إليه مهامّ في الحقول كقطف الخضار. ونتيجةً لذلك، نما صدره وذراعاه على نحو يفوق نموّ جسده البالغ طوله 6.5 أقدام، مما منحه القوة الجسدية لرجل أكبر حجماً.

كانت لديه عينان بنّيتان داكنتان، كبيرتان مائلتان إلى السواد، وفيهما بريق آسر، ويبتسم قليلاً. لقد عانق ماكس بقوة في أثناء الترحيب به لدرجة أن ماكس اعتقد أن أضلعه ستُسحق.

فأبعدت شيلبا ابنها عن ماكس بلطف.

"سي. دي. قويّ جداً"، قالت مطَمئنةً ماكس، "ولكنه شديد اللطف. لن يُلحق بك الأذى. هو يحب الجميع ولا سيما الحيوانات، ويعانق كل مخلوق حيّ يلتقيه. إنه بمثابة فرح بالنسبة إلينا أكثر منه عبء علينا، ولكن يجب علينا أن نكون متيقظين على الدوام بما أنه لا يستطيع الاعتناء بنفسه".

وفي أثناء تحدثهما، توقّع ماكس أن يرى الحزن في عينيها، ولكن الحب هو كل ما رآه.

لقد افتُتن الشاب الصغير تماماً بماكس بقدر ولَع ماكس به. واستمر في تقديم الطعام إلى ماكس والنظر إلى عينيه مباشَرةً، والاقتراب من وجهه. كانت شدة اهتمامه مُربكة بطريقة ما، ولكن ماكس شعر برابط غامر تقريباً بينهما.

كان ينظر إلى عينَي سي. دي. الكبيرتين الداكنتين ويرى حبّاً غير مشروط وثقة. لم يكن يستطيع تمالك نفسه عن التحديق إليه باندهاش.

* * *

بعد الغداء، اصطحبت شيلبا والعم غوبتا ماكس إلى مكتب بي. أن. الذي يتشاطره على الدوام مع بحّاثة آخرين من العائلة.

كانت الرفوف مليئة بالكتب والخرائط، والرسوم تكسو الطاولات، وتحتوي العديد من المخطوطات على رسوم يدوية فائقة الجمال، وكان أحدها قديماً جداً. إنها مقتنيات أسرة ماهارز المشهورة ببحّاثتها.

وكان غوبتا الذي يبلغ من العمر تسعة وثمانين عاماً أول من تكلم.

"نحن في انتظارك منذ سنوات عدة". قال: "لقد مضى تقريباً ثمانية عشر عاماً على وفاة ابن شقيقي بي. أن. بداء السرطان، ولم يكن يبلغ الخمسين من عمره. لقد أمضى الأشهر العديدة الأخيرة من حياته مستلقياً على سرير نقّال وضعناه له في هذه الغرفة".

"كما تعلم، كان يحب كتبه، وأمضى السنوات الأخيرة من حياته يدرس النصوص القديمة لشعب الأوبانيشاد الذي استمد منه الهندوس التقاليدَ والمعتقدات المُبجَّلة".

وسلّم غوبتا ماكس مفكّرة صغيرة زهرية اللون، وعلى غلافها صورة جميلة لجبال وأشجار وجدول ماء.

"إنها المفكرة التي كان يحتفظ بها بي. أن. في ذلك الوقت، وقد سجّل عليها أفكاره الأخيرة. ويوم وفاته، استدعاني وشيلبا وسلّمنا إيّاها، وقال لنا إنه علينا حماية هذه المفكرة لأن شخصاً ما قد يحضر ويسأل عنها، وطلب منا تسليمها إلى ذلك الشخص. أعتقد أن ذلك الشخص المجهول هو أنت. لم يذكر بي. أن. أبداً اسمك، ولكن أحداً لم يأتِ بحثاً عن بي. أن. في السنوات السبع عشرة الأخيرة سواك، ولا سببَ يدعوني إلى الظن أن شخصاً آخر سيظهر".

فحمل ماكس المفكرة، ولكنه لم يكن يعرف ما إذا كان يتعيّن عليه فتحها أم لا.

وبينما كان متردداً، تكلمت شيلبا:

"كنت برفقة والدي كل يوم، وقمت بخدمته باستمرار في المرحلة الأخيرة من مرضه. لقد بتنا مقرّبَين من بعضنا أكثر من أي وقت مضى بما أن والدتي فارقت الحياة، وكنت نسيبته الأكثر تقرّباً منه. كنت حاملاً بطفلي الأول، وقد منحنا ذلك الفرح لكلينا".

"في اليوم الأخير من حياته، وعندما سلّم المفكرة إلى غوبتا، قال لنا ألا نسلّم المفكرة إلى مَن طلبها إلا إذا قام ابني الذي لم يولد بعد بمرافقة المستلم. قد تجوب المفكرة العالم، كما قال، ولكن يجب إعادتها ذات يوم إلى هذه الغرفة لتبقى بالقرب من حفيده".

وتناول غوبتا الحديث.

"لقد بدا طلباً غريباً، ولكن كما تعرف من حديثنا الذي أجريناه قبل أربعين عاماً، نحن الماهارز مليئون بالمفاجآت والمعارف الغريبة".

عندها، تذكّر ماكس ممارس اليوغا ورحلته إلى القمر وما وراءه. وأعاده صوت غوبتا إلى الحاضر.

"لم نطرح أسئلة آنذاك حول طلب بي. أن. ولا نريد طرح أسئلة حوله الآن. لك حرّية قراءة هذه المفكرة، ولك حرّية أخذها إذا كنت بحاجة إلى ذلك، ولكن في هذه الحالة عليك اصطحاب سي. دي. معك لأنه الطفل الذي كان في رَحم شيلبا آنذاك".

فشعر ماكس بالإثارة والإرباك. لم يكن يبدو على بي. أن. الاحتيال أو أن تحمل أفكاره طابعاً خيالياً غير مألوف. لماذا يضع هذه الشروط الغريبة للحصول على هذه *الهدية*؟

ماذا يوجد في هذه المفكرة؟

"لم يسبق لأحد أن فتح هذه المفكرة، لا شيلبا ولا أنا، أو أي شخص آخر"، شرح غوبتا، "قال لنا بي. أن. إن المحتويات مخصصة

للذي سيأتي بحثاً عنها، علماً أنها لن تكون ذات معنى بالنسبة إلى الآخرين".

ففكر ماكس في ذلك الأمر قليلاً، وبدا أن ما قاله غوبتا لا معنى له.

"سندَعك تقرأ المفكرة، ويمكنك بعد ذلك إعلامنا إذا كنت تريد منا إعداد سي. دي. للسفر معك أم لا"، أضاف الرجل المسنّ، "وإذا أردتَ أن يرافقك، ستقوم شيلبا بمرافقته بالطبع. لقد سافر سي. دي. من قَبل، حتى إنه يملك جواز سفر أيضاً. هو يطيع شيلبا، ويمكن لأي شخص أن يلاحظ مَيله إليك".

استدار غوبتا وشيلبا للمغادرة، ولكن الرجل المسنّ استدار مجدداً للتكلم للمرة الأخيرة.

"عندما نعود، سنسألك عن قرارك".

* * *

بعد مغادرتهما، فتح ماكس المفكرة.

كانت مليئة بالأرقام، وكانت هناك أربعون صفحة تقريباً من العمليات الحسابية، وفي الصفحة الأخيرة وجد ماكس المعادلة النهائية ومجموعة الرموز النهائية.

21122012

لقد ظهر هذا الرقم اثنتي عشرة مرة في صفحات عدة من المفكرة نتيجةً لاثنتي عشرة عملية حسابية مرتكزة على اثنتي عشرة مجموعة مختلفة من المسلّمات الأساسية التي صاغها بي. أن.

كان هناك نص صغير جداً في المفكرة يوضح أن كل عملية حسابية تستند إلى مجموعة مختلفة من المعتقدات المرتبطة ببداية حقبات مختلفة وفقاً للروزنامة الهندوسية ولأنظمة قديمة أخرى، ويشير النص

أيضاً إلى أن بـي. أن. أمضى الأشهر الأخيرة من حياته - حتى وفاته كما يبدو - في تحليل ومقارنة الروزنامات القديمة العائدة إلى حضارات من مختلف أنحاء العالم.

وفي الصفحة الأخيرة، دوّن بـي. أن. ملاحظة شخصية:

إن طاقـة روحي وجوهرها موجدان في هذه الصفحات. وبما أنني أنتقل وأغادر هذا الجسد، سأنقل جوهري إلى جسد طفل شيلبا الذي لم يولد بعد. سيبقى جوهري داخل حفيدي وعلى صورته، ويجسّد في أثناء وجود هذه المفكرة الذبذبات والمعرفة القديمة التي يسعى إليها العالم.

وهكذا، أكون قد حققت قدري وغاية حياتي، وأنا أسلّمك الآن يا من تقرأ هذه الكلمات مهمة التحوّل الكوكبـي.

بـي. أن. ماهارز

علـم ماكس على الفور أن عليه مرافقة سي. دي. إلى إيزابا إذا أراد الحصول على المفكّرة. فبطريقة ما، أدرك بـي. أن. قبل وفاته أن جوهره سيكون أمراً ضرورياً في حدث مستقبلي.

وكـان على ماكس دراسة الأرقام في وقت لاحق، محاولاً تبيان معـناها، ولكـن اتضح له أن بـي. أن. سيكون حاضراً من خلال المفكرة وحفيده، ويحقق بهذه الطريقة هدفه بجمع شمل الاثني عشر كما طلب صاحب كل الإجابات.

فالـتقط أنفاسه للحظات، وخرج إلى ضوء الشمس على الشرفة حيث كان غوبتا في قيلولة، وشيلبا تقوم بأعمال التنظيف.

"سأصـطحبك معـي نـزولاً عند طلبك"، أعلن، "هل يمكنك الإعـداد لـسفر كليكما إلى مكسيكو سيتي في التاسع أو العاشر من آب/أغسطس؟ سنلتقي بكما هناك، وننقلكما إلى إيزابا جواً أو براً، إلى موقع شعب المايا القديم الذي وضع روزنامة المايا".

جلس على كرسي، وأومأ إليها بالجلوس أيضاً. وعندما جلست، أضاف:

"طُلـب مني جمع اثني عشر شخصاً مميّزين في ذلك المكان في 11 آب/أغسطس على أن يكون بـي. أن. أحدهم. وبعد قراءة مفكرته، اتـضح لي أن ســي. دي. هـو الآن أحد الاثني عشر لأن طاقة جده موجودة فيه الآن". وتوقف عن الكلام لرؤية ردّ فعلها حيال هذا الأمر.

فابتسمت شيلبا.

"لم يقـل لي والدي أبداً إنني سأقوم بهذه الرحلة، ولكنه ألمح في تلك الأيام الأخيرة إلى أنني قد أُدعى إلى حضور حدث عظيم ويُفترض بـي الاسـتعداد إذا ما دُعيت إلى ذلك. سأُعدّ سي. دي. للرحلة، ويـشرّفني أن أشارك في تجمّعكم. أنا على ثقة أن خيراً عميماً سينجم عن ذلك".

* * *

أمضى ماكس بقية المساء يلعب مع سي. دي. وشقيقته الصغرى نـسخة محلّـية عن لعبة التقاط القضبان. كان سي. دي. يتمتع بقدرة ممـتازة على التحكم بحركاته الجسدية، ويفوز على الدوام، ويضحك كلمـا قـام ماكس بتحريك قضيب ويضغط بإصبعه بقوة على معدة ماكس، مُعلماً إياه أنه فقد دوره.

بعد كل لعبة، يسلّم القضبان إلى ماكس لعدّها. وبالرغم من عدم قدرة سي. دي. على العدّ بنفسه، كان في استطاعته أن يعرف أنه فاز على ماكس من خلال النظر إلى حزمة القضبان التي جمعها كل منهما.

كان هذا الأمر يحمل سي. دي. أيضاً على الضحك.

وعـندما حـان الوقت للذهاب إلى السرير، عانق ماكس وقبّله بقـوة، وهو أمر لم يختبره ماكس من قبل. إن طاقة حبه غير المشروط

ذكّرت ماكس بالمشاعر التي انتابته لدى اختبار حالة النورانية في مكتب الطبيب غراي في تاريتاون، نيويورك، منذ خمسين عاماً تقريباً.

وفي أثناء محاولته الاستسلام لنوم سارّ ومُرضٍ، لم يتمكن ماكس من تمالك نفسه عن التفكير في التالي: *أخيراً، سأعرف الغاية من حياتي. سي. دي. هو الفرد المفقود من الاثني عشر.*

وبطريقة ما، أعتقد أنه أكثر من يملك أموراً يعلّمنا إياها.

الفصل الثامن والعشرون

إيزابا

تموز/يوليو 2012

تقع بلدة إيزابا القديمة على بُعد تسعة كيلومترات فقط من مدينة تاباشولا الحديثة، وهي مركز تجاري لإقليم شياباس في المكسيك القائم في أقصى الجنوب شمال غواتيمالا.

ويقيم والد خوان أكوستا، مانويل، خارج تاباشولا على بُعد ثلاثة كيلومترات من حديقة شعائر الرقص القديم حيث الأطلال الآثارية الأكثر شهرة في إيزابا. وزراعة البنّ مهيمنة على تلك المنطقة، ولكن الكاكاو هو المصدر الرئيس للدخل في إيزابا.

كان في استطاعة ماكس أن يشمّ رائحة البنّ والكاكاو عندما وصل.

لقد قرر الذهاب بمفرده للقاء مانويل والإعداد لجمع الاثني عشر. لقد أبلغه الدب الراكض أن صاحب كل الإجابات يريد بدء اللقاء في 11 آب/أغسطس عند شروق الشمس.

قبل حلول ذلك اليوم، كان عليه العثور على فندق في تاباشولا حيث يمكن للجميع تمضية الليلة السابقة للاجتماع.

والفندق الجيد الوحيد المتوافر في تاباشولا حديث نسبياً. فأجرى ماكس الحجوزات ما إن وصل إليه وتدبّر أمر استئجار عربتَي نقل مع سائقيهما المحلّيين.

* * *

في اليوم التالي، جدّ في طلب مانويل الذي كان في الثمانين من عمره تقريباً، ولكنه يتمتّع بنشاط شاب. كان لا يزال يزرع أشجار الكاكاو في أرضه الصغيرة ويتوجه كل يوم إلى موقع إيزابا القديم – على غرار آبائه وأجداده – لفتح وإغلاق مدخل حقل شعائر الرقص والآثار التاريخية المبجّلة وأشياء أخرى من صنع الإنسان يقوم السياح بزيارة الموقع لمشاهدتها.

كان مانويل يقبل بعض الإكراميات من السياح، علماً أنه قيّم نهاري لا يتلقى أي أجر وفقاً لتقاليد أسلافه. ولم يكن يدعو لأسياد المايا القدماء إلا في إيزابا لدى فتح الموقع وإغلاقه؛ فهو يحضر الاحتفال الديني الكاثوليكي في حياته اليومية، مفسّراً ذلك أنه لا يجد أي تعارض بين الاعتقاد بأسياده القدماء واعتقاده بالفادي.

وبما أن مانويل يتكلم لغة إنكليزية ضعيفة، تحدث إليه ماكس بالإسبانية، شارحاً له طبيعة زيارته وعزمه العودة في 11 آب/أغسطس لإقامة احتفال خاص مع الاثني عشر.

فقال مانويل لماكس إن 11 آب/أغسطس هو تاريخ مُبجّل في ذلك العام كونه بداية الأيام المئة والثلاثين النهائية "للحب؛ النشاط" التي تنتهي في 21 كانون الأول/ديسمبر 2012؛ اليوم الذي يُعتبر نهاية روزنامة المايا.

لقد أدرك ماكس أكثر من أي وقت مضى أنها ليست نهاية عادية، بل نهاية مجموعة من الروزنامات التي شملت ستة وعشرين ألف عام.

وفي أثناء مرافقة مانويل له في جولة في أرجاء الموقع القديم، كشف له أن علماء الآثار أكّدوا مؤخراً أن إيزابا كانت بلدة مزدهرة قبل آلاف السنوات ويقطن فيها أكثر من عشرة آلاف شخص. وأظهرت الآثار التاريخية أن الروزنامة الممتدة وُضعت في هذا المكان

وتمّت مشاطرتها مع بلدات أخرى في مختلف أنحاء شياباس، وفي قسم كبير من أميركا الوسطى والشمالية والجنوبية.

وبينما كان ماكس يصغي بسكون مستغرِق، شرح مانويل قائلاً إن شعائر الرقص التي جرت في هذه الحديقة مرتبطة بالروزنامة عينها. ووفقاً لمعتقدات المايا، يجب حدوث تبدّل في الوعي في 21 كانون الأول/ديسمبر المحوري إذا أراد البشر الاستمرار إلى ما بعد "نهاية الزمان".

وبالرغم من أهمية ما يقول، كان يتحدث بهدوء كما لو أنه يخاطب فرداً أو مجموعة في جولة سياحية. وفي أثناء قول ذلك، استعاد ماكس فجأةً صلة ذهنية كان قد فقدها منذ رحلته إلى الهند.

لقد رأى في عين عقله سلسلة الأعداد الأساسية التي ظهرت تكراراً في مفكرة بي. أن. ماهارز؛ 21122012. ولكنه لم يجد الصلة المباشَرة لأنه أميركي، علماً أن تلك الأرقام تعكس تاريخاً محدداً في كل مكان من العالم؛ 2012/12/21.

21 كانون الأول/ديسمبر 2012.

لا يمكن أن يكون الأمر مصادَفة.

فبطريقة ما، يجب على الاجتماع أن يُعقد في الحادي عشر من آب/أغسطس لتبدأ سلسلة تنتهي في 21122012، ويجب أن يكون الاثنا عشر حاضرين.

وألقى ماكس نظرة سريعة في أرجاء الموقع المبجّل للتحقق من وجود مكان ملائم لاجتماع الجميع. وفكر في حقل شعائر الرقص، ولكنه أدرك أنهم لن يتمكنوا من إحاطته بحبال كيلا يقترب السياح من مكان الاجتماع، كما أنه لم يكن يملك أي فكرة عن مدة الاجتماع، ويعلم أنه من الأفضل عقده بدرجة معيّنة من الخصوصية.

وحدّق في البعيد إلى البركانين القائمَين إلى الشرق؛ بركان تاكانا وبــركان تاجومولكو الأكثر ارتفاعاً. وسأل مانويل عن إمكانية وجود مكان للالتقاء عند أسفل هذين البركانين.

فابتسم مانويل.

"بالطــبع، هناك مكان"، أجاب بلغته المكسيكية، "اتبعني. هناك أيــضاً كهف اعتاد شعبــي القديم القيام باحتفالات فيه لنَيل القوة. لم نعــد نتذكر الشعائر أو جدواها، ولكن أساطيرنا تخبرنا أن حقل شعائر الرقص موجَّه بحيث يكون نور الشمس فوق بركان تاجومولكو مباشَرةً لدى حدوث الانقلاب الشمسي الشتوي".

وبعــد عشرين دقيقة من التنقل بسيارة الجِيب المستأجَرة، وعشرين دقــيقة أخرى من السير على الأقدام، وصل ماكس ومانويل إلى بَراح على الهضبة بقرب كهف، وتمكنا من رؤية حقل شعائر الرقص والتماثيل القديمة إضافةً إلى المحيط الهادئ إلى غربيّ المكان على بُعد خمسة عشر ميلاً.

"أجــل، إنــه ممتاز". أكد ماكس بعد أن حرك المنظر أحاسيسه: "هــل تــوجد طريقة للتأكد من أن أحداً لن يزعجنا عندما نلتقي في آب/أغسطس؟".

"لا تقلــق". أجاب مانويل: "سأقف عند أسفل الدرب وأمنع أي شــخص من المرور. لا أحد يعيش في أعلى البركان، لذلك لن يكون عليك القلق حيال التعرض للإزعاج".

وعــرض ماكس على مانويل التعويض عن الوقت والجهد اللذين بذلهما، ولكن الرجل المسنّ ابتسم وهزّ رأسه فحسب.

"يكفــيني أن أرى ابني خوان"، قال، "إضافةً إلى ذلك، أشعر في صميمي أن احتفالك مرتبط بغايتي الخاصة. نحن نخدم القدر ولا حاجة إلى المال للتعويض عما أقوم به بحب وامتنان".

فابتسم ماكس للرجل الذي وقف أمامه.

"أنــا ممتنّ لك حقاً". قال: "لست واثقاً بقدرك أن هذا الاحتفال سيكــشف المُقدر، ولكنها ستزوّدني بمؤشر ما لرحلتي الطويلة وتشرح التزامنات والمصادفات التي وجّهت حياتي". وعانق مانويل.

* * *

في تلك الليلة، لم يتمكن ماكس من النوم بسبب انفعاله الشديد.

ولم يــستطع حمــل نفسه على التصديق أن العالم سينتهي في 21 كانــون الأول/ديسمبر، ولكنه لم يستطع إنكار وجود أمر هام مرتبط بــذلك الــتاريخ. لقد حدثت العديد من الأمور التي لا يمكن شرحها، وكلما اقترب من ذلك التاريخ اقتربت لحظة الحقيقة.

مــاذا لــو اســتمرت الأمور في التسارع؟ قال في نفسه في أثناء اســتلقائه على السرير، محدّقاً إلى السقف. *ما المفاجآت التي لم يُكشف النقاب عنها بعد؟*

تــزامن تِلــو تزامن، بدءاً بلقائه الصاخب بماريا وصولاً إلى لغز العملــية الحــسابية النهائية لبــي. أن. ماهارز، ومجموعة المصادفات العديدة التي بدت مستحيلة وأوصلت ماكس إلى إيزابا بالرغم من كل شيء.

وبــدْءُ العد النهائي المؤدي إلى نهاية روزنامة المايا حمل ماكس إلى احتساب الأرقام في رأسه باضطراب.

كان يتبادل رسائل البريد الإلكتروني مع صن، وهو خبير في عِلم معاني الأعداد، وذلك منذ الكشف عن الاسم الأخير بين الأسماء الاثني عــشر. فالعمليات الحسابية الأساسية لصن مذهلة ليس بسبب وجود كــل الأرقام الرئيسة التسعة بل بسبب بقاء التناغم بطريقة ما حتى مع غياب بــي. أن.

كانت هناك ثلاثة أرقام متطابقة فقط، وأحدها يتشاطره تشيل كامبيستر وبي. أن. اللذان يقابل اسم كل منهما أربعة أرقام. وبوفاة بي. أن. لم يعد هناك تطابق.

ويقابل اسم كل من ماريا وصن تسعة أرقام، ولكنها أرقام *مختلفة*، ويبلغ مجموع الأرقام المقابلة لاسم ماريا 189 ولاسم صن 108، وهو رقم هندوسي مُبجَّل. وهناك تطابق وحيد آخر بين الطبيب آلن وميلودي اللذين يقابل اسمَ كل منهما رقمان. ويرد العدد 2 ثلاث مرات في الرقمين المقابلين لاسم ميلودي، وهو يمثّل "طاقتَين" أكثر تكاملاً مع طاقة المجموعة مقارنةً بالطبيب آلن، وهو الشخص الوحيد غير المؤمن بين الاثني عشر.

لقد اتضح أن هذه الأعداد صُمِّمت بعناية، إن لم تكن مرتبطة بالقدَر، استناداً إلى علم معاني الأعداد.

واستمر ماكس في العودة إلى 21122012 وإلى التعاقب المحتّم للرقمَين 21 و20 اللذين يفصل بينهما الرقم 12. فبطريقة ما، إن الاثني عشر، وروزنامة المايا، وعمليات بي. أن. الحسابية، مرتبطة ببعضها بعضاً.

وببقائه مستيقظاً، علم ماكس أنه لن يرتاح قبل أن يجد تفسيراً لصلتي الطاقة والعدد القائمتَين بين الأشخاص، والتواريخ، ومهمته المتمثلة بجمع الاثني عشر في إيزابا.

المبعوث الثالث عشر

آب/أغسطس 2012

كان ماكس مُنهَكاً وعصبيّ المزاج.

فسافر إلى مكسيكو سيتي مساء 9 آب/أغسطس لاستقبال سي. دي. وشيلبا، ورافقهما إلى تاباشولا على متن طائرة صغيرة تُحدث ضجيجاً بحيث إنه وشيلبا لم يتمكنا من التحدث.

ووجد سي. دي. المغامرة برمّتها ضرباً من ضروب المرح. كان شديد الإثارة، ويقفز مُطلقاً صيحات مرتفعة، ويشير إلى كل مكان عبر نافذة الطائرة. لقد مرّ وقت طويل على بذل ماكس كل هذا النشاط، ووجد الأمر مُرهقاً.

كان ممتنّاً أكثر من أي وقت مضى لتمكن شيلبا من المشاركة في الرحلة.

وعندما وصلوا إلى الفندق في تاباشولا، كان الآخرون قد استقرّوا. لقد قرر إيرول أن لا معنى للقيام بهذه الرحلة الطويلة من دون تخصيص يوم أو يومين لزيارة مواقع مُبجَّلة أخرى في أرض أهرامات المايا القديمة. لذلك، وصل في السابع من آب/أغسطس وشعر أنه في وطنه برفقة خوان ومانويل.

وناقش مع شو صن باك أيضاً بعض الأعمال. وبالرغم من كونه أكبر سنّاً بمقدار الضعف، لم يتمكن إيرول من رفع أنظاره عن ميلودي.

"تتحرك كالماء وتسطع كجوهرة"، أسرّ لماكس.

وكـــان يوكـــو وماريـــا قد أصبحتا رفيقتَي سفر في الرحلة إلى سان لورنـــــزو دي شـــياباس. وتواصـــل خـــوان ومانويل مع الدب الراكض ويوسكي، متشاطرين صوراً وقصصاً عن عائلاتهم. واصطحب مانويل الدب الراكض إلى موقع اللقاء ليُريه الكهف ويسأله عما إذا كان مناسباً أم لا.

كان الدب الراكض يتكلم الإسبانية بما يكفي للتواصل مع الآخرين، ورافقهمـــا خوان ليكون مترجماً لهما عند الضرورة. فوافق الدب الراكض علـــى الموقع، واشترى حاويات ماء عدة، وطلب من خوان تأمين شطائر لأخذها معهم في صباح الحادي عشر من آب/أغسطس، ثم قال:

"يجـــب أن نلتقي عند شروق الشمس، ولكن لا فكرة لدي عن المـــدة التي سنمضيها هناك أو ما الذي سيحدث. من الأفضل أن نكون مستعدّين".

وعبّـــر تشيل كامبيستر أكثر فأكثر عن ثقته أن لقاء الاثني عشر سيؤدي إلى المجيء الثاني للفادي، وأن ذلك هو كل ما يمكن أن يقوله. وكـــون خوان المترجم، استمتع الريبونش بأحاديث طويلة مع مانويل والدب الراكض عن طبيعة ممارساتهما وشعائرهما.

وبقي آلن تايلر متشككاً في أفراد المجموعة كافة كونه غير مؤمن، وأقـــرّ أنه يرتاب كثيراً في ما يقوله الدب الراكض. واعترف لماكس أنه لم يكـــن راغباً في حضور الحدث حتى اكتشف أن إيزابا مجاورة لبعض الأمـــاكن الرائعة لركوب الأمواج، وأن إيرول سيسدد نفقات السفر. لذلك، عزم على تمضية بعض الوقت لدَحر الأمواج.

"إضـــافةً إلى ذلك"، قال بلطف، "أنت تروق لي يا ماكس، ولا شائبة في هذه المغامرة. ستكون ممتعة على الأقل!".

* * *

في مـــساء العاشر من آب/أغسطس، استضاف ماكس عشاء في الفندق. وكرر الرواية الكاملة لاختباره حالة النورانية، وسرد التفاصيل الجديـــدة التي اكتشفها في الهند وفي مفكرة بـــي. أن. ماهارز. كانت شـــيلبا موجودة وتعتني بابنها، فابتسمت ابتهاجاً عندما تحدّث ماكس عن ذكاء والدها.

وفي أثـــناء العشاء، أعاد ماكس صلته بماريا. كانت نظرة سريعة، ولكـــن ماكس ضاع مجدداً في أغوار جمالها الذي كان لا يزال أخّاذاً، وافتُتن بعذوبة صوتها وبسلوكها الهادئ.

فبادلته ماريا النظرة، ولكنه كبح جماح رغبته في التحدث إليها في أثناء إكمال شرح الظروف التي حملت سي. دي. على تمثيل بـــي. أن. لا ســـيّما وأن الـــدب الراكض كان شديد الوضوح بوجوب حضور الاثـــني عشر ليقوم صاحب كل الإجابات بمباركة الاحتفال. وبالرغم مـــن أن مـــاكس لم يكن أحد الاثني عشر، فهو سينضم إلى الاحتفال بصفته قيّماً على مفكّرة بـــي. أن.

"عليك أن تنضم إلينا في البداية على الأقل"، أكد الدب الراكض، "يبدو من الواضح أن بـــي. أن. ماهارز يشعر أن سي. دي. سيمثّله، ولكن المفكّرة هامّة أيضاً، وبما أنه ليس في الهند فهي تخصّك".

ثم اختـــتم الـــدب الـــراكض حديثه قائلاً: "إذا لم تتدفق الطاقة، يمكنك المغادرة".

لم يكـــن في استطاعة أي شخص آخر الحضور لأنه وفقاً للدب الراكض، إن طاقة الاثني عشر - الاثني عشر *فقط* - ضرورية لحدوث أي أمر.

وأدرك ماكس مع بعض الاضطراب أن عليه الاعتناء بسي. دي.

* * *

وصلت المجموعة إلى أسفل بركان تاجومولكو عند الساعة الرابعة وخمس وخمسين دقيقة من صباح اليوم التالي. فالتقاهم مانويل هناك حاملاً مصباح بطارية بيده، وقادهم بخطى ثابتة إلى البَراح القائم عند سفح التلة بجانب الكهف.

وغادر بعد ذلك ليقف حارساً عند أسفل الدرب كما سبق له أن وعد.

وكان الدب الراكض أيضاً هناك في وقت مبكّر، ودعا الجميع للتجمّع حول نار أعدّها.

"يجب الجلوس في دائرة حول النار. لا تزال أمامنا ثلاثون دقيقة قبل شروق الشمس، وأرجو أن يقوم كل واحد منكم بالتضرع وفقاً لطريقته الخاصة بسكون خلال هذه الفترة.

"فإذا قضى التقليد الذي تتبعونه بالتهويدة، يمكنكم إنشاد التهويدة ولكن بأكبر قدر من الهدوء. أنا على ثقة تامة بأن كلاً منا يمثّل إحدى القبائل الاثنتَي عشرة ذات البشرة الملوّنة، وأننا موجودون هنا لتلقّي توجيهات. لا أعلم على أي صورة ستأتي هذه التوجيهات، ولا أعلم المدة التي سنمضيها هنا".

"قد لا نبقى هنا أكثر من ساعة أو ساعتين، ولكننا قد نمكث طوال اليوم. وبصرف النظر عن الوقت الذي سيتطلبه الأمر، سيكون من الغباء لنا الانصراف قبل أن تُلبّى تضرعاتنا، لا سيّما وأننا قادمون من أماكن بعيدة".

وتوقف قليلاً، ونظر إلى أفراد المجموعة كافة واحداً تلوَ الآخر وصولاً إلى آخر فرد في الحلقة. "كلنا متحدّرون من حضارات مختلفة، وبلدان مختلفة، ومعتقدات مختلفة، ولكن يتضح لي من الوقت القصير الذي أمضيته مع كل منكم أنكم جميعاً عباد للرحمن. نعيش في زمن

الوعد الكبير والأسى الكبير، لذلك أقترح أن نتضرع – ليس لأنفسنا أو لأشخاص محدَّدين – بل لكل الناس والمخلوقات".

"لا أعتقد أنه تم اختيارنا عشوائياً، ولكننا هنا لغاية محددة... إذاً، لنتضرع لخالقنا".

لم يسبق لماكس أن تضرع في حياته، ويعلم أن الطبيب آلن وإيرول هما على حال ماكس أيضاً، لذلك حدّق الثلاثة إلى الفضاء.

لم يكن سي. دي. يعرف ما الذي يتحدث عنه الدب الراكض، ولكن ماكس طلب منه التزام الهدوء والعثور على بعض غُصينات الأشجار ليقوم بليّها واستخدامها لوضع علامات على التراب. وهكذا، أمضى الشاب وقته يرسم بهدوء، ويمحو ما رسم، ويرسم بعد ذلك صور قضبان.

* * *

بعد مرور ما بدا أنه وقت طويل، أشرقت الشمس وسطعت في وجوههم.

فنظر ماكس حوله ولم يحدث أي أمر غير عادي. كان الريبونش ينشد بصوت منخفض على غرار الدب الراكض. وارتسمت على وجه شو صن باك نظرة ملل، ولكن ماريا ويوكو كانتا في ما بدا أنه استغراق تأمّلي. وكان خوان وميلودي ويوسكي وتشيل مكتفين بالجلوس وعدم القيام بأي شيء، فحسدهم على هدوئهم.

وبعد مرور ساعة على الأقل، وقف الدب الراكض وسأل عما إذا كان أحدهم جائعاً أو عطشان. وبما أن أحداً لم يتناول فطوره بعد، سُرّ الجميع بالشطائر والطامال المكسيكي المكسوّ بدقيق الذُّرة، والتي كان يحتفظ بها الدب الراكض في حقيبة الظهر.

وبقوا في حلقة في أثناء تناول الطعام.

ومـــرت ساعة أخرى من دون ظهور أي علامة. ولاحظ ماكس أن الطبـــيب آلـــن ينظر مطوّلاً إلى المحيط الهادئ، مفكراً بلا ريب في ركـــوب الأمـــواج الذي يُغفله. وبعد قليل، التفت إلى الدب الراكض وقال.

"كـــم من الوقت يجب علينا الجلوس هنا؟"، سأل ذلك، ثم تابع: "أشعر أن شيئاً لن يحدث".

ولم يـــبدُ التأثر على وجه الأميركي من السكان الأصليين عندما أجاب.

"لا أعـــرف، ولكـــن من الواضح أنه يجب علينا البقاء مزيداً من الوقت. قد لا تعي حدوث تغيير ما، ولكن في استطاعتي أن أؤكد لك أن طاقـــات هـــذا المكان تتبدل. يجب علينا نحن الاثني عشر الجلوس ببـــساطة كـــي تبلغ طاقاتنا حالة من الاتزان. كلنا قادمون من مصدر واحد، وجُمع له هدف. رجاءً، تحلَّ بالصبر. لقد مضت على وجودنا هـــنا ساعتان فقط. في بحث رؤيويّ، من الضروري أحياناً تمضية يوم بأكمله".

وعـــندما رأى نظرات التنبّه على بعض الوجوه، أضاف: "ربما لن نكون بحاجة إلى يوم كامل بل إلى ساعات إضافية عدة".

وعاد الدب الراكض إلى التأمّل.

كـــان سي. دي. يلزم الهدوء على نحو مثير للدهشة، ولكنه بدأ بدغدغـــة مـــاكس ومشاطرته ألعاباً تستلزم انتباهه التام. فشعر ماكس بالارتـــياح ولـــيس بالغضب لأنه لا يستطيع مواصلة الجلوس من دون القيام بأي شيء. لذلك، منحه سي. دي. بعض اللهو السارّ.

بعد قليل، جال إيرول، وشو صن باك، والطبيب آلن، وآخرون، في المكان لإراحة سيقانهم والنظر حولهم. لم يغب أحد عن الحلقة لأكثر

مـــن عـــشرين دقيقة، ولم يكن هناك أقل من تسعة أشخاص من الاثني عشر ضمن الحلقة في أي وقت من الأوقات.

فأمل ماكس أن تكون مدة الانتظار كافية.

* * *

قبل الظهر مباشَرةً، لاحظ هبوب ريح غريبة.

ورأى أولاً أغـــصان الأشـــجار تتحرك، وهبّ بعد ذلك إعصار صغير فوق جَمر النار مما أدى إلى توهّجها وخمودها بعد ذلك.

فتسمّر الدب الراكض في مكانه.

ونظـــر بعد ذلك إلى الريبونش، ومن ثم إلى خوان وإيرول. كان كل من شو صن باك، وماريا، ويوكو، وميلودي، ويوسكي، وتشيل، وأخيراً آلن وسي. دي. مسمّرين في أماكنهم.

لقد لزموا الصمت بأجمعهم، محدّقين إلى المكان حيث كانت النار مشتعلة. وساد البراحَ هدوءٌ وبدا الأمر كما لو أن الزمن توقف.

وطرف ماكس بعينيه ولكنه لم يرَ أي شيء. وهدأت الريح مجدداً، وســـاد صـــمت تام. فظن أنه يُفترض به الشعور بحماسة يشوبها القلق حيال كل ما يحدث، ولكنه كان هادئاً أيضاً، مما منحه شعوراً بالفضول والعجَب.

وألقى بعد ذلك نظرة سريعة إلى الاثني عشر ورأى الدموع تنهمر على خدودهم. وقوطِع الصمت بنشَجات بكاء خفيفة صادرة عن كلٍّ منهم.

كانت دموع فرح كما يبدو.

أخيراً، وبعد ساعات من الزمن، شعر ماكس بحضور يدخل البَراح.

هل يمكن أن يكون ذلك الذي كنا في انتظاره؟ قال في نفسه. *هل انتهى الأمر أخيراً؟*

"أجل، أنا من تنتظرون"، قال صوت عميق وهادئ تردد صداه في المكان.

"يعتبرني كل منكم متمِّماً لقدره... وأنا في الواقع متمِّم لكل هذه المعتقدات... بحضوركم أنتم الاثني عشر، لقد أحدثتم دوّامة من الطاقة تسمح لي بدخول عالمكم، وجئت لأقول لكل منكم ما الذي يجب عليكم القيام به لإنقاذ ذلك العالم. أنتم جزء من ميثاق قديم جرى قبل آلاف السنوات لضمان استمرار هذا الكوكب والجنس البشري.

سيسير كل منكم إلى الكهف القائم بجانب هذا البَراح، ويتلقى ما الذي يجب عليكم القيام به لإتمام التوقعات القديمة، وضمان عدم انتهاء عالمكم في هذه الأزمنة الأخيرة".

وساد الصمت بعد ذلك.

* * *

كان إيرول أول من دخل الكهف. وخرج بعد دقائق وعلى وجهه سمات رزينة لعزم فائق.

بعد ذلك، تلاه يوسكي، ومن ثم شو صن باك، والطبيب آلن، وتشيل، وماريا، ويوكو، وميلودي، لمدة دقيقة واحدة.

وبقي الريبونش في الكهف طوال ساعة كاملة، وكان الغسق قد حل عندما ظهر خوان، وحل الظلام عندما عاد الدب الراكض.

لم يتبقَّ سوى سي. دي.

فرافقه ماكس إلى المدخل وأراد البقاء خارجاً، ولكن الهندي الشاب سحبه إلى الداخل.

فدخل وشعر بانفعال وسلام. وبدأ سي. دي. بالضحك عندما كلّمه الصوت وكلّم ماكس.

"أنت فتى الحب"، قال، "عليك أن تعلّم هذا العالم الكثير. لقد احتسب جدك بأرقامه أن نهاية الكون ستحدث بعد مئة وثلاثين يوماً بدءاً من تاريخ اليوم. إنه أمر صحيح في الواقع، ولكن لم يكن جدك قادراً على معرفة أن نهاية كون قد تكون دلالة على بداية كون آخر.

لقد بدد البشر مواهبهم الثمينة، وسينتهي العالم بالفعل إذا لم يبدّلوا طرائقهم ويحوّلوا وعيهم.

"تتمثل مهمتك - على غرار مهمة الأحد عشر الآخرين - بالعودة إلى منزلك والبحث عن القيمة الأسمى. عُد مجدداً إلى الأماكن الأكثر تبجيلاً التي سافرتَ إليها أو أقمتَ فيها في هذه الحياة البشرية. سيقوم ماكس بمرافقتك، بالرغم من أنه ليس من بين الاثني عشر، فبواسطته قدمتَ مع الآخرين.

اذهب الآن وابتهج لعلمك أنك أتممتَ الجزء الأول من وعدك. أنت خادم مميَّز للعباد، يا سي. دي. وأنا أباركك إلى الأبد".

وساد الصمت، وأدرك ماكس أنهما باتا بمفردهما مجدداً. لم يعد المبعوث الثالث عشر حاضراً.

فأخذ ماكس سي. دي. بيده وأخرجه إلى البَراح حيث كان الآخرون جالسين بهدوء، ويحاولون استيعاب هذا اللقاء.

فقارنوا بين ما قيل لكل منهم، وتحققوا من معتقداتهم. لقد تلقّوا رسالة سي. دي. نفسها، وشعر كل منهم أنه مبارَك لأنه شارك في الرحلة.

وأمل كل واحد منهم أن يكون هو الذي يعثر على القيمة الأسمى ويقوم بإعادتها. لقد دخلوا البَراح في ذلك الصباح مُدركين أن ماكس هو من قام بجمعهم. ولكنهم باتوا متحدين ويتقاسمون هدفاً مشترَكاً ورسالة مشترَكة.

فنزلوا من الجبل معاً في الظلام حتى رأوا ضوء مصباح. فرحّب بهم مانويل من دون طرح أي أسئلة، وكانوا مجموعة صامتة عادت إلى تاباشولا.

* * *

في أثناء العشاء، أخبر ماكس شيلبا عن خبرة سي. دي. وعما سمعه في الكهف. وشرح أيضاً قائلاً إنه من الضروري بالنسبة إليهم العودة إلى إيزابا في كانون الأول/ديسمبر.

وبالرغم من وجود متشككين في بادئ الأمر، كان الجميع متلهفين لرحلة العودة، بمن فيهم الطبيب آلن. وكانت شيلبا قلقة حيال عدم تمكن سي. دي. من البحث عن القيمة الأسمى، ولكن ماكس طمأنها.

"سأعود وأقدّم المساعدة، ولكنني أشك في أن يكون أي بحث فعلي ضرورياً. أعتقد أن القيمة الأسمى قد حُدد مسبقاً من سيعثر عليها ، وإذا أُريدَ لسي. دي. النجاح في ذلك، فالقيمة الأسمى ستأتي إليه".

الفصل الثلاثون

عودة إلى الأماكن الأكثر تبجيلاً

آب/أغسطس 2012

بعد يوم من التأمل في ما حدث، اجتمعوا مجدداً لتناول العشاء؛ هذه المرة لمقارنة الملاحظات والخطط المستقبلية.

كان هناك عنصر واحد مشترَك في توجيهات المبعوث الثالث عشر إلى كل من الاثني عشر.

"عُد مجدداً إلى الأماكن الأكثر تبجيلاً التي سافرتَ إليها أو أقمتَ فيها في حياتك. سيقوم ماكس بمرافقتك، بالرغم من أنه ليس من الاثني عشر، فبواسطته قدمتَ مع الآخرين".

وحالما انتهوا من تناول الطعام، جلس إيرول مع ماكس ووضعا برنامج عمل يتمكن بواسطته من تمضية عشرة أيام على الأقل مع كل واحد من الاثني عشر.

"لدينا بالتحديد مئة وثلاثون يوماً، من ضمنها اليوم"، أشار إيرول، "إذا أمضيتَ عشرة أيام أو أحد عشر يوماً مع كل منا، يكون أمامك وقت كاف للجميع. يجب علينا حجز رحلتك على الفور، ويجب علينا تشاطر خط الرحلة التي سيختارها كل منكم للعودة إلى تلك الأماكن حيث توجد فرصة كبيرة للعثور على القيمة الأسمى". وعرض بعد ذلك تسديد نفقات الرحلات.

"أنت شديد السخاء، يا إيرول"، قال ماكس ذلك شاعراً بالارتياح من التحرر من عبء التكلفة، "لا أعرف كيف كان في إمكاننا تدبّر الأمر من دونك".

"تنفيذ مهمتنا لا يقدَّر بثمن"، قال إيرول بصوت كئيب، "ربما كانت الرسالة التي سلّمني إياها المبعوث الثالث عشر الأكثر ترويعاً. قال إن العالم لن يدخل مرحلة التبدل المقدَّر حدوثها إذا فشلنا في العودة مع القيمة الأسمى. لن نهلك على الفور إذا فشلنا، ولكن الفوضى العارمة - التآكل البيئي، العنف والحروب، الفقر، الجشع، والخوف الذي ساد إلى حدّ كبير في القرنين العشرين والحادي والعشرين - ستتواصل حتى يُدخل الكوكب نفسه في فترة من الركود يقوم خلالها البشر بتدمير أنفسهم في نهاية المطاف. سيؤدي هذا الأمر إلى ستة وعشرين ألف عام من الظلمة قبل انبثاق البشر من جديد لإصلاح الضرر الذي أُحدث".

"لم يشاطرني المبعوث مع سي. دي. النتائج المروّعة للفشل". قال ماكس مقاطعاً.

"لماذا عليه القيام بذلك؟"، سأل إيرول، "فسي. دي. هو البريء الحقيقي بيننا. إذا كان عليه العثور على القيمة الأسمى، فمن خلال الجاذبية البحتة لشخصيته. وقيام القيمة الأسمى بالعثور عليه هو الأمر الأكثر احتمالاً.

إذاً، لا يحتاج سي. دي. إلى حافز إضافي. لذلك، أقترح أن نتدبّر أمر سفرك بحيث يكون سي. دي. برفقتك في المرحلة النهائية. يُفترض بك البدء بخوان، كما أظن، لأنه قريب من الأماكن المبجّلة هنا في شياباس ومن مواقع أخرى ربما في المكسيك وغواتيمالا. بعد ذلك، ضع خططاً للسفر مع آلن وتشيل إلى كاليفورنيا.

دعني أتحدث إلى الآخرين للتحقق من المواقع التي سيختارونها، فأتمكن من القيام بالتدابير الضرورية لأجلك".

* * *

كما ثبت في النهاية، لم يكن ماكس بحاجة إلى الأيام الأحد عشر بأكملها للسفر مع خوان.

لقد سبق لخوان أن زار تشيكن إيتزا، والأهرامات الأكثر تبجيلاً في شياباس ويوكاتان، وبعض الواحات العجيبة المخبّأة في البراكين المحيطة بإيزابا. كانا يتنقلان أحياناً سيراً على الأقدام مع والد خوان، مانويل، الذي رافقهما طوال الرحلة.

وبما أنهم لم يكونوا يعرفون بالتحديد ما الذي يبحثون عنه، كانوا طوال الوقت متيقظين لأي إشارة أو طاقة لا يمكن تفسيرها، أو شخص قال أمراً ما أو قام بأمر ما خارج المألوف.

لقد تعاضدوا ولكنهم لم يعثروا على القيمة الأسمى. وخبر ماكس غرابة البراكين، وشعر بحضور عبق الحياة القديمة عند أسفل الأهرامات، ولكن أحداً لم يبدُ أنه مرشح محتمَل.

وعاد ماكس إلى دانا بوينت وعلم أن الطبيب آلن أمضى شبابه في أوهايو بالقرب من العديد من التلال الصغيرة حيث دُفن الأميركيون الأصليون القدماء. والطبيب آلن متسلّق جبال أيضاً، وزار برفقة ماكس العديد من القمم خارج أسبن، كولورادو، حيث أمضى فصول الشتاء وبعض فصول الصيف في صباه. ولكن، بالرغم من تمضية الأيام الأحد عشر في كولورادو، وأوهايو، وأنحاء أخرى من الغرب الأوسط، لم يجدوا أي أثر للقيمة الأسمى.

وبما أن الطبيب آلن أسرّ لماكس أنه شاهد يوفو منذ عدة سنوات في مسقط رأسه في ولاية أوهايو، كان يعتقد أن القيمة الأسمى قد

تكون كائناً من عالم آخر. ولكن ذلك لم يقدّم أي مساعدة، لقد استمرا في عدم معرفة ما الذي يبحثان عنه.

وتدبّر ماكس أمر لقاء تشيل في فندق غراند كانيون في أريزونا. لقد شعر تشيل بفرح كبير عندما زار متنزهات طبيعية كان قد زارها في صباه، ظنّاً منه أن القيمة الأسمى قد تعود إليه في مكان مماثل يتمتع بجمال طبيعي.

من غراند كانيون، انطلقا إلى جانب يلوستون، ومن ثمّ عادا إلى الشواطئ الكاليفورنية البعيدة على امتداد بيغ سور، وسط أشجار السَكوية الحمراء، وقصدا يوزميت أخيراً.

كان يومهما الأخير معاً، وكانا يعبران موقع التخييم الخاص بهما عندما رأى تشيل رجلاً ملتحياً، غريب المظهر، يشوي نقانق على مسافة بعيدة من المخيِّمين الآخرين، وذا شعر أبيض أشعث، ولحية طويلة بيضاء، ويرتدي جينزاً وقميص فانلّة للعمل. كان يتحدث إلى نفسه بصوت مرتفع وبطريقة غير منتظمة.

لقد تمثّل انطباعهما الأول بكون الرجل مجنوناً أكثر منه متنوّراً. ومن جهة أخرى، ونظراً إلى أنهما أمضيا أحد عشر يوماً في البحث عن القيمة الأسمى من دون وجود أي بصيص أمل، واعتقادهما القوي أن القيمة الأسمى قد تكون الفادي في الواقع، دنوَا من الرجل.

وفي أثناء اقترابهما، كان هناك أمر مألوف لدى الرجل، فشعر ماكس بصدمة كبيرة ولم يصدّق ما شاهدت عيناه.

إنه لويس.

لم يرَ ماكس شقيقه منذ أكثر من عشرين عاماً، ولم يكن يملك أي فكرة عما إذا كان لا يزال على قيد الحياة.

فرفع لويس نظره وقال.

"حسناً، حان وقت ظهورك".

ظنّ ماكس لوهلة – وبخلاف كل الاحتمالات – أن لويس قد يكون في الواقع القيمة الأسمى. ولكنه تذكر مدى عنف لويس في معظم مراحل حياته، وتمنّى بحرارة ألا تتخد القيمة الأسمى شكلاً مماثلاً.

ومن جهة أخرى، لم تكن لتشيل فكرة عن سلوك لويس، ولكنه أصرّ على احتمال أن يكون هو القيمة الأسمى التي يبحثون عنها حتى بعد أن عرّفه ماكس إليه. وجلسوا إلى طاولة النزهة بجانب المشواة وتشاطروا النقانق الساخنة، والرقاقات، وشراب الشعير الذي أحضره لويس معه.

في أثناء العشاء، وبينما كان ماكس جالساً بهدوء يراقب، تطرّق تشيل إلى مغامرتهما في إيزابا وإلى مهتمهما المتمثلة بالعثور على القيمة الأسمى. فلم يتفاجأ لويس بالقصة، ولكنه حدّق إلى ماكس بنوع من الحسد والكره الدفين اللذين لطالما أبداهما لدى تحقيق شقيقه إنجازاً ما.

فشعر ماكس بعدم ارتياح متزايد، واقترح على تشيل المغادرة قائلاً إنه يتعيّن عليه لقاء الدب الراكض في وقت لاحق من ذلك المساء لمواصلة البحث.

لدى سماع ذلك، نظر لويس إلى ماكس وقال:

"لن تعثر أبداً على القيمة الأسمى ما لم تصطحبني معك. سأوضّب أغراضي وأكون مستعداً للذهاب بعد قليل".

فشعر ماكس بقلق فوري وقال بسرعة:

"ولكن لا وقت لدينا لاتخاذ التدابير المناسبة. ولا مال لدينا لذلك".

"*المال*!"، صاح لويس، "إنه كل ما اهتممتَ به وكل ما اهتم به والدنا يوماً". فجأةً، بدا الأمر كما لو أن خمسين عاماً تلاشت.

فدفع لويس ماكس بقوة، وبدأ بخنقه بكل قوته الجنونية التي يمتلكها منذ صغره. ولكن كان هناك ثلاثة أسابيع متبقية ليحتفل بذكرى مولده الخامسة والستين. وبالرغم من الاندفاع الفجائي للأدرينالين الذي أمّن له السيطرة على شقيقه، لم يدُم اندفاع نشاطه أكثر من دقيقة واحدة.

وتمكن تشيل الذي يبلغ طوله ستّ أقدام ونصف، وفي حالة جسدية ممتازة من إبعاد لويس عن ماكس وكبح جماحه. وسمع مخيِّمون آخرون الفوضى وأسرعوا لتقديم المساعدة.

فاستُدعي أحد حراس المتنزه، واعتقلت الشرطة المحلية لويس بسبب الاعتداء الذي قام به. وبالرغم من ألم عُنُقه، لم يُصب ماكس بأذى. وشكر تشيل لإنقاذه، وغادرا.

وبعد وقت قليل، ذهب كل منهما في طريقه، وواصل ماكس مخططه للقاء الدب الراكض في ذلك المساء.

* * *

انضم الدب الراكض إلى ماكس في كوخ في يوزميت، وبدآ رحلة حملت ماكس إلى المواقع الهندية القديمة المنتشرة في كل مكان من مونتانا وكندا. ولكن، وبالرغم من قدرة الدب الراكض على التواصل مع القيمة العظمى، لم يكن هناك ما يشير إلى وجودها.

كان شو صن باك الشخص التالي الذي سافر معه ماكس وفقاً للجدول الموضوع، فالتقيا في فانكوفر. وبتنقلهما على امتداد شاطئ كولومبيا البريطانية، زارا أماكن جميلة، ولكن شو صن باك اعترف أنه إذا أراد العثور على القيمة الأسمى فإنه سيجدها على الأرجح في الصين لأنه وطنه الحقيقي، والوطن الحقيقي لذكرياته الأكثر تبجيلاً.

هكذا، عبرا المحيط الهادئ، وهبطا في بكين. ولكن لم يكن هناك ما يشير إلى وجود ضالّتهما بالرغم من زيارتهما للسور العظيم والقرية الصغيرة النائية حيث وُلد صن باك.

من الصين، طار ماكس إلى اليابان مباشرَةً للقاء يوكو.

فسافرا معاً إلى هوكايدو، ونيكو، ومواقع مبجَّلة عديدة أخرى كان ماكس قد زارها في أثناء تصوير فيلم *البحث عن ألغاز قديمة*، ولم يجدا أي أثر للقيمة الأسمى.

بعد ذلك، غادر ماكس إلى فييتنام. فاصطحبت ميلودي جدتها معهما لمساعدتهما على تحديد مكان القيمة الأسمى في أرض أسلافها المبجَّلة. لقد أُطلعت جدة ميلودي على قصة الاثني عشر، ولم تبدُ عليها الدهشة بل الفخر لأن حفيدتها ستكون جزءاً من أمر هام جداً.

ومع ذلك، فقد بكت في أثناء تجوالها في الريف الجميل الذي أمضت صباها فيه. وبالرغم من زيارتهم أكثر من عشرين موقعاً مُبجَّلاً وقرية في مختلف أنحاء البلد، ثبت أن رحلتهم كانت بلا جدوى.

فشعرت ميلودي بخيبة أمل كبيرة بخلاف جدتها.

"يكفي أننا بحثنا عن القيمة الأسمى في أرضنا المُبجَّلة"، قالت، "فالقصد يكون أحياناً بأهمية النتيجة المبتغاة. كان قصدنا طاهراً ولا شك في أنه سيساعد الآخرين على إتمام بحثهم عن القيمة الأسمى".

وأدرك ماكس بعد ذلك أن هذه المرأة تعتقد بمهمتهم من كل قلبها، وقد منحه ذلك أملاً جديداً.

ثمّ أضافت قائلة: "أنا على ثقة تامة، أن القيمة الأسمى ستظهر على صورة مبعوث. فظهور القيمة الأسمى وارد في معتقَد تبنّته عائلتنا طوال قرون إضافةً إلى توقعات بحلول نهاية الأزمنة.

الفصل الحادي والثلاثون

حب دنيوي

تشرين الثاني/نوفمبر 2012

من فيتنام، طار ماكس إلى ليما، البيرو، وبعد ذلك إلى تروجيلو حيث التقته ماريا وابناها الأكبر سناً في المطار.

فعانقت ماريا ماكس بحرارة، وتذكّر كم كانت جميلة عندما التقيا للمرة الأولى قبل أربعين عاماً تقريباً.

فعاد ماكس خطوات قليلة إلى الوراء ونظر إليها في أثناء تعريفه إلى ابنيها أندرياس وسيباستيان، فرأى امرأة لا تزال تحتفظ بجمالها، ونعومتها، ودرايتها، إضافةً إلى جاذبيتها.

"وصلتَ في يوم مميّز جداً"، شرحت بفخر متّقد، "تحتفل ابنة سيباستيان الكبرى، ريناتا، اليوم بذكرى مولدها الخامسة عشرة. ستحتفل كل العائلة معها في منزلي، لذلك سيتسنّى لك لقاء كل أفراد عائلة توكانو مرة واحدة... أعلم أنك مرهَق من الرحلة الجوية"، أضافت، "سيصطحبك أندرياس إلى فندقك، في حين أقوم وسيباستيان بالإعداد للمناسبة الاحتفالية. سيعود أندرياس لاصطحابك من فندقك عند السادسة من هذا المساء. لا شك في أننا سنحتفل طوال الليل، لذلك خُذ قسطاً من الراحة". وضحكت في أثناء طبع قبلة على خد ماكس، وعانقته بسرعة.

في السيارة، وجد ماكس سهولة في التحدّث إلى أندرياس الذي شعر بالفضول لسماع كيفية التقاء ماكس ووالدته قبل ولادته بمدة طويلة. لم يسبق لوالدته أن حدّثته عن الأمر، ولم يكن يملك أي فكرة عن وجوده حتى قيام ماكس بالاتصال ودعوتها إلى الانضمام إليه في إيزابا.

ونظراً إلى سلوك الشاب المتساهل، قرر ماكس الانفتاح عليه وإخباره كل القصة.

لمَ لا، قال في نفسه. *أسوأ ما سيحدث هو أنه سيعتبرني الصديق الأميركي المخبول لوالدته.*

ولكن أندرياس لم يتفاجأ عندما أُطلعَ على ما جرى في إيزابا وظهور المبعوث الثالث عشر.

"وصفت لي والدتي ما صادفتْه وقالت إنك ستأتي لمساعدتها في البحث عن القيمة الأسمى. إنها والدة مذهلة، وأصدّق كل كلمة تقولها. لا أعرف إذا كانت من سيعثر على القيمة الأسمى". أضاف ذلك مبتسماً، ملقياً نظرة سريعة على ماكس. "ولكنني سعيد بقدومك وإدخال هذه المغامرة إلى حياتها. كانت مغرَمة جداً بوالدي، وعندما توفّي فجأةً، دخلت في حداد عميق. ولم تبدأ بالضحك والابتسام مجدداً حتى الآن. سيكون من الرائع لها أن تسافر معك وتزور مجدداً الأماكن التي زارتها في شبابها".

ولدى ذكر زوج ماريا، شعر ماكس بالفضول.

"حسناً، والدتك امرأة مميَّزة جداً"، قال، "وأنا على ثقة من أن والدك كان رجلاً مميَّزاً جداً. آسف بسبب وفاته في سنٍّ صغيرة".

"أجل، والدي كان رائعاً"، قال أندرياس، "كان مُعيلاً رائعاً ورجلاً مُحباً للمرح. لقد أسعد والدتي كثيراً وكان يمازحني وأشقائي على الدوام. إن الأحفاد يفتقدونه أيضاً، ولكننا على درجة كبيرة من السعادة لأنه دخل

حياتنا. سترى في الحفلة هذا المساء مدى حيوية عائلة توكانو. والدي متحدّر من عائلة كبيرة جداً، وسينضم إلينا أشقاؤه وأبناؤهم. سنكون أكثر من مئة شخص بالإجمال ومعظمهم من العائلة نفسها".

في تلك اللحظة، دخل بالسيارة إلى موقف فندق شيراتون حيث التقى ماكس بماريا منذ عدة سنوات، ولم يتمالك نفسه عن إلقاء نظرة سريعة على المتنزه.

"سآتي لاصطحابك عند السادسة مساءً. إليك رقم هاتفي". قال مسلّماً ماكس بطاقة تعريفية، "إذا احتجتَ إلى أي شيء، اتصل بي فحسب. سيباستيان ووالدتي يهتمان بتفاصيل الحفلة، لذلك سأكون متوافراً للمساعدة عندما تدعو الحاجة".

وخرج ماكس من السيارة، وأخذ الحارس حقيبته.

"لا، سأكون بخير"، أصرّ ماكس، "لدينا أربع ساعات تقريباً قبل اصطحابي، ويمكنني أخذ قيلولة طويلة". ودار حول السيارة، وعانق أندرياس، وشكره لحُسن ضيافته.

* * *

استسلم ماكس للنوم بعد دقائق من استلقائه على السرير.

وآخر ما فكر فيه قبل النوم ماريا الشابة التي التقاها قبل عدة سنوات، وقبّلته في المتنزه أمام نافذة غرفته في الفندق، وقالت له إنها ستحبه إلى الأبد - كما يحبها أيضاً - ولكن قدرَيهما لم يسمحا لهما بأن يكونا معاً في هذه الحياة.

ولكن ماكس أدرك عندما رآها في المطار أن ذلك الجزء منه لا يزال يحبها ويتوق إلى الحياة العائلية المسالمة التي عاشتها مع زوجها.

وليس معه.

* * *

حضر ماكس عدة حفلات في حياته، ولكن الحب، والضحك، والموسيقى، والاحتفالات التي أُقيمت لريناتا في *كوينسيانيرا* أذهلته حقاً.

كان هناك أحفاد تتجاوز أعمارهم الثلاث سنوات، إضافةً إلى مولود جديد لأحد الأنسباء، وصديقات ريناتا المقرّبات اللواتي يرتدين عباءات ملونة، وخطّاب شبان بأفضل بذلاتهم. كانت هناك عمّات وخالات، وأعمام وأخوال، وأحفادهم، وأزهار وزينة، وأضواء ملونة، وفوق كل شيء، الحب.

كان الجميع يرقصون ويغنّون. لقد بدا الأمر كما لو أن نصف العائلة موسيقيون محترفون. فغنّوا أغنيات شعبية، وأغنيات حب كلاسيكية، وعزفوا موسيقى خاصة وضعوها بأنفسهم، بعضها كان رومانسياً وبعضها الآخر مليئاً بدعابات عن ريناتا وأصدقائها.

وكما توقعت ماريا، استمرت الحفلة طوال الليل. لقد شَووا حملاً كاملاً على سيخ معدني وأعدّوا أنواع الأطعمة اللذيذة كافة التي يمكن تخيّلها، بما في ذلك كعكة جميلة يبلغ ارتفاعها خمس أقدام تقريباً.

وتمّ تعريف الجميع إلى ماكس، فعانقوه وحملوه على الشعور أنه فرد من العائلة. كانت المرة الأولى منذ مغادرته إيزابا التي ينسى فيها في الواقع بحثه عن القيمة الأسمى، ويمرح. فرقص، وأكل، وشرب، وغازل الفتيات الكبيرات والصغيرات، ومازح الأحفاد، ووجد نفسه يمارس لعبة الكلمات والأعداد مع الأطفال.

لقد أبهجهم بقصصه عن الهند والبلدان النائية، ولكنه لم يتمكن من رفع أنظاره عن ماريا أيّاً تكن الأعمال التي يقوم بها.

كانت ترتدي فستاناً أسود متواضعاً، وأمضت معظم وقتها في اللعب مع الأطفال. وبقيت البسمة مرتسمة على وجهها طوال المساء تقريباً، وبدت بكامل حيويتها ونشاطها في أثناء اللعب مع أحفادها

الأصغر سناً لدرجة أنه يمكن للمرء أن يخطئ الظن أنها أحد الأحفاد وليست الجدة.

وقُبيل نهاية المساء - أو بدء الصباح - وبعد أن ساعد ماكس ماريا على وضع العديد من الأحفاد في السرير، التفتت إلى ماكس وشكرته.

"غداً، حسناً، أظن، اليوم في الواقع، وبالرغم من تأخر الوقت، سننام في وقت متأخر، وسأمرّ بك لاصطحابك من الفندق، وسنطير إلى أريكويبا. من هناك، سنذهب إلى كوزكو، وماتشو بيتشو، وبونو، وكوباكابانا، وبحيرة تيتيكاكا. لقد كانت الرحلات الأكثر تبجيلاً التي قمت بها في شبابي، والأماكن التي يُحتمل أن نجد فيها ما نبحث عنه".

"لقد زرت تلك الأماكن أيضاً، بفضل عملي في الأفلام"، قال، "الآن، أريد أن أشكرك مجدداً على الليلة. لقد كانت استراحة ممتعة في أثناء البحث. لم يسبق لي أن شعرت بهذا الكمّ من الحب في منزل واحد. إن مشاهدتك مع أحفادك والعائلة بأكملها أمر مميّز جداً".

"لا، أنا من يجب أن أشكرك"، أصرّت ماريا، "لقد جاء اتصالك في أفضل مرحلة من حياتي. في إيزابا، لقد شعرت مجدداً بوجود غاية سامية لحياتي. لقد عشت حياة رائعة، ولكنني أشعر أن حياتي تبدأ مجدداً".

بعد ذلك، رافقته إلى الباب الأمامي للمنزل.

"هناك سيارة أجرة في انتظارك لتقلّك إلى فندقك. تقلع رحلتنا الجوية عند الواحدة من بعد الظهر، وستكون لنا فرص عديدة لتبادل أطراف الحديث في أثناء الرحلة. لم تتسنَّ لي الفرصة في إيزابا لسؤالك

عن حياتك وعائلتك بسبب وجود ذلك العدد الكبير من الأشخاص. أتطلّع إلى معرفة المزيد عنك في أثناء هذه الرحلة".

* * *

بحث ماكس وماريا عن القيمة الأسمى في الأيام العشرة التالية من دون تحقيق أي نجاح.

كان ماكس قد حجز غرفتين منفصلتين في كل فندق، ولكنهما اكتشفا أن الحب العميق الذي جمعهما في بادئ الأمر منذ عدة سنوات لم يمت أبداً. وكونهما بمفردهما وبمعزل عن أي إلهاء، لم يتمالكا نفسيهما عن الوقوع في الحب مجدداً.

لقد دخلا في إيقاع طبيعي جعل السفر ممتعاً وخالياً من أي عناء. لقد استمتعا بإخبار قصص لبعضهما بعضاً، وإبداء ملاحظات، ولقاء عدد كبير من الأشخاص. وعلى متن القطار إلى بونو من أريكويبا، لعبا الورق، وصُدم ماكس برؤية مدى تنافسية ماريا، علماً أنه لم يكن يبدو عليها التركيز على اللعب والرغبة في نصب الشرك له والتغلب عليه.

وفي أثناء توجههما إلى ماتشو بيتشو سَيراً على الأقدام، أخذ ماكس بيد ماريا بلطف لمساعدتها على عبور بعض الأجزاء الوعرة من الدرب. لم يصدّق الانفعال الكبير الذي انتابه بسبب لمسة عرَضية، وكانت الرغبة لا تزال موجودة وقد امتدت عبر جسده وعقله.

عندما وصلا إلى كوباكابانا، كان ماكس يمسك بيدها كلما كان هناك عذر للقيام بذلك. لم يستطع رفع يديه وأنظاره عنها.

ولكن ماريا استمرت في التركيز... والبحث. أخيراً، وفي اليوم الأخير من بحثهما على جزيرة صغيرة في بحيرة تيتيكاكا، أقرّت ماريا أنها أُغرمت ذات مرة بماكس.

"أشعر بالخيبة لأننا لم نعثر على القيمة الأسمى"، اعترفت، "لقد اعتقدتُ أننا سننجح في العثور عليها اليوم على هذه الجزيرة. ذُكر في إحدى أساطيرنا أن عصر الروحانية الأنثوية سيبدأ هنا تماماً في بحيرة تيتيكاكا، وفي هذا الوقت بالذات. كان أسلافي الإينكا يعتقدون أن فيراشوشا خرجت من هذه البحيرة وعادت إليها. أنا على ثقة تامة أن معظم أسلافي يعتبرون فيراشوشا الكائن الأسمى. ومن المأمول أن تظهر لنا اليوم".

فابتسمت ونظرت إلى عينَي ماكس وأضافت:

"ولكن في الواقع، لا أشعر بأي خيبة. عندما التقيتك في المرة الأولى، علمتُ أنك ستكون حب حياتي على مستوى روحاني ما. بالنسبة إليّ، لم تنته أبداً تلك اللحظة الفاتنة التي تشاطرناها في المتنزه في تروجيلو. لقد أحببت زوجي والعائلة الرائعة التي كوّناها معاً، ولكن جزءاً مني لم يتوقف أبداً عن حبك. أحبك الآن، وبخلاف الظروف التي كانت سائدة عندما التقينا، لا أرى أي سبب لعدم اتّباع قلبَينا".

ورفعت ماريا يدَي ماكس وطبعت على شفتَيه قبلةً ردّها عاطفةً قوية ورقّة نقلتاهما في الزمن إلى الوراء إلى أماكن قُدِّر لهما التواجد فيها قبل سنوات وفي المستقبل. وبدت القبلة لامتناهية، ولكن ماريا ابتعدت عنه بلباقة ما إن لامست الدموع السائلة من عينَي ماكس وجنتَيها.

"إنها دموع الفرح، يا حبي"، قال، "لقد حلمت بهذه اللحظة طوال حياتي. لا يمكنني أن أصدّق بعد كل هذه السنوات أنني عثرت أخيراً على حبي الدنيوي الحقيقي. بطريقة ما، كنت أشعر على الدوام بالانجذاب إليك وبالأمان. وبرؤيتي لك مع أبنائك وأحفادك، وتفانيك واهتمامك بهم جميعاً، أكد شعوري الداخلي أن البقاء معك في الأبدية سيكون أكبر مكافأة لي في الحياة".

فابتسمت له.

"يا ماكس، لقد عرفتك وأحببتك. لا أستطيع مقاومتك، وأعتقد أننا سنبقى معاً بقية حياتنا. ولكن يجب عليك في هذه اللحظة الاستعداد للتوجه إلى بونو على متن القارب، ومن ثم على متن القطار والطائرة للعودة إلى بقية الاثني عشر الذين يجب أن تواصل معهم البحث عن القيمة الأسمى".

وشرع ماكس بالضحك بمزيج من الارتياح والسرور.

"أجل ولكنْ، هناك الآن سبب أكبر للعثور على القيمة الأسمى وضمان عدم قيام هذا الكوكب بتدمير ذاته بسبب حالات الفوضى وغياب الحكم. سأراك في إيزابا بعد أكثر من شهر. وعندما يتم العثور على القيمة الأسمى، سنضع خططاً في 22 كانون الأول/ديسمبر حول تمضية بقية حياتنا بنعيم وحب".

وابتسم ماكس في أثناء تقبيل ماريا مرة أخيرة، واستعد لمواصلة بحثه.

عقبات

تشرين الثاني/نوفمبر - كانون الأول/ديسمبر 2012

إن مستقبل ماكس مع ماريا منحه زَخماً جديداً. يجب عليهما النجاح وإلا ذهبت أحلامهما سدى.

وواضعاً ذلك الهدف نُصب عينيه، هبط في لندن حيث التقاه يوسكي.

كان يوسكي قد أمضى بعض أفضل سنوات شبابه في إنكلترا، مشاركاً في إعداد أفلام في ستونهنج، وغلاستنبيري، وجزيرة إيونا، وغلندالو في تلال ويكلو جنوب دابلن، والعديد من المواقع المبجَّلة نفسها التي زارها ماكس في أثناء استكشاف المواقع لتصوير فيلم *البحث عن ألغاز قديمة*. كانت جولتهما على هذه المواقع بالتنسيق مع عامل فندق كلاريدجز بمثابة زوبعة من النشاط، ولكنها لم تُسفر عن أي شيء.

وبعدم عثورهما على أي أثر للقيمة الأسمى في الجزر البريطانية، انتقل يوسكي وماكس إلى ألمانيا حيث استكشفا الغابة السوداء والعديد من القلاع الألمانية القديمة.

ولكنهما لم يجدا أي أثر له، وبدأ ماكس بالقلق. فما بدا أنه أمر أكيد غدا أشبه ببحث أخرق.

لا يمكنني التفكير بهذه الطريقة، قال في نفسه بصرامة. سننجح.

وسافرا من ألمانيا إلى فرنسا، وتوقفا في لورد، وفي مواقع قديمة في بروفانس، وأكملا طريقهما إلى شمال إسبانيا حيث كانت لكل منهما في شبابهما خبرات كبيرة بالكهوف التي تعود إلى ما قبل التاريخ في سانتيانالا دل مار خارج سانتاندر.

وبعد أكثر من أسبوع أمضياه بالسفر، زارا أكثر من عشرين موقعاً مبجَّلاً، ومع ذلك، لم يكن هنالك أي دليل على وجود القيمة الأسمى.

لذلك، عاد يوسكي مع ماكس إلى مسقط رأسه في القدس حيث استكشفا المدينة القديمة، وأريحا، وماسادا، وبيت لحم، والبحر الميت، والجليل.

ولكنهما لم يجدا شيئاً. كان قد مضى مئة يوم تقريباً عندما وصل إلى اسطنبول للقاء إيرول.

"يا ماكس، يجب أن تلزم الهدوء، من الممكن دائماً العثور على القيمة الأسمى في اللحظة الأخيرة"، طمأنه إيرول، "ومع ذلك، يجب علينا التحرك قدُماً كما لو أنها ستظهر في أي لحظة. سنقوم أولاً بزيارة سريعة إلى اليونان التي زرتها عندما كنت فتى، وسأُريك الجمال الحقيقي للعالم في وطني تركيا".

ثم أضاف قائلاً: "تركيا هي الأكثر تبجيلاً بين كل الدول. فإذا اختارت القيمة الأسمى الاستمتاع بحياتها يتعيّن عليها العودة بمظهر تركي. سأُريك مواقع لم تحلم بها أبداً، وجمالاً لا يدركه العقل، بما في ذلك الموقع الذي عُثر فيه على سفينة نوح. أعرف كل بوصة على هذه الأرض، وقد اتخذت بعض التدابير لزيارة هذا الموقع ضمن الوقت المحدَّد".

وبالرغم من حماسة صديقه التي لا تفتر، وجمال وطنه التركي، لم يُسفر بحثهما عن أي شيء.

* * *

من اسطنبول، طار ماكس إلى النيبال للقاء الريبونش، وتوجها إلى الأديـرة حيث يُعتقد أن البوذي نفسه ليس سوى تجسّد مبجَّل لمعلّميه القدماء.

وأكمـلا طـريقهما إلى الغابات التي كدّ فيها الريبونش في أثناء سجنه في معسكر الأعمال الشاقة، ولكن لم يجدا أي أثر للقيمة الأسمى بالرغم من الضباب الغريب والهدوء اللذين رافقاهما طوال أيام.

وعـندما ودّع مـاكس الـريبونش، كان كلاهما يعلمان أنهما سيجتمعان مجدداً بعد اثني عشر يوماً في إيزابا. كان قلق ماكس قد بدأ بالظهور، وحاول الريبونش طمأنته.

"لا تقلـق"، قال، "أنا على ثقة تامة أن طاقة القيمة الأسمى ترافقنا الآن، أستطيع الشعور بذلك. أعلم أننا لم نعثر عليها بعد بشكل مباشر، ولكن القيمة الأسمى تنتظرك بالتأكيد في الهند مع سي. دي.

رافقتك السلامة، وسنجتمع قريباً.

* * *

طـار مـاكس مباشَرةً من التيبت إلى دلهي حيث علم أن شيلبا وسـي. دي. خططا لبدء رحلاتهما الداخلية في الهند بدءاً بِله في أعالي الهملايا ومروراً بالتيبت في طريق عودتهما.

في لِه، زاروا ديراً قديماً حيث درست شيلبا في صغرها وحصلت علـى إجـازة صيف طويلة لدى ولادة سي. دي. فالدير هو المكان الأكثـر تبجيلاً في كل الهند، وهناك شائعات تفيد أن الفادي نفسه زاره.

فظـنت شـيلبا أنه قد يكون مكان إقامة القيمة الأسمى، ولكنها كانت مخطئة.

من لِه، شقوا طريقهم بالسيارة عائدين إلى سريناغار. كان كانون الأول/ديـسمبر قد انتصف ووجدوا صعوبة في التغلب على الثلوج في الممـرات الجبلية. وبالرغم من ذلك، لم يتمكنوا من العثور على القيمة الأسمـى في سـريناغار، فطاروا إلى ريشيكيش على نهر الغانج حيث أمضى سي. دي. عدة فصول صيف في صباه مع أحد أعمامه.

كانـت ريـشيكيش طـريقاً مسدوداً على غرار كل الأماكن الأخـرى، وحلّ الثامن من كانون الأول/ديسمبر؛ موعد الرحلة الجوية للعودة إلى مكسيكو سيتي ومن ثم إلى إيزابا.

* * *

بعد الشروع بالبحث بتفاؤل وحماسة كبيرين، تفاجأ ماكس بهذا الفـشل الواضح. لقد كان سي. دي. أمله الكبير، ومع ذلك لم تُظهر القيمة الأسمى نفسها للهندي الشاب أو لأيٍّ منهم.

ولكـنه رفض الاستسلام. لقد تبقّى يومان على موعد اللقاء ولا يزال هناك أمل حتى الحادي والعشرين من كانون الأول/ديسمبر.

يجب الاحتفاظ بالأمل! قال ماكس في نفسه بانفعال.

وحصل على جهاز كمبيوتر. ففي أثناء رحلته الطويلة إلى التيبت والهملايا، لم يلج الإنترنت و لم يتمكن من استخدام هاتفه الخلوي.

ربما ظهرت القيمة الأسمى لعضو آخر من الاثني عشر.

* * *

لكنها لم تظهر لأي عضو آخر.

وحان الوقت للعودة إلى إيزابا – مع القيمة الأسمى أم من دونها – والالتقاء مجدداً بالمبعوث الثالث عشر.

حينذاك، يعلمون ما المقدَّر حدوثه في ذلك اليوم المشؤوم عندما تنقضي روزنامة المايا، إضافةً إلى العديد من الروزنامات الأخرى.

وفي إطار بحثه عن نهاية محتمَلة لهذا الوضع، أمضى ماكس عدداً لا يُحصى ولا يُعَدّ من الساعات منكبّاً على كتاب الأرقام الخاص بيي. أن. وذلك في أثناء مكوثه في الهند وعلى متن الرحلة الجوية من نيودلهي إلى مكسيكو سيتي.

فاتضح له أن 21122012 هو الجواب. إنهما الرقم 11 والرقم 2 اللذان يمثّلان بداية ونهاية. ويشير الرقم إلى النور والظلمة ويتضمن مجموعات مختلفة غير محدودة من الأرقام الأولية وغير الأولية.

لقد تمّ اختبار مهارات ماكس الاستثنائية في الرياضيات على نحو غير مسبوق، وبدا الرقم 21122012 كما لو أنه يتوسل تفسيراً بشرياً يختلف مع اختلاف الشخص الذي يُجري العمليات الحسابية.

ولكنه لم يعثر على ذلك التفسير بالرغم من محاولاته العديدة.

* * *

عندما وصل ماكس وشيلبا وسي. دي. إلى الفندق في تاباشولا، كان الوقت متأخراً في مساء العشرين من كانون الأول/ديسمبر، وكان بقية الاثني عشر مجتمعين بترقّب، آملين استقبال القيمة الأسمى. وماريا هي أول من رحّب بماكس، ولكنها تراجعت لتمنحه الوقت للكلام عندما رأت التعبير على وجهه.

لقد شعروا بالإحباط بعد إخبارهم أنه قدِم مع سي. دي. وشيلبا فقط.

"كيف يمكن حدوث ذلك؟"، قالت ميلودي بحزن، "كنا على ثقة أنك وسي. دي. ستعثران عليه، أو عليها. ماذا سيحدث لنا وماذا سيحل بالعالم عندما تنقضي الروزنامة عند غروب الشمس غداً؟".

فقال ماكس إن العديد من الآخرين يشاطرونها يأسها. فهذه المهمة المبهَمة تطلبت ثقة كاملة بعملية الكشف عن القيمة الأسمى.

كان كل من الاثني عشر قد دخل في ما يمكن أن يكون المغامرة الأخيرة على الأرض بحماسة ويقين أنهم سينجحون في مسعاهم.

ومع اقتراب الموعد وعدم ظهور القيمة الأسمى بعد، بدأت مخاوفهم بالازدياد.

"يجب علينا ألاّ نرتاب بمصائرنا"، طمأنها إيرول، وطمأن كل المجموعة، "لقد بحثنا بقلوب منفتحة وبذلنا قُصارى جهدنا لتلبية طلب المبعوث الثالث عشر. وسنكافأ بالتأكيد. سيكون يوم غد مليئاً بالأحداث، وقد يكون اليوم الأخير على هذا الكوكب بحلّته التي نعرفها. لنسترِح جيداً في انتظار التحديات. لقد أمّن لنا الدب الراكض وخوان ومانويل مكان لقائنا بجانب الكهف. سنلتقي هناك عند الرابعة في حين أن الشمس تغرب عند الخامسة ودقيقتين، وهو موعد حدوث الانقلاب الشمسي وانقضاء روزنامة المايا. لذلك، ناموا جيداً هذه الليلة، ولا تقلقوا. يجب أن نثق بحكمةِ كَونٍ جمعنا كلنا لهذه اللحظة الخاصة في هذا المكان الخاص".

* * *

مُنهَكاً بسبب أسفاره ومحاولاته الفاشلة لحل الرموز الموجودة في كتاب الأرقام الخاص بيي. أن. نام ماكس حتى الظهر تقريباً.

وعندما استيقظ، وجد أنه يوم مشمس، فقرر السباحة في المحيط الهادئ القريب، لأنه قد يكون آخر يوم على الأرض. فوجد الطبيب آلن يُنهي تناول الفطور في وقت متأخر، واقترح الذهاب بإحدى عربات النقل إلى الشاطئ.

كـــان آلـــن قد اصطحب معه لوحات ركوب الأمواج ولوحة إضافية لماكس لاختبار الأمر.

"لم يـــسبق لي أن ركبت الأمواج"، اعترف ماكس، "من الغريب أن أتلقـــى درســـي الأول في الـــيوم الـــذي قد يكون الأخير لنا على الأرض".

أجـــاب الطبيب آلن: "حسناً، عندما أركب الأمواج، أشعر أنني أكثـــر إيمانـــاً مما كنت في أي يوم مضى. إذا كان اليوم سيشهد نهاية الزمن، فركوب الأمواج هو الأمر الوحيد الذي أرغب في القيام به".

قال: "إذاً، لنذهب!".

فوضـــعا لوحَي ركوب الأمواج في عربة النقل. وفي طريقهما إلى الـــشاطئ، اعترف آلن أنه لا تزال لديه شكوك حيال التوقّع بالرغم من مـــصادفة المـــبعوث الثالث عشر، و لم يكن يعتقد أنه سيتم العثور على القيمة الأسمى.

ولكن لم يكن في الإمكان تجاهل الاختبار بسبب فرادته.

وفي أثـــناء تـــوجههما إلى الشاطئ، لاحظ ماكس وجود سيارة تـــشفي قديمـــة، بنية اللون، ومتهالكة تتبعهما، ولكنه فقدها بعد مدة قـــصيرة و لم يعد يفكر فيها. وعندما بلغا الشاطئ، لم يكن هناك سوى سماء زرقاء وأشعة شمس.

فـــسلّمه الطبـــيب آلن لوحة لركوب الأمواج، وسرعان ما جثم ماكس وسقط، وعاد للوقوف والسقوط مجدداً.

أخيراً، تمكن من جلوس القرفصاء على اللوحة، وما لبث أن اعتلى مـــوجة صغيرة. كان انتصاراً مغموراً بالغبطة لم يدم سوى مسافة يارد واحد أو ياردين قبل أن يفقد اتزانه ويسقط في الموجات الخفيفة.

فأطرى عليه الطبيب آلن بحماسة، وقال:

"تملك موهبة طبيعية، يا ماكس. لا أستطيع التصديق أنك هدرت هذا العدد الكبير من السنوات من دون ركوب الأمواج".

"لا يمكنني تصديق ذلك أيضاً"، أجاب ماكس موافقاً إيّاه الرأي، "إذا بقي العالم موجوداً غداً، فإن أحد التزاماتي سيكون تمضية مزيد من الوقت في تعلّم ركوب الأمواج".

"إنها أفـــضل فكرة تبادرت إلى ذهنك منذ مدة طويلة". صاح الطبـــيب آلن من فوق كتفه في أثناء اندفاعه نحو الأمواج. وبينما كان ماكس يتبعه، اعتلى موجة كبيرة حملته إلى الشاطئ.

واســـتلقى مـــاكس على اللوحة، متأملاً قدرة الطبيب آلن على ركـــوب الأمواج وبلوغ الشاطئ من دون فقدان توازنه. وعندما بلغ الـــشاطئ، أشار الطبيب آلن إلى الشمس، ومن ثم إلى العربة عندما بدأ بالابتعاد عن الماء.

كانـــت الشمس في كبد السماء، وأدرك ماكس أن الوقت قد حان للمغـــادرة. ولكـــنه أراد ركوب موجة من دون السقوط، فأومأ إلى آلن بالشروع بتوضيب الأمتعة على أن يوافيه بعد خمس أو عشر دقائق. وجثم بعد ذلك على اللوحة، ونظر خلفه مترقّباً وصول الموجة الكبيرة التالية.

وفجـــأةً ومن بدون سابق إنذار، شعر ماكس بيد تمسك بكاحله وتحـــاول إســـقاطه عن اللوحة. وبعد ذلك، أمسكت يد أخرى بعُنقه وبـــدأت تدفعه إلى أسفل المحيط. كانت المياه بعمق ثماني أقدام تقريباً، ولكن ماكس فقد على الفور قدرته على معرفة اتجاه القعر أو الشاطئ.

وحـــاول التخلص من مهاجمه، ولكنه لم يتمكن من الدفاع عن نفـــسه وكاد يختنق. فناضل على نحو يائس وتمكن من بلوغ سطح الماء لثوانٍ وجيزة، ما يكفي لالتقاط أنفاسه، ولكنه فقد قدرته على المقاومة ودُفع إلى الأسفل مجدداً.

وبدأ يفقد وعيه.

وشعر بالضعف والعجز عن المقاومة.

وقبل أن يفقد وعيه، تذكّر ماكس كل الأوقات التي حاول فيها لويس خنقه، وحاول رؤية وجه المهاجم. كان رجلاً ذا شعر طويل ورمادي، وعينَين شريرتين لم تغب عن ناظرَي ماكس في طفولته.

ولكن لم يكن الأمر ذات أهمية، كان ماكس يغادر جسده.

فشاهد مجدداً الأسماء الاثني عشر والألون الاثني عشر، إضافةً إلى رسالة صَفح.

لا بأس... لقد بذلتَ قُصارى جهدك.

نهاية العالم ليس خطأك.

* * *

كان لويس قد وُضع في مصحة للأمراض العقلية طوال ثلاثين يوماً بعد الحادثة في متنزه يوزميت الوطني. وعندما تخلّف ماكس عن جلسة الاستماع القانونية أُطلق سراحه.

لقد سمع ما قاله تشيل عن اللقاء في إيزابا في 21 كانون الأول/ديسمبر، وما إن أُطلق سراحه حتى انطلق إلى المكسيك ووضع الفندق الحديث الوحيد في تاباشولا تحت المراقبة.

أخيراً، أثمر صبره وتبع ماكس مع رجل آخر إلى الشاطئ، وانقضّ عليه بعد مغادرة الطبيب آلن.

لقد أراد لويس التأكد من عدم تمكن ماكس من تحقيق هدفه النهائي أيّاً تكن النتائج. فتأمّل نفسه برضا وحبور في أثناء إمساكه بماكس، وكان على شفير الاختناق ولكنه لم يبالِ.

لقد رغب في الموت إذا كان ذلك كفيلاً بإخفاق ماكس.

* * *

تقبّل ماكس واقع إخفاقه في مهمته واستعد لدخول النفق الأبيض. وفجأةً، رأى ما بدا أنه الطبيب آلن يسبح باتجاه شخصين يناضلان، وابتعد عن النور.

* * *

لم يتطلب الأمر سوى لحظات لوصول الطبيب آلن، وهو سباح ماهر، إلى المهاجم الذي خارت قواه بسبب عدم تمكنه من التنفس، وكان عاجزاً عن التنفس.

وسحب آلن ماكس من قبضة الرجل وشق طريقه باتجاه الشاطئ، راكلاً مطاردهما كلما حاول الاقتراب.

لقد أدرك الرجل أنه هُزم، وابتعد في أثناء اتجاه الطبيب آلن بماكس إلى الشاطئ. وشرع على الفور بعملية إنعاش بواسطة الفم، وبعد عدة دقائق، سعل ماكس وتقيّأ كمية كبيرة من المياه المالحة التي ابتلعها في أثناء وجوده تحت الأمواج.

بعد لحظات قليلة، وقف وهو يترنّح، ولكنه، كان لا يزال حيّاً.

"من ذلك المجنون، ولماذا كان يحاول إغراقك؟"، سأل آلن، "لقد صادفتُ نازيين في ما مضى في أثناء ركوب الأمواج، ولكن لم يسبق لي أن رأيت أمراً مماثلاً. ربما أستطيع العثور على شرطي لاعتقاله. كاد يقتلك".

فأومأ ماكس إليه، طالباً منه نسيان الأمر، وشرح:

"ذلك الرجل الذي حاول إغراقي هو شقيقي. كان يفعل ما دأب على القيام به على الدوام، لا أهمية للأمر. الأمر الهام هو العودة إلى الفندق. فالآخرون في انتظارنا ويتساءلون عن مكان وجودنا. سيكون لدينا الوقت للوصول إلى إيزابا قبل غروب الشمس".

ووقف ونظر إلى منقذه ممتنّاً.

"لقد أنقذت حياتي. آمل أن يتمكن الاثنا عشر من إنقاذ العالم. علينا الاستمرار في المحاولة".

فوافق الطبيب آلن، وقاد السيارة بأقصى سرعة ممكنة باتجاه الفندق في تاباشولا. وفي الطريق، ألقى نظرة سريعة على صديقه للتأكد من أنه بخير، وكان سعيداً لرؤية اللون يعود إلى وجهه. أخيراً، وبعد لحظات قليلة من السعال، قال ماكس:

"لست واثقاً من سبب قيام شقيقي باللحاق بي ومحاولة قتلي، ولكنني أعرف أن تدخلك حال دون وقوع كارثة. فبالرغم من عدم عثورنا على القيمة الأسمى، علينا الافتراض أنها ستظهر بطريقة ما. رجاءً، لا تدع الآخرين يعلمون بشأن الهجوم. إنهم قلقون بما يكفي، ولا أريدهم أن يعتبروا ذلك نذير شؤم أو يقلقوا بشأني، في حين أنه يُفترض بهم التركيز على التضرع لظهور القيمة الأسمى".

فوافق الطبيب آلن قائلاً:

"لك ما تعتقد أنه الأفضل. صدقاً، لا أزال أجد الأمر غير معقول. فروزنامة المايا ليست سوى أسطورة أخرى كسواها من الأساطير. إنني لم أصدق أي من القصص المشابهة التي تتعلق بهذا العالم، ولا أميل أيضاً إلى تصديق قصة نهاية الأزمنة هذه. لا تُسئ فهمي، آمل حقاً في حدوث أُعجوبة اليوم. ولكن أياً تكن النتيجة، سأركب الأمواج غداً، وإذا ظهر شقيقك المجنون ذاك، فسيكون هو من يَغرق وليس أنت".

الفصل الثالث والثلاثون

نهاية الزمن

21 كانون الأول/ديسمبر 2012

اشتدت سرعة الهواء وازداد برودةً في أثناء شق عربات النقل طريقها إلى إيزابا.

وعندما التقى مانويل بالاثني عشر عند أسفل الجبل، وهمّوا بالسير باتجاه البَراح إلى جانب الكهف، بدأ المطر بالهطول، وغدا الطقس بارداً. وقبل بلوغ البَراح، تحوّل المطر إلى بَرَد.

لم يسبق أن أمطرت بَرَداً في إيزابا، ادّعى خوان. لقد بدا الأمر حقاً كما لو أنها نهاية العالم.

وساد التخوّف والتوجّس، حتى إن سي. دي. كان يجفل لدى تساقط البَرَد على شعره الأسود وبشرته. وعندما وصلوا إلى مكان التجمّع، كان الوقت قد شارف على بلوغ الرابعة والنصف، قبل ثلاثين دقيقة من الانقلاب الشمسي.

ولم يكن هناك أي أثر بعد للقيمة الأسمى.

كان الجميع يشعرون بالبرْد، لذلك دخلوا الكهف تجنّباً للمطر والجليد. وأشعل الدب الراكض النار، وكان يرتدي رداءه الاحتفالي بما في ذلك ريشة العقاب الموضوعة في عصابة رأسه. واحتشدوا بجانب بعضهم بعضاً حول النار ليجفّوا من البلل. ولكن الهدوء والغبطة اللذين

شعروا بهما في أثناء وجودهم في الكهف في المرة السابقة أصبحا ذكريات بعيدة.

فجأةً، توقف تساقط المطر والبَرَد، واخترقت الأشعة الأخيرة للشمس الأشجار، وساد سكون تام.

فغادرت المجموعة الكهف معاً وعادت إلى البَراح. لقد ظهر المبعوث الثالث عشر مجدداً.

وتكلم المبعوث الثالث عشر بهدوء ووضوح.

"لقد عدتم في الساعة المحددة، ولكن لا يوجد بينكم أي وجه جديد، وجه القيمة الأسمى. ماذا عن بحثكم؟".

فلم يُجِب أحد. وبالرغم من مرور دقيقة واحدة من السكون فقط، بدا الأمر كما لو أنها ستدوم إلى الأبد.

وبدأت الشمس بالغوص بسرعة.

فنهاية الزمن وشيكة، لقد فشلت المجموعة.

في كبد السماء، ظهر نسر، وانقضّ وهبط على كتف الدب الراكض. وأُجفل الدب الراكض ولكنه استعاد رباطة جأشه بسرعة وقال:

"لقد قيل منذ زمن بعيد في احتفالات لاكوتا والهوبي إن إشارة بدء زمن السلام والتناغم تكون وشيكة عندما يجتمع النسر والعقاب معاً"، وأشار إلى الريشة على رأسه، "هي دلالة بالتأكيد على أننا لم نُخفق وأن القيمة الأسمى موجودة معنا في الواقع".

وبعد لحظة، سُمع صوت المبعوث الثالث عشر مجدداً.

"الدب الراكض مُحق. إن ظهور هذا النسر هو دلالة على أن القيمة الأسمى موجودة في هذه اللحظة بالذات. يجب على أحدكم في الواقع أن يكون الشخص الذي بحثتم عنه والذي يرمز إلى القيمة الأسمى".

ففاجأهم النبأ بأجمعهم، وألقوا نظرة سريعة على أحدهم الآخر. وقبل أن يتمكن أيٌّ منهم من التكلم، سُمع الصوت مجدداً:

"أيّاً تكن، يجب عليك أن تخطو إلى الأمام الآن. فالشمس ستغرب، وما لم يتم الكشف عن القيمة الأسمى وتخليص العالم ومخلوقاته، فإن التوقعات غير المرغوب فيها ستتم. سيكون مصير البشرية عصراً من الظلمة بدلاً من النور".

وتوجهت كل الأنظار إلى سي. دي. فهو الوحيد بين الاثني عشر الذي بدا خالياً من أي غرور، ولكنه لم يعرف أنه هو المقصود.

ولكن سي. دي. التفت ببساطة إلى ماكس ونظر إليه بعينَي حب.

ونظر ماكس إلى سي. دي. وفي تلك اللحظة تذكر ماكس ولادته والحب الذي حظي به منذ ولادته.

فأدرك أنه لم يُجرِ أبداً حساباً دقيقاً لتاريخ مولده وفقاً لعلم معاني الأعداد، بالرغم من كل الأرقام التي احتسبها.

وأدرك في تلك اللحظة أن تاريخ مولده – 12 كانون الأول/ديسمبر 1949 – يتضمن القيمة الرقمية 2012/12/12.

فاختبر مجدداً ولادته، وتذكّر للمرة الأولى من هو في الواقع.

وبينما كان يتوجه إلى وسط البَراح، شعر أنه جزء من كل ذلك وأن وعيه أعاد الصلة بكل من عاشوا على الأرض.

ورأى للمرة الأولى المبعوث الثالث عشر بصورته الجسدية، رآه مبعوثاً أميناً وشريكاً في المخطط الكبير الذي استُهل لخلاص الجنس البشري منذ عدة دهور، عندما شاهدوا الخيارات المشؤومة التي اتخذها البشر لدى إنشاء حضارات عنف.

وساد صمت تام حين نظر ماكس والمبعوث الثالث عشر بهدوء إلى عيني أحدهما الآخر. وبينما كانا يتشاطران نظرة امتنان وتقدير لا

نهاية لها، بدوَا كما لو أنهما يعكسان بعضهما بعضاً ويصبحان شخصاً واحداً.

واتخذا شكل آلاف الأشخاص، من رجال ونساء، شبان ومسنّين من مختلف الأعراق والأنواع عاشوا على الأرض.

أيه مساوية وغير مساوية لأيه.

فماكس كان ولم يكن ماكس. وماكس كان ولم يكن المبعوث الثالث عشر. وماكس كان ولم يكن يمثل البشر الذين عاشوا على الأرض.

وتسمّر الاثنا عشر؛ ميلودي، ماريا، يوسكي، تشيل، الطبيب آلن، الريبونش، إيرول، شو صن باك، خوان، يوكو، الدب الراكض، وسي. دي في أماكنهم في أثناء غروب الشمس، وانتهى الزمن الذي كانت البشرية قد خبرته من قَبل.

وتوقف تغريد الطيور.

ولم تكن هناك أي ريح.

هدوء فقط وسكون تام.

* * *

ربما دامت اللحظة إلى الأبد.

ربما دامت أقل من ثانية.

لا أحد يعرف.

لقد تمّ توقع المايا. لقد جرى كل شيء كما تمّ توقعه منذ دهور. بالنسبة إلى ماكس، لقد اختبر الأمر في أثناء اختبار حالة النورانية. ومرةً أخرى، كان هناك نور وحب، ودفء نابع من الأجساد الواقفة أمامه والمبتهجة ببدء زمن جديد للناس.

ومع بدء الزمن مرة أخرى، تكلم ماكس، ولكنه لم يكن ماكس السابق تماماً. كان ماكس المشبَع بوعيه الخاص، قيمة أسمى زرعت وعي

كل من الاثني عشر قبل آلاف السنين. لقد تكلم بلطف وهدوء مريحَين لكل السامعين.

"لقد انتهى الزمن، وبدأ عصر جديد"، قالت القيمة الأسمى بلسان ماكس، "لقد حدث التبدل الكبير. لن يتبدل شيء، ولكن كل شيء سيتبدل. ستبقى الأرض ومخلوقاتها، ولكن وعي الجميع قد تبدّل، وسيستمر في التبدّل في الأزمنة القادمة. كونكم بشراً، ستدخلون عصر حب، وتناغم، وحرية أكثر تلاؤماً مع مصائركم. ستتوقف الحروب عندما تكتشفون السخاء اللامتناهي للمخلوقات كافة. لا يفتقر هذا الكوكب إلى النزاعات، وهو ليس بحاجة إليها. إن الطاقة التي طوّرتموها للبقاء والتنافس سيتم تخصيصها للإبداع والنشاط. هذا ما خُطِّط له منذ البدء وما يُفترض بكل واحد منكم تحقيقه".

وتوقف قليلاً، ومن ثم تكلم مجدداً:

"سيدوم هذا العصر مئة وأربعة وأربعين ألف عام ولكنه قد يمتد إلى أكثر، وفقاً للخيارات المتخَذة من قِبلكم ومن قِبل المتحدرين منكم. هناك على الدوام إرادة حرة، والإرادة الحرة هي التي حملتكم إلى هذا المكان في هذا الوقت. لقد لعب كل منكم دوره على غرار كل من عشتم وتفاعلتم معهم. وبالرغم من أن حلول هذه اللحظة هو أمر مقدَّر، لم يكن موعد حلولها محدَّداً مسبَقاً. فشجاعتكم وحبكم وخياراتكم هي التي جعلت أزمنة النعيم هذه تحلّ على الأرض".

وملأ توهّج الشمس الغاربة البَراح بنور زهريّ وبرتقالي. وكان كل فرد من المجتمعين يتوهج فرحاً بسبب استيقاظ ماكس، وامتدت طاقة الفرح هذه لتطال كل مخلوق حيّ على كوكب الأرض. وعلى الفور، سرت حياة جديدة كان في الإمكان الشعور بها في كل شجرة ونبتة، حتى إن الصخور والتربة التي يقفون عليها شعرت بها.

ابتعد المبعوث الثالث عشر عن ماكس خطوات إلى الوراء وقال مجدداً للاثني عشر:

"أغادركم الآن إلى أمكنة أخرى، ولكنني مسرور بكل ما قمتم به وستقومون به".

ثم أضاف: "سيبقى ماكس معكم، وبالرغم من كونه ما هو عليه، فهو يبقى ماكس الذي عرفتموه سابقاً. لا تلفتوا انتباه أحد إلى اختلافه، لأنه سيسير بينكم كشخص مساوٍ لكم ولا يختلف عنكم، وذلك وفقاً لرغبته، وبالرغم من قدرته على مغادرتكم في أي وقت. احموا ماكس واحموا أنفسكم، واستمتعوا بالحياة التي قُدّر لكم أن تعيشوها".

وقال أخيراً: "ليكن فرح الكون معكم إلى الأبد".

وغادر المبعوث الثالث عشر.

* * *

حتى بعد حلول الظلام، كانت وجوه الاثني عشر ووجه ماكس مُشرقة في أثناء سلوكهم الدرب المبلّل، ووصولهم إلى المكان الذي ينتظر فيه مانويل بأمانة.

وارتسمت بسمة على وجه مانويل في أثناء الترحيب بكل منهم؛ حتى إن السائقين المنتظرين في العربات كانوا يبتسمون. لم يتكلم أيّ منهم، ولكن كان هناك تواصل صامت بينهم في أثناء عودتهم إلى تاباشولا.

لقد حلت نهاية الزمن الذي تحدث عنه شعب المايا ومرت. وزال التخوّف الذي تشاطروه كلهم.

لقد بدأ عصر جديد.

الاستيقاظ

21 كانون الأول/ديسمبر 2012

بينما كانت عربات النقل تُنزل الاثني عشر أمام الفندق في تاباشولا، تسرّبت أنباء إلى تلك البلدة المكسيكية النائية في شياباس عن حدوث ذلك الأمر غير العادي.

كان العلماء قد رصدوا تبدّلاً مفاجئاً في محور الأرض: لقد تبدلت الحقول المغناطيسية، وتبدّل مسار الأرض بالذات.

كانت النتائج لا تزال مجهولة، ولكن المحطات التلفازية والإذاعية ومواقع الإنترنت كانت تورد معلومات متضاربة باستمرار واكتشافات جديدة.

وبالرغم من أنه يُفترض بالحدث التسبب بذعر تام مع وجود بعض التخوّف لدى أولئك الذين ينقلون المستجدات، لقد بدا الناس بغالبيتهم هادئين وادعين. وعبّر العلماء عن ذهولهم بحدوث هذا التبدّل من دون سابق إنذار ومن دون أي أثر كارثي ملحوظ.

لم تحدث أي موجات تسونامي.

ولم تحدث أي زلازل.

في الشرق الأقصى حيث طلع صباح الثاني والعشرين من كانون الأول/ديسمبر 2012، أشرقت الشمس على سماء صافية ونور معتدل غير عادي.

لقد بدا أن اليوم سيكون رائعاً في كل مكان من الأرض.

* * *

عندما دخل ماكس إلى الفندق، كان الجميع مسترخين ومبتسمين، بدءاً بالحراس وانتهاءً بالموظفين المكتئبين. لقد بدا الأمر كما لو أن الجميع اكتسبوا تلك المعرفة والدُّعابة الباطنية نفسها، كان الجميع مترابطين على أعمق مستوى.

لقد بدا الأمر كما لو أنهم خلايا مختلفة في الجسد الحيّ نفسه. لم يكن الأمر مَجازاً بالنسبة إلى ماكس بل واقعاً.

عند العشاء - العشاء الأخير الذي تشاطروه كمجموعة - كشف ماكس عن أن التبدل لم يحدث في الواقع إلا لحظة إدراكه لاختلافه عنهم. ثمّ شرح قائلاً:

"إن قيامنا بإحداث هذا التبدّل لم يكن أبداً أمراً مضموناً. وبصفتي ماكس، كنت طوال حياتي نائماً أكثر مني مستيقظاً. كان عليّ أن أكون على هذه الحال لاختبار الأمر".

وتساءل إيرول المستفهم العملي الدائم حول النقطة المطروحة.

"ولكن، إذا كان الأمر كذلك، لماذا لم تدرك حقيقة اختلافك في آب/أغسطس عندما التقينا كمجموعة ونُشِّطت الطاقات؟". سأل: "هل هناك غاية من حملنا على البحث عنك في الأشهر الأربعة الماضية، أم أنه اختبار لإلتزامنا بالمهمة؟".

فأومأ عدد من الحاضرين برؤوسهم كما لو أنه عبّر عما يجول في خاطرهم أيضاً.

"لم يحدث أي شيء بشكل عشوائي"، أجاب ماكس، "لم أكن مدركاً لاختلافي، ولكن الخطة تطلبت أن يكون ماكس على ما هو

عليه لتنشيط كل دوّامات الطاقة على الأرض لأن الكوكب هو الذي يعاني. إن نظرية غايا حقيقية".

وكانت هناك نظرات مُربَكة في المجموعة، فشرح ماكس:

"غايا هو سيّد يوناني، وتفيد النظرية أن الأرض تملك وعياً واحداً، وكل ما يحدث يؤثّر فيها. وعلى مرّ القرون، تأثرت الأرض، ولا سيما المواقع المبجّلة القائمة عليها، بكل عمل عنفي. لقد اختار الضالعون المواقع المبجّلة نفسها منذ دهور بشكل واعٍ أو بشكل غير واعٍ، وذلك بالاستناد إلى الطاقات القوية التي ظهرت في تلك المواقع.

كل موقع هو دوّامة من الطاقة، وكان من الضروري قيامي بهذه الرحلات إلى تلك الأماكن لأُبرِّئها. هي عملية طويلة بدأت عندما كان ماكس شاباً".

"ولكن كيف عرفتَ أنه يتعيّن عليك زيارة كل هذه المواقع المنتشرة في أماكن مختلفة من العالم؟"، سألت ميلودي.

"بصفتي ماكس، لم أتلقَّ أي إلماعة"، أجاب، "لقد بدأت الرحلة في الواقع مع رحلتي الأولى كطالب إلى البيرو وبوليفيا، عندما زرت بحيرة تيتيكاكا، ولا سيما عندما كنت أعمل على فيلم *البحث عن ألغاز قديمة*. ولكنني لم أدرك حدوث أمر غير عادي. لقد أدركتُ ذلك عندما قمت برحلاتي الأولية كفرد لتدخلوا جميعكم أنتم الاثنا عشر الصورة. لذلك، لم يكن في استطاعتي تذكّر أسمائكم حتى صادفتُ كلاً منكم، كلاً بمفرده، ولم أتمكن من التحقق من أهمية التجمع حتى التقيت بالدب الراكض".

"ولكن، ما كان الهدف من مرافقة كل منا إلى الأماكن المبجّلة في الأشهر الماضية؟"، سأل شو صن باك.

فردّ ماكس قائلاً: "قبل كل شيء، كانت هناك أماكن لم يسبق لي أن زرتها واعتبرتموها أماكن مبجّلة كالأديرة في التيبت، وجزيرة أيونا المبجّلة، والقلاع في ألمانيا، والينابيع النائية في فييتنام والصين. وحتى لو قمت بزيارتها في السابق، فأنا لم أعد إليها إلا بعد أعوام. عندما عدت مع كل منكم، كنت أحمل طاقة كل مكان زرته في السابق مدعوماً بطاقاتكم الفردية". ثم أضاف: "لقد بدا الأمر كما لو أننا نُلهب كل موقع. ولكن وجودي بمفردي لم يُحدث أي تبدل. لم يكن في الإمكان حدوث ذلك حتى مُنح كل موقع مبجّل شحنته، ولم يتبقَّ سوى مفتاح الإلهاب نفسه".

"ماذا تعني بمفتاح الإلهاب؟"، سأل تشيل.

"بصفتي ماكس، كنت مفتاح الإلهاب. ولكن الأمر تطلّب نوعاً خاصاً من مُجريات الأحداث، مُجريات تستند إلى دمج أعلى مستوى من الوعي في كيان ماكس. لم أكتسب ذلك المستوى من الوعي إلا عندما أدركت أخيراً أن ولادتي مرتبطة بتاريخ 12 كانون الأول/ديسمبر 2012، وأن الهدف الوحيد من وجودي هو تحرير البشرية من المادية التي تجرّد كل فرد من إنسانيته وتحط من قدر الطبيعة".

ونظر إلى كل شخص شاركه المغامرة، ثم أضاف قائلاً:

"لقد ساهم كل منكم في هذا الاستيقاظ الأخير. في استطاعتي الشعور بالرغبة والقصد الموجودَين في كل من قلوبكم، بدءاً بماريا، وأراهما بوضوح أكبر ربما في الحب الطاهر اللامشروط الذي يشعّ من عينَي سي. دي... من كل كيانه"، قال بحرارة، "ولكنهما أكثر قوة في الطاقة الجماعية، وفي الطهارة الجماعية لكل منكم أنتم الذين تؤلفون الاثني عشر، ولا تسعون إلى مساعدة العائلات والأوطان فحسب، بل

كل البشرية. لقد اقتنعت – لحظة الارتباط الرقمي والذبذبي – بالأساس الطاهر للحب الذي يُعتبر العنصر الأساسي لكل حياة. إنه في أساس كل حَمْل وولادة جسدية وماورائية. فلو لم أدخل هذه الحالة العليا من الوعي بصفتي ماكس، لكنت مفتاح إلهاب من دون قدرة على شفاء الكوكب، ولما حدث التبدّل الكبير".

وتوقف قليلاً مرة أخرى، سامحاً للحاضرين باستيعاب ما قاله، ثمّ أضاف:

"الأمر مرتبط بمصير البشر أكثر مما يتوقع العلماء"، ورفع الشيء الذي كان أساس اكتشافه، "هذه مفكرة بي. أن. ماهارز. يوجد فيها ما يفسر بعض هذه الترابطات، ولكنني لم أكن أملك القدرة على فهمها بصفتي ماكس. روزنامات الحضارات القديمة، أساطير القبائل الاثنتي عشرة، الألوان الاثني عشر المرافقة لكل منكم إضافةً إلى الطاقة الكونية للعالم الخارجي، كلها مترابطة.

لقد بات صحيحاً أن كل شيء ولا شيء هما أمران مماثلان منذ بدء التبدّل. فلا وجود للزمان، ولا وجود للمكان"، ووضع المفكرة من يده وحدّق إليهم كل بمفرده ثم تابع وقال: "بينما تتطورون وتصبحون كائنات متعددة الأبعاد، ستتحقّقون من أن هذه الأمور ليست سوى بداية رحلة كبرى باتجاه الاستيقاظ... رحلة يتم اكتشافها بشكل أفضل في المستقبل".

ونظرت ماريا إليه، وانعكس مزيج من الحب والخشوع على وجهها.

"أجل"، قالت، "يبدو أن الابتهاج بإنقاذ البشرية هو أمر كافٍ في الوقت الحاضر. ولكن الأسئلة ستُطرح بعد مدة غير بعيدة. أين نذهب بعد خروجنا من هذه الحياة؟ ماذا يجب أن نفعل بما تبقى من حياتنا المبجّلة؟".

قبل أن يجيب، ابتسم لها، وبدا في بسمته وعد أن يعيشا معاً ويحبّا بعضهما بعضاً كما تعهّدا. فابتهج ماكس.

"في الوقت الحاضر، وفي كل الأوقات في الواقع، يكفي أن يختير كل منكم الفرح في وضعه الحالي. قد لا تتبدل حياتكم البتة في الظاهر، ولكن تذكروا في أثناء عيشكم في هذا العالم الواسع والغريب أن كل إنسان تلتقونه، كل حيوان، كل نبتة، لا بل أيضاً أي شيء تعتبرون أن لا حياة فيه، هو كائن ينبض بالحياة، بشكل ما، وإن لم يكن بالشكل المتعارف عليه بيننا نحن البشر. ستستمرون في مواجهة التحديات، لا بل سأستمر أيضاً في مواجهتها لأن كل ما أرغب فيه هو إكمال رحلة ماكس واكتشاف المهام التي في انتظاري".

في الختام، رفع ماكس كأسه لشرب نُخب كل المجتمعين، هم الذين سيواصلون رحلتهم الغريبة.

خاتمة

لم يكشف أي من الاثني عشر الدور الذي سيلعبه كل منهم لتحقيق التبدل الكبير، و لم يكشف أي منهم الهوية الحقيقية لماكس.

في غضون ذلك، ازدهرت الأرض، وتباطأ الانحباس الحراري العالمي وتوقف بعد ذلك. والأكثر إثارة للدهشة أن الإنسان أرسى توازناً مع الطبيعة.

وابتُكرت تكنولوجيات حديثة، واكتُشفت أشكال جديدة من الطاقة. وأصبحت الوفرة أمراً عادياً بالنسبة إلى الجميع. وغاب مفهوم الحرب بعد عقود قليلة، وأصبح التعليم والإبداع الخيارين المتاحين. لم يعد هناك سبب للجريمة.

واستمر العلماء في استكشاف التبدل الجذري الذي حدث في 21 كانون الأول/ديسمبر 2012، ولكنهم لم يتوصلوا أبداً إلى إجماع. فعاد بعضهم إلى الوراء ودرسوا معتقدات المايا القديمة، واقتُرح أن الأرض – وإيزابا بصفة خاصة – موجودة وسط مجرة درب التبّانة ووسط عوالم لامتناهية لم يُطلق عليها أسماء بعد.

لقد نوقش هذا الأمر من دون التوصل إلى إجابة، ذلك أنه يفوق إدراك البشر.

ملحق

بالـــرغم مـــن أن كتاب *الاثنا* عشر كتاب خيالي، فهو يتضمن عناصر واقعية أكثر مما تعتقدون. فالاعتقاد بالتبدل الكبير تعكسه العديد من حضارات العالم وليس المايا فقط.

وســيَثبت في النهاية من دون شك أن الوضع الحالي الذي يمرّ به كوكبـــنا وحضاراتنا بحاجة إلى القيام بأمر ما. وسواء أعتبرتم أنفسكم الدب الراكض أو الطبيب آلن، يمكنكم لعب دور لإيجاد الحل.

فالحقـــيقة، والنـــزاهة، والحب، تبقى على الدوام الأكثر أهمية في الحـــياة. وسيركز التبدل القادم على هذه القيَم البسيطة التي عُرفت عبر العصور.

كونـــنا جنـــساً بشرياً مقيماً على كوكب، فنحن نواجه تحديات كـــبيرة، ولكن الخطوات الأولى تتمثل بالاستيقاظ على ما أنتم عليه في الواقع على غرار العديدين. فقراءة ومناقشة *الاثنا* عشر هي خطوة بهذا الاتجاه، ولكنها ليست سوى خطوة واحدة.

حلّ تفاؤلي ومُلهِم للغز العام 2012. إنها قصة رحلة، وقدَر رجل واحد يكتشف جوهر السر الكامن وراء التوقع القديم حول نهاية العالم في تاريخ 21 كانون الأول/ ديسمبر 2012، وذلك كما توقعته روزنامة حضارة المايا القديمة.

هذه رواية مميَّزة لا تُنسى تتناول رجلاً غير عادي. في طفولته، يعيش كان ماكس في عالم من الألوان والأعداد، ولم يتكلّم حتى بلغ السادسة من عمره. وفي سنّ المراهقة، غامر ماكس في رحلة رسمها له القدر لاكتشاف السر الكامن وراء التوقع الماياوي القديم حول نهاية العالم.

في الخامسة عشرة من عمره، شاهد ماكس رؤيا عجيبة كشفت له عن أسماء اثنَي عشر فرداً يمتازون بالفرادة. وبما أن ماكس لم يستطع تبيّن معنى هذه الأسماء الاثنَي عشر، فقد عجز أيضاً عن تبيّن وجود معنى عميق لذلك. وبعد إكماله دراسته في هارفارد ويال، مرّت ثماني سنوات قبل أن يلتقي ماكس أول شخص من الاثنَي عشر.

ومع أول لقاء له، بدأت رحلة الاكتشاف، وبذل ماكس جهداً كبيراً لكشف النقاب عن هويات الأفراد الاثنَي عشر والمعاني الضمنية لذلك: أفراد سيلتقيهم خلال رحلته بحثاً عن الحقيقة، وعن الصلة فيما بينهم، واحتمال امتلاك أيٍّ منهم الإجابة عما سيحدث للعالم في الوقت المحدد، وهو أنه قد ينتهي.

تحمل الرواية القارئ عبر سلسلة من المغامرات المدهشة إلى القدس، وأثينا، ولندن، والهند، واسطنبول، والصين، واليابان، والمكسيك، وتبلغ منتهاها بفهم سبب وكيفية قيام ماكس والاثني عشر بالتجمّع، كما هو مقدّر لهم، لاكتشاف أهمية 21 كانون الأول / ديسمبر 2012. قد ينجم عن لقائهم تحقّق التوقع الماياوي، والتحكم بمستقبل الحياة على كوكبنا. فالاثنا عشر دون سواهم هم فقط من يستطيعون تقديم الإجابات بما أن قدر البشرية في الميزان.





